# ليست لندن وحدها

تأليف : حسين قدرى

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

قدرى ، حسين .
لوست لندن وحدها .
تأليف : حسين قدرى .
- ط ١ - القاهرة : دار المعارف ، ( ٢٠٠٨ ) .
٢١٢ ص ؛ ٢١ سم .
تدمك : ٩ - ٧٢١٩ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - بريطانيا - وصف ورحلات .
أ ) العنوان .

ديوى ٩١٤,٢

رقم الإيداع ١٦٠٦٤ / ٢٠٠٨ ٢٤/ ٢٠٠٧ /١

تصميم الغلاف : الفنان شريف رضا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

## الإهـــداء

إلى كل الأصدقـــاء الذين عرفتهـــم فى بريطانيا خـــلال الثلاثين عاماً التى قضيتها فى هذا البلد المثلج، البارد ممطر شـــتاءً والبارد ممطر صيفاً والبارد ممطر طول الســـنة.. الأصدقاء الجيديـــن والأصدقاء اللى عايزين قطع رقبتهم وقلتهم أحســـن وإلى كل رفـــاق الغربة وزملاء المهجر.. غفر الله لنا جميعاً.

**حسين قدرى**

# مقدمـــة

عندما ذهبت إلى لندن، ســائحاً، فى صيــف عام ١٩٧٧، فى طريق عودتى من أمريــكا إلى مصر؛ كان فى نيتى أن أبقى فيها أســبوعاً واحــدًا.. وكانت هذه هى زيارتى رقم ١٧ للندن على امتداد حياتى الصحفية حتى وقتها.. لكن رحلة الأسبوع الواحد طالت «قليلاً» لتصبح ٣٠ سنة حتى الآن!!..

وحين اســتقرت بى الحياة فى لندن وأصبحت مقيماً بها بشكلٍ دائم؛ اكتشفت فجأة شــيئاً غريباً جداً: اكتشــفت أننى على رغم زياراتى لإنجلترا ١٦ مرة سابقة على بدء اســتقرارى فيها؛ لم أر من مدن إنجلــترا غير مدينة لندن وحدها.. وكأن بريطانيا كلها ليس فيها إلا مدينة واحدة هى لندن..

ووجــدت أنه عيب جدًا أن أكون معدودًا ومحســوبًا على كتاب أدب الرحلات فــى مصــر والعالم العربى، والآن أنا مقيم إقامة دائمــة فى إنجلترا، ثم لا أرى من كل إنجلترا غير لندن فقط. وكان أن بدأت جولة طويلة فى بريطانيا شــرقاً وغرباً وشمالاً وجنوبًا؛ حتى أســتطيع أن أضع بين يدىّ القارئ هذا الكتاب.. فبريطانيا ليست لندن وحدها..

وبالمناسبة: إنجلترا ليست هى بريطانيا.. (إنجلترا) مجرد قسم واحد من أربعة أقســام تتكون منها بريطانيا: إنجلترا – إســكوتلندا – ويلز – أيرلندا الشمالية.. ولا يستطيع واحد أن يقول: إنه إنجليزى من إنجلترا إلا إذا كان من إقليم (إنجلترا) بالــذات.. وبالتــالى فإنــه يقول: «أنا بريطانــى من إنجلترا» أو «أنــا بريطانى من إسكوتلندا» أو «أنا بريطانى من ويلز» أو «أنا بريطانى من أيرلندا الشمالية».. وأيضًا بالتالى فإن الجنســية التى حصلت عليها أنا بعد ســنوات من إقامتى فى بريطانيا هى الجنسية (البريطانية) وليست الجنسية (الإنجليزية)، فليس هناك الآن جنسية إنجليزية!!..

أرجو ألا أكون قد لخبطتكم زيادة!!

**حسين قدرى**

## جامعة أوكسفورد.. أقدم جامعات بريطانيا..الجامعة التى أشهر شخصياتها: ملك.. وعجلاتى.. وممثل.. و.. لورانس العرب !!

★ رئيس جمهورية و ٣ ملوك و ١٧ رئيس وزارة.. تخرجوا فى أوكسفورد..

★ أنديرا غاندى ومارجريت تاتشر.. مرتا من هنا!!

★ حين وقعت الحرب بين أوكسفورد وكمبريدج!!..

★ الجامعة التى ليس لها «حرم جامعى»!!..

★ كليات لا تقبل الطالبات.. ولا الطلبة!!..

★ أصغر طالبة فى جامعة أوكسفورد.. عمرها ١٠ سنوات!!

★ العجلاتى الذى تبرع للجامعة بـ ٣٠ مليون جنيه!!

★ أقارب الدرجة الثالثة، ومدير حسابات الملكة كليوباترة.. فى جامعة أوكسفورد!!..

★ «نصف دكتوراة» لطالب مصرى، من جامعة أوكسفورد!!..

★ قدماء المصريين، كانوا أيضاً يهاجرون!!..

★ البنت الإنجليزية: «قطة مغمضة»!!..

★ «عبد الرزاق» يدرس [العلم العبوس]!!..

★ المتحذلقون والمتحذلقات.. نسوا اللغة العربية!!..

من منا لا يعرف أوكسفورد!؟..

من منا لم يسمع عن أوكسفورد!؟..

وأنا طبعاً لا أقصد النكتة الشهيرة التى تقول إنه تقدم شاب مصرى لوظيفة فى مصر، فقال للمدير مباهياً أنه (خريج أوكسفورد).. فسأله المدير ببساطة: «الجامعة ولا الشارع!؟».. ولا النكتة الأخرى التى تقول: إن أحد تجار شارع الشواربى الشهير فى القاهرة أرسل عامله إلى مكتب شركة الطيران ليحجز له تذكرة سفر ذهاب وعودة: (القاهرة – أوكسفورد ستريت – القاهرة)!!.. وهذه المرة ليست نكتة لكننى سمعتها بنفسى أكثر من مرة ومن أناس يفترض فيهم أنهم مثقفون؛ أنهم كانوا يظنون أن جامعة أوكسفورد تقع فى أوكسفورد ستريت فى لندن!!..

تعالوا معى فى هذه الرحلة إلى أوكسفورد.. الجامعة وليست الشارع!!..

* * *

مدينة أوكسفورد، على بعد ٥٧ ميلاً، أو ٩٠ كيلومتراً، أو نحو ساعة وربع من مدينة لندن.. فى تصورى – بعد أن زرت مدن إنجلترا كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً – هى بالمقياس الإنجليزى لن نخطئ كثيراً إذا وصفناها بأنها (قرية كبيرة).. فتعداد السكان بها نحو ١٢٠ ألف نسمة فقط. ومعظم سكان أوكسفورد مرتبطون بالجامعة بصورة أو بأخرى، مباشرة أو بشكل غير مباشر، إن لم يكن بالانتماء الفعلى للجامعة: طالب أو أستاذ أو موظف؛ فعلى الأقل بالتعامل أو بالخدمات.. وبلغة الأرقام: ١١٦ أستاذاً + ٦٥٠ محاضراً + ٧٣٥ معيداً + ٩٠٠٠ طالب + ١٠٠٠ موظف إدارى فى مختلف إدارات الجامعة = ١١٥٠١ شخص، معظمهم

له أسـر وأولاد.. ذلك معناه أن واحداً من كل خمسـة من سـكان مدينة أوكسفورد يمـت بصلة قربى إلى الجامعة، وأن الأربعة الباقين فى خدمة الجامعة بصورة ما: يبيعونها لوازمها وأكلها وشربها ولبسها وكتبها وترفيهها وباقى احتياجاتها..

أوكسـفورد نفسـها مدينة جميلة رائعة، شـهيرة بمبانيهـا التاريخية العظيمة وشـوارعها ذات الطابع المميز وحدائقها الواسـعة.. ماضيها هو المفتاح لحاضرها.. فكل جزء منها يمثل قطعة من التاريخ.. وحيثما سـرت فى شوارع أوكسفورد فإنها سـتذكرك بأحداث القرون السابقة والناس الذين عاشـوا فى أوكسفورد خلال تلك القرون..

* * *

وقـد بدأت أوكسـفورد تظهر علـى خريطة إنجلترا فى القرن التاسـع فى عهد الأنجلو – ساكسون، وكان اسمها فى البداية [فورد فور أوكسين].. وقبل أن يصبح عمرها ١٠٠ سنة انقض عليها الغزاة الدانمركيون عام ١٠٠٢ وأحرقوها عن آخرها.. لكن سـرعان ما أعيد بناؤهـا من جديد.. ثم عندما اجتـاح النورمانديون إنجلترا عام ١٠٦٠ بقيادة الملك «ويليام الفاتح» – أول ملوك الأسـرة الملكية الحالية والجد الأكـبر للملكة إليزابيث الثانية – جعلوا من أوكسـفورد مركزاً لقيادتهم، بعد أن كانت أوكسـفورد قد أصبحت المركز والسوق الرئيسى لكل المنطقة الكبيرة المحيطة بها، حتى صارت عاصمة الإقليم الذى سمى أيضاً باسمها: [أوكسفورد شاير ]..

ولم يكن مسـتغرباً أن يولد بالمنطقة واحد من أشـهر وأعظم ملوك إنجلترا على امتداد تاريخها، هو الملك «ريتشـارد قلب الأسـد» الذى ولد فى منطقة [بومونت] عام ١١٥٧ وحكم انجلترا وعمره ٣٢ سـنة من عام ١١٨٩ لفترة ١٠ سنوات فقط إلى عام ١١٩٩، شـارك خلالها فى الحروب الصليبية وكانت له قصته الشـهيرة مع فارس العرب الملك «الناصر صلاح الدين الأيوبى»..

* * *

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى تحكم فيها إنجلترا من مدينة أوكسـفورد.. فمـرة أخـرى – بعـد ما يقرب من سـتة قـرون – وخلال الحـرب الأهلية التى

اندلعت فى انجلترا (١٦٤٢ – ١٦٤٩) والتى قادها عضو البرلمان الإنجليزى «أوليفر كروموبل»، الذى كان من أبناء كمبريدج – المدينة والجامعة – ضد الملك «تشارلز الأول»، واستيلاء «كروموبل» وأنصاره على العاصمة لندن، وتمركزه مع قواته فى مدينة كمبريدج ليكون قريباً من مدينة أوكسفورد التى اتخذها الملك «تشارلز الأول» عاصمة مؤقتة له واتخذ من كلية [كرايست تشيرش] مقرًا له، بينما اتخذت زوجته الملكة «هنرييتا ماريا» من كلية [ميرتون] مقراً لها هى الأخرى..

ولم يستمر ذلك لأكثر من سنوات قليلة؛ انتهت بانتصار «كروموبل» الذى قطع رأس الملك «تشارلز الأول» وأعلن انتهاء الملكية فى بريطانيا وقيام الجمهورية برئاسته عام ١٦٤٩.. إلا إن [جمهورية بريطانيا] لم تستمر إلا فى حياة «كروموبل» فقط؛ وبمجرد وفاته عام ١٦٦٠ عادت الملكية مرة أخرى بتولية الملك «تشارلز الثانى».. ونسيت مدينة أوكسفورد ومدينة كمبريدج هذه الصراعات والمعارك والحروب التى اجتاحتهما، وعادت كل منهما مدينة جامعية فقط مرة أخرى..

* * *

ولم تتأثر مدينة أوكسفورد كثيراً بالطفرة الصناعية التى أثرت فى معظم مدن إنجلترا إبتداءً من أواخر القرن الثامن عشر؛ فظلت مدينة جامعية أكثر من أى شىء آخر، على الرغم من اشتهارها ببعض الصناعات، مثل صناعة البيرة وصناعة المربى والطباعة.. حتى عام ١٩١٢ – قبل الحرب العالمية الأولى – حين بدأ صانع الدراجات الإنجليزى «ويليام موريس» يجرب حظه فى صناعة السيارات فى قرية [كاولى].. وفى خلال سنوات ليست كثيرة كانت صناعة السيارة الإنجليزية التى حملت اسم [موريس] قد أصبحت سبباً إضافياً لشهرة مدينة أوكسفورد، وبسببها حصل صانع الدراجات «ويليام موريس» على لقب «لورد نافيلد»!!..

**ملحوظة صغيرة لإخواننا العرب أصحاب الملايين وأصحاب المليارات وأصحاب الألقاب:** «ويليام موريس» صانع الدراجات ثم صانع السيارات الإنجليزى؛ تبرع على امتداد حياته بـ ٣٠ مليون جنيه – من جنيهات زمان اللى قد كده – لجامعة أوكسفورد!!..

والكلام إليك ياجارة، ولكل الجيران!!..

* * *

وحين ظهر أول طالب فى شوارع مدينة أوكسفورد كان عمر المدينة عدة قرون من الزمان.. فقد بدأت أوكسفورد تشتهر كمركز تعليمى حين هاجر إليها عام ١١٩٠ بعض أساتذة وطلاب علم (اللاهوت)، حيث كان قد بدأ إنشاء بعض (بيوت الدين) كما كانت تسمى فى ذلك الوقت.. بعد ذلك بـ ٦٠ عاماً، فى عام ١٢٥٠، كانت [جامعة أوكسفورد] قد بدأت فعلاً ورسمياً بإنشاء كلية [يونيفرسيتى]، لتكون أول وأقدم جامعة فى إنجلترا على الإطلاق.. وسرعان ما أصبحت معروفة ومشهورة كواحدة من أشهر وأهم مراكز التعليم فى أوروبا وفى العالم كله، فلم تكن أمريكا قد اكتشفت بعد..

وبعد ما يقرب من تسعة قرون أخرى كانت الجامعة فى أوكسفورد قد أصبحت تضم ٣٥ كلية، من بينها ٦ كليات «حريمى» لا تقبل إلا النساء فقط.. وعلى الرغم من أن قبول البنات فى الجامعة قد بدأ فى عام ١٨٧٨؛ إلا إنهن كن يقبلن كطالبات مستمعات فقط دون أن يحصلن فى نهاية الدراسة على شهادة أو درجة جامعية ما!!.. واستمر ذلك أكثر من ٤٠ عاماً حتى سنة ١٩٢٠؛ حين بدأت الجامعة تقبلهن كطالبات منتظمات يحصلن على نفس الدرجات العلمية التى يحصل عليها الطلاب الذكور.. وعلى الرغم من ذلك فلا زالت نسبة الطالبات فى جامعة أوكسفورد ضئيلة إلى حدٍ ما.. فمن بين سبعة آلاف طالب فى المرحلة الجامعية لا توجد سوى ١١٠٠ طالبة فقط، بنسبة ١: ٧

وبالمناسبة: فحين نقول (المرحلة الجامعية) فإن المقصود بذلك مرحلة التعليم الجامعى للحصول على درجة الليسانس أو البكالوريوس، لكن مرحلة الحصول على درجتى الماجستير أو الدكتوراة تعتبر (المرحلة العالية)..

* * *

الذى يزور أوكسفورد للمرة الأولى قد يسأل: «أين تقع الجامعة!؟» أو: «كيف أذهب إلى الجامعة!؟».. ويكون الرد على هذا السؤال هو أن جامعة أوكسفورد فى

كل مكان وفى أى مكان فى مدينة أوكسفورد، لأنها – مثل شقيقتها الصغرى جامعة كمبريـدج – لا تأخذ بنظام «الحرم الجامعـى» أو «منطقة الجامعة» الذى تأخذ به أغلب جامعات العالم وباقى جامعات بريطانيا نفسها.. لأن مبانى الجامعة منتشرة وموجـودة فى كل مكان فى المدينة، تتخلـل المدينة والمدينة تتخللها.. بمعنى أننا إذا أردنا أن نبنى سوراً حول كليات ومبانى الجامعة فسيكون ذلك معناه أننا سوف نبنى هذا السور حول مدينة أوكسفورد نفسها!!..

وتضم جامعة أوكسـفورد ٣٥ كلية، بنفس نظـام الكليات المعمول به فى جامعة كمبريدج، وإن كانت أوكسـفورد هى الأصل طبعـاً لأنها الجامعة الأقدم، بل إنها الجامعة الأم؛ لأن جامعة كمبريدج انبثقت من جامعة أوكسفورد..

وسطر سريع لتوضيح وشرح هذا النظام؛ هو أننا عندما نستعمل كلمة [كلية] فى أوكسفورد أو كمبريدج؛ فإن المقصود بها يكون المبنى الذى يعيش وينام فيه الطلاب وليس المكان الذى يدرسون فيه.. بمعنى أن الطلاب الذين يعيشون فى كلية واحدة ليسـوا بالضرورة يدرسـون فرعاً واحداً من فروع العلم.. فطلبـة الـ [كلية] الواحدة هنا يدرسـون الطب والهندسة والتاريخ والفلسـفة والكيمياء وعلم الاجتماع.. إلخ.. يعنى أن المكان أو المبنى الذى نسـميه فى بلادنا وفى مختلف بلاد العالم (المدينة الجامعية) يسـمى فى أوكسـفورد وفى كمبريج [الكلية].. والمـكان أو المبنى الذى نسـميه فى بلادنا وفى كل بلاد العالم [الكلية] يسمى فى أوكسفورد وفى كمبريدج [معهد] أو [مدرسة]!!..

* * *

وقـد كان لى لقاء مع «جـون بامـبرا John Bamborough» نائب رئيس جامعة أوكسـفورد السـابق ورئيس كلية [لينـاكر Linacre] الآن؛ سـبب لى بعض الارتباك والحـرج فى البدايـة.. فحين وضعت جهاز التسـجيل بيننا وبـدأت أوجه إليه أسـئلتى مخاطباً إياه بـ «بروفسـور بامبرا»؛ اسـتوقفنى بهدوء ليوضح لى أنه ليس «بروفسـور»!!.. فأدهشـنى جداً أن يكون نائب رئيس جامعة أوكسفورد أو المدير

الفعلى لأعرق جامعة فى بريطانيا وأشهر جامعة فى العالم لا يحمل لقب «بروفسور» أو «أستاذ».. فتواضعت قليلاً وخاطبته بـ «دكتور بامبرا».. لكنه استوقفنى مرة أخرى، بهدوء أيضاً، ليوضح لى أنه كذلك ليس دكتوراً ولا يحمل درجة الدكتوراة (!!) وأننى أستطيع أن أخاطبه بلقب «مستر» فقط!!.. فتذكرت على الفور الجملة الشهيرة فى بلادنا: (بلد شهادات)، وغرامنا وولعنا المرضى بالألقاب والنعوت الضخمة الفخمة، وفهمت لحظتها فقط معنى أن يكون العالم عالماً فلا يحتاج إلى لقب يزين به اسمه أو بطاقته.. وأذكر أننى كتبت مرة معترضاً على «منح» الموسيقار محمد عبد الوهاب درجة الدكتوراة الفخرية، وأن فى ذلك تقليلا من قيمته لأنها لن تضيف إليه شيئاً، لأنه أعظم موسيقار أنجبه الشرق ولا يهم إن كان حاصلاً حتى على الشهادة الابتدائية أو لا، لأنه «عبد الوهاب» وذلك يكفى، ولأن أى شاب ممكن أن يحصل على درجة الدكتوراة وعمره ٢٥ أو ٢٦ سنة ولا تستفيد البشرية قليلاً أوكثيراً منه ولا من هذا اللقب العلمى الذى يحمله!!..

قال لى مستر «جون بامبرا»:

يرأس جامعة أوكسفورد (رئيس شرف Chancellor) يظل فى منصبه مدى الحياة أو حتى يستقيل هو.. لكن الذى يدير الجامعة فعلاً هو نائب رئيس الجامعة الذى يشغل هذا المنصب لمدة ٤ سنوات فقط، ويتم اختياره من بين عمداء الكليات.. بينما السلطة الإدارية فى أيدى مجلس تستطيع أن تشبهه بمجلس الوزراء، يتكون من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة والكليات، بمساعدة ما يمكن أن يسمى بالبرلمان، الذى هو مشكل من بين أعضاء الجامعة الحاصلين على درجة الماجستير..

وجامعة أوكسفورد تضم ٣٥ كلية، إلى جانب عدد من المعاهد الخاصة التى ترتبط بالجامعة ويحصل طلابها على نفس الدرجات العلمية.. وتقوم الدراسة فى أوكسفورد على نظام خاص، حيث يشرف كل أستاذ على عدد قليل جداً من الطلاب، ويلتقى بكل واحد من طلبته مرة كل أسبوع ليقرأ ما أنجزه من بحثه

ويناقشه فيه ويقوم بتوجيهه.. وإلى جانب ذلك يقوم الأساتذة بإلقاء محاضرات «عامة» فى فرع العلم الذى يقوم بتدريسه.. والمقصود بـ «عامة» هنا هو أن من حق أى طالب فى الجامعة، مهما كان تخصصه أو نوع دراسته، أن يحضر محاضرات أى أستاذ حتى لو كانت بعيدة تماماً عن تخصصه – تخصص الطالب طبعاً وليس تخصص الأستاذ!! – لأن العلم هنا ليس خانات وتقسيمات وجداول حصص؛ وإنما هو مباح ومتاح للجميع بشكل مفتوح جداً.. لذا فإنه ليس بمستغرب على الإطلاق أن يجىء طالب إلى جامعة أوكسفورد لكى يدرس فرعاً معيناً من فروع العلم؛ ثم يتحول عنه إلى فرع آخر مختلف تماماً وبعيد تماماً عمَّا تهوى إليه نفسه؛ بعد أن يستمع إلى محاضرة أو عدة محاضرات لأستاذ هذا العلم!!..

[تعليق من الكاتب: صباح الخير يا مكاتب التنسيق فى جامعاتنا المصرية.. انتهى التعليق!!]..

وبالمناسبة: فحتى عام ١٨٧٠ لم يكن مسموحاً لأساتذة ومحاضرى جامعة أوكسفورد بالزواج – ولعل ذلك كان من باب الحرص عليهم!! – ثم فى ذلك العام سمح لهم بالزواج، فتزوجوا وكونوا أسراً وعائلات.. وعسى ألا يكونوا نادمين على ذلك الآن!!..

* * *

جامعة عمرها نحو ثمانية قرون؛ لابد أن يكون قد مر فى تاريخها الطويل أحداث وحكايات وأساطير ونوادر.. تعالوا قبل أن نلتقى ببعض طلبة وطالبات أوكسفورد المصريين والعرب؛ نلتقى ببعض حكايات وطرائف جامعة أوكسفورد على امتداد نحو ٨٠٠ سنة:

● فى جامعة أوكسفورد ٦ كليات لا تقبل إلا البنات فقط، هى، حسب تواريخ بداياتها: كلية [ليدى مارجريت هول كولدج] عام ١٨٧٨ – كلية [سومرفيل كولدج] عام ١٨٧٩ – كلية [سانت هيوز كولدج] عام ١٨٨٦ – كلية [سانت هيلداز كولدج] عام ١٨٩٣ – كلية [فورمالى أوكسفورد هوم ستيودينت] عام ١٨٩٧ – كلية [سانت آنز كولدج] عام ١٩٥٢..

● كلية [أوول سولز كولدج] – ومعنى اسمها [كلية كل الأرواح] – أنشأها الملك «هنرى السادس» عام ١٤٣٨ وتعتبر أكبر الكليات على الإطلاق.. والغريب فى هذه الكلية أنها لا تقبل طلبة المرحلة الجامعية ولا حتى طلبة الدراسات العليا؛ إنما تقبل فقط أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات، يلتحقون بها كباحثين أو للحصول على درجة الشرف الجامعية.. وقد تخرج منها عدد كبير من أصحاب الأسماء الشهيرة فى عالم السياسة والاقتصاد والعلوم الاجتماعية..

● كلية [يوليول كولدج] التى أنشأها «جون دى يوليول» عام ١٢٥٠، والتى تعتبر واحدة من أكبر ٤ كليات فى جامعة أوكسفورد.. بينما تصر الكلية نفسها على أنها فعلاً الكلية الأقدم.. وقد أعيد بناء معظم مبانيها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.. بينما لازالت تحتفظ حتى الآن ببعض الأبواب الخشبية وعليها آثار الحريق؛ حين أعدم حرقاً حتى الموت فى عام ١٥٥٠ الأساقفة البروتستانت الثلاث: «كرانمر» و «لاتيمار» و «ريدلى» بسبب معتقداتهم الدينية!!..

● كلية [كرايست تشيرش كولدج] أو [كلية كنيسة المسيح] التى كان اسمها عند إنشائها عام ١٥٢٥ [كلية كاردينال كولدج]، نسبة إلى منشئها القس «توماس» كاردينال منطقة (ولسى).. وهى بغير جدال أعظم كليات جامعة أوكسفورد، لذا فهى تشتهر باسم آخر من كلمة واحدة هى [ذا هاوس THE HOUSE] أو [البيت] لتعريفها وتمييزها..

● كلية [ميرتون كولدج] التى أنشأها «وولتر دى ميرتون» عام١٢٦٢.. وهى واحدة من كليات جامعة أوكسفورد الأربعة التى تتنافس على لقب (أقدم كلية).. لكن مبانيها بلا جدال هى أقدم مبانى الكليات جميعها حتى الآن.. لأن معظم الكليات الأخرى جددت مبانيها أكثر من مرة خلال القرون الماضية.. وتعتبر كنيستها أكبر كنائس أوكسفورد، لكنها للأسف لم يكتمل بناؤها أبداً منذ القرن الخامس عشر حتى الآن!!.. ويبدو أن الشركة التى تتولى بناءها شركة قطاع عام مصرية!!..

● كلية [سانت كاترين كولدج]، هى أول كلية تبنى فى القرن العشرين؛ فإن عمرها الآن ٤٥ عاماً فقط؛ لأنها بنيت عام ١٩٦٢.. وهى أول كلية تبنى على الطراز

الحديث بدلاً من الطراز القديم المتكرر المتشابه الذى يغلب على معظم الكليات القديمة حتى منتصف القرن العشرين.. وقد وضع تصميمها المعمارى الدانمركى «آرنى جاكوبسين»، الذى بلغ من اهتمامه بالتفاصيل الصغيرة أنه وضع تصميماً خاصاً لمفاتيح وأدوات الكهرباء من حيث الشكل، بل ولأدوات المائدة أيضاً؛ حتى يصبح لهذه الكلية طابعها المتميز المتفرد عن باقى الكليات.. كلية [سانت كاترين كولدج] يطلق عليها تدليلاً اسم [كاتز]!!..

● كلية [ويدام كولدج] التى أنشأها عام ١٦١٠ الزوجان «نيكولاس ودوروثى ويدام».. وهى الكلية الوحيدة الباقية على حالها منذ إنشائها دون أن تمتد إليها يد الزيادة والتغيير والتبديل.. بنفس مبانيها الأولى التى بنيت منذ حوالى أربعة قرون!!..

* * *

والآن إلى عرضٍ سريع لتعاقب إنشاء كليات جامعة أوكسفورد:

● فى القرن الثالث عشر عند بداية إنشاء جامعة أوكسفورد؛ أنشئت ٤ كليات: [يونيفيرسيتى كولدج] عام ١٢٤٩ – [باليول كولدج] عام ١٢٥٠ – [ميرتون كولدج] عام ١٢٦٢ – [ترينتى كولدج] عام ١٢٨٦..

● فى القرن الرابع عشر تم إنشاء ٤ كليات أخرى: [إكسيتر كولدج] عام ١٣١٤ – [أوريل كولدج] عام ١٣٢٦ – [كوينز كولدج] عام ١٣٤٠ – [نيو كولدج] عام ١٣٧٩..

● فى القرن الخامس عشر تم إنشاء ٤ كليات كذلك: [لينكولن كولدج] عام ١٤٢٧ – [سانت جونز كولدج] عام ١٤٣٧ – [أوول سولز كولدج] عام ١٤٣٨ – [ماجدالين كولدج] عام ١٤٥٨..

● فى القرن السادس عشر تم إنشاء ٤ كليات أيضاً: [بريزنوز كولدج] عام ١٥٠٩ – [كوربوس كريستى كولدج] عام ١٥١٧ – [كرايست تشيرش كولدج] عام ١٥٢٥ – [جيساس كولدج] عام ١٥٧١..

● فى القرن السابع عشر انخفض معدل إنشاء الكليات إلى كليتين فقط بدلاً من ٤ فى كل قرن كالمعتاد: [وودام كولدج] عام ١٦١٠ – [بيمبروك كولدج] عام ١٦٢٤..

● ومرت ٩٠ سنة كاملة حتى أنشئت كلية جديدة فى جامعة أوكسفورد خلال القرن الثامن عشر، وكانت كلية [ووشستر كولدج] عام ١٧١٤ – ثم كلية [هيرتفورد كولدج] عام ١٧٤٠..

● ثم تطول المدة أكثر لتصبح ١٢٣ سنة، ولتصبح أطول مدة تمر بين إنشاء كليتين، حين ظهرت الكلية الوحيدة التى تم إنشاؤها فى القرن التاسع عشر: كلية [كيبل كولدج] فى عام ١٨٦٣..

● وبرغم أن القرن العشرين قد شهد إضافة ٣ كليات جديدة إلى جامعة أوكسفورد؛ إلا إن ٨٢ سنة أيضاً كانت قد مرت قبل أن تنضم كلية [تافيلد كولدج] فى عام ١٩٤٥، ثم كلية [سانت إدموند هول كولدج] فى عام ١٩٥٧، و [سانت كاترين كولدج] فى عام ١٩٦٢..

● وهكذا تكون أقصر مدة مرت بين إنشاء كليتين متعاقبتين هى سنة واحدة: [يونيفيرسيتى كولدج] عام ١٢٤٩ و [باليول كولدج] عام ١٢٥٠.. وبعدهما [سانت جونز كولدج] فى عام ١٤٣٧ و [أوول سولز كولدج] عام ١٤٣٨..

* * *

● ١٧ رئيس وزارة إنجليزى تخرجوا فى جامعة أوكسفورد؛ أبرزهم «ويليام بت»، «جلادستون»، «كليمنت أتلى»، «أنتونى إيدن»، «هارولد ماكميلان» – الذى تولى رئاسة الجامعة نفسها عام ١٩٦٠ بعد خروجه من الوزارة –، «إدوارد هيث»، «هارولد ويلسون»، و «مارجريت تاتشر»، المرأة الوحيدة فى تاريخ بريطانيا التى رأست الوزارة، حتى الآن على الأقل.. وجميعهم بدأوا حياتهم السياسية فى أيام دراستهم فى جامعة أوكسفورد..

● ولم تكن جامعة أوكسفورد لتخرج السياسيين أو رجال السياسة فقط؛ فقد تخرج فيها أيضاً العديد من الكتاب والشعراء والفنانون والعلماء: «أوسكار وايلد» الكاتب

الشـهير، «وولتر رالى» المستكشف الشهير أيضاً، «أرنولد توينبى» المؤرخ والكاتب، «توماس إليوت» الشـاعر، وشاعر إنجلترا العظيم «شيللى»، الذى كان قد فصل من الجامعة عام ١٨١١ لأنه نشر كتاباً بعنوان (حتمية الإلحاد)!!..

● وغير هؤلاء وأولئك: «ويليام موريس» صانع الدراجات، ثم الموتوسـيكلات، ثم السـيارات، الذى غير وجه الحياة فى مدينة أوكسـفورد بسياراته التى صنعها وبـاع منهـا ٢٠٤ سـيارات فقط عام ١٩١٨، ثـم قفز هذا الرقم خلال ٧ سـنوات ليصبح ٥٥٥٨٢ سيارة فى عام ١٩٢٥.. «ويليام موريس» الذى كان أيضاً من أبنـاء نفس المقاطعة [أوكسـفورد شـاير]؛ تبرع لجامعة أوكسـفورد – التى تخرج فيها – بما يقـرب مـن ٣٠ مليوناً من الجنيهات فى حياتـه.. [ثلاثين مليوناً بجنيهات تلك الأيام وليست من جنيهات أيامنا هذه التى لا تساوى شيئاً!!.].

* * *

● من بين خـريجى جامعـة أوكسـفورد أيضاً ٣ ملوك: الملك «هنرى الخامس» (١٤١٣ – ١٤٢٢)، الملـك «إدوارد السـابع» (١٩٠١ – ١٩١٠)، والملك «أولاف» ملـك النرويـج.. ورئيس جمهورية هـو «إدوارد أكوفو آدو» رئيـس جمهورية غانا عـام ١٩٧٠.. وولى عهد هو أمير ويلز عام ١٩١٢.. وعدد من رؤسـاء الوزارات غير الإنجليز؛ أشـهرهم «أنديرا غاندى» رئيسـة وزراء الهند، و «ل . ب . بيرسـون» رئيـس وزراء كنـدا عام ١٩٦٣.. وأيضاً عدد من وزراء الخارجية المشـاهير؛ أمثال «أليـك دوجلاس هيـوم» وزير خارجية إنجلـترا، و «دين راسـك» وزير خارجية أمريكا..

● ذلـك غير مئات من الوزراء وأعضاء البرلمان وحكـام المسـتعمرات والسـفراء و: «ت. إ. لورانـس» الشـهير بـ «لورانـس العرب»!!.. دعك مـن نجوم الأدب والسـينما والفنانين والفنانات وأهل الإذاعة والتليفزيون والموسيقيين؛ لعل أشهرهم على المستوى الجماهيرى الممثل الإنجليزى الرائع «ريتشارد بيرتون» – أحد الأزواج التسعة للممثلة النشيطة «إليزابيث تايلور» – الذى توفى منذ عدة سنوات..

● وجامعة أوكسفورد تعتبر من أصحاب الأسماء الشهيرة اللامعة من خريجيها الأبطال الرياضيين الذين مثلوا بريطانيا فى الألعاب الأوليمبية، مثل «ديفيد هيمرى» بطل الـ ٤٠٠ متر والحاصل على الميدالية الذهبية فى أوليمبياد ١٩٦٨!!..

* * *

كل كلية من كليات جامعة أوكسفورد لها مكتبتها الخاصة.. لكن هناك مكتبة كبيرة للجامعة كلها هى مكتبة [بودليان] التى تعتبر واحدة من أعظم وأكبر المكتبات فى العالم.. وحين ينضم طالب جامعة أوكسفورد إلى عضوية هذه المكتبة فإنه يؤدى قسماً معيناً وهو يرتدى الروب الجامعى؛ مؤداه ألا يأخذ كتباً من المكتبة إلى خارجها – لأن الاستعارة الخارجية ممنوعة – وألا يدخن داخل المكتبة، وبنود أخرى متعددة فى هذا القسم.. وكان هذا القسم حتى عهد قريب يؤدى باللغة اللاتينية؛ لكنه الآن يؤدى باللغة الإنجليزية من باب «تيسيراً على المواطنين»!!..

* * *

آخر حواديت جامعة أوكسفورد حدوتة غريبة جداً وظريفة جداً؛ حدثت منذ عدة سنوات: «روث هارى» طفلة عمرها ١٠ سنوات؛ لم تلتحق بأية مدرسة قط فى حياتها؛ وإنما تعلمت فى البيت على يد أبيها المتخصص فى الكومبيوتر.. وتقدمت «روث» للالتحاق بجامعة أوكسفورد!!.. وكان لا بد وأن تمر بالامتحان الذى تعقده الجامعة للمتقدمين إليها، وحدث.. وكان ترتيب «روث» الأولى على ٥٣١ طالباً وطالبة من الحاصلين على شهادة البكالوريا الإنجليزية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧ و ١٨ سنة!!.. فأصبحت الطفلة «روث» طالبة منتظمة فى جامعة أوكسفورد بعد أن اجتازت كل الاختبارات فى الطبيعة والأحياء والرياضيات والعلوم والكومبيوتر!!.. وبعد ٣ سنوات فى الجامعة تخرجت «روث» وعينت معيدة فى جامعة أوكسفورد وعمرها ١٣ سنة فقط!!..

* * *

تعالوا الآن نلتقى ببعض الدارسين المصريين والعرب فى جامعة أوكسفورد.. من مصر ومن لبنان ومن العراق ومن اليمن ومن الإمارات.. وإن كان عدد الطلبة العرب

عموماً فى جامعة أوكسفورد ليس كبيراً بالقدر الذى كنت أتوقعه..

«أبو اليسر عبد العظيم فرح»، المدرس المساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس بالقاهرة؛ جاء إلى جامعة أوكسفورد لكى يحصل منها على [نصف دكتوراة] فقط لا غير، أما النصف الآخر فسوف يحصل عليه من القاهرة!!..

والأمر ليس فزورة ولا حاجة؛ فإن «أبو اليسر» عضو بعثة على نظام (الإشراف المشترك).. وهو نظام جديد مستحدث فى نظام البعثات المصرى، حتى يمكن الحد قليلاً من نفقات نظام البعثات العادى.. لأن نظام (الإشراف المشترك) يعطى الحق للدارس الذى يدرس للحصول على درجة الدكتوراة داخل مصر نفسها فى أن يقضى سنة من مدة بعثته، ممكن أن تمتد إلى سنتين على الأكثر، فى جامعة أجنبية، ثم يعود ليحصل على الدكتوراة من مصر.. والغرض من ذلك هو أن يستفيد الدارس من الوسائل والإمكانيات العلمية المتاحة فى جامعات أوروبا، بالإضافة إلى أنه يتعامل ويتعايش مع المنهج العلمى الأوروبى..

«أبو اليسر عبد العظيم فرح» حصل على درجة الماجستير من مصر، وكان موضوع رسالته فيها موضوعاً غريباً جداً، هو [دراسة نظم المحاسبة والحسابات والإدارة المالية عند قدماء المصريين]، وبالذات فى العصر البطلمى الذى كانت الملكة الجميلة كليوباترة آخر ملكاته!!.. وكان موضوع بحث «أبو اليسر» موظف مصرى معين لقبه الوظيفى الرسمى [إيكونوموس]، الذى كان يشغل وظيفة مدير الشئون المالية والإدارية فى كل مديرية من مديريات مصر فى ذلك العهد.. ومن اسمه [إيكونوموس] تجىء كلمة [إيكونومى Economy] باللغة الإنجليزية الآن بمعنى (اقتصاد).. وكلمة [إيكيا] فى اللغة اليونانية القديمة معناها (منزل) أو (بيت).. و [إيكونومينو] بمعنى (مدير شئون البيت).. وعلى اعتبار أن مصر كلها فى تلك العهود كانت ملكاً للملك أو الفرعون؛ إذن فهى بيته أو منزله؛ وبالتالى فإن [إيكونوموس] هو [مدير شئون بيت الملك]، الذى هو مصر كلها!!..

كانت مصر فى تلك العهود مقسمة إلى مديريات، التى هى المحافظات الآن.. وكان بكل مديرية إدارتان: إدارة يرأسها موظف لقب وظيفته [إستراتيجوس]

– التـى هى تحريف لكلمة (إستراتيجية) الآن – وكان صديقنا [إيكونوموس] هو مدير الإدارة الأخرى التى يشـرف منها على كل صغـيرة وكبيرة متعلقة بالنواحى المالية، سـواء فى مجـال الصناعة أو التجـارة أو الضرائـب أو الزراعة والأراضى الزراعيـة والمحصولات والرى والصرف والفلاحين وغير ذلـك.. وكان هناك وزير للمالية يقيم فى الإسكندرية التى كانت عاصمة مصر فى العهد البطلمى.. ولم تكن الوزارة فى مصر فى ذلك العهد تضم عشرات الوزراء كما هو الحال الآن؛ لكن كان هناك وزيران فقط: وزير المالية، ووزير القضاء، أو وزير العدل كما نسميه الآن..

أسأل الدارس المصرى «أبو اليسر عبد العظيم فرح» عن مصادر بحثه ومن أين له كل هذه المعلومات عن نظم الحسابات والإدارة المالية فى عصر الملكة كليوباترة!؟..

– مرجعى هى أوراق البردى التى كانت مستخدمة فى ذلك العهد بدلاً من الورق الذى نسـتخدمه الآن.. وكان عند المصريين القدماء فى تلك العهود (مسـك دفاتر) و(منه وله) و (صادر ووارد) و (منصرفات ومتأخرات)، وفى النهاية (حساب العجز والزيادة).. وكان عندهم نظام البنوك والمصارف المالية الذى أدخله الإغريق إلى مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد.. وكان عندهم أيضاً وظيفة (محاسـب) بنفس الاسـم الذى نعرفه به الآن، لكن باللغة اليونانية القديمة طبعاً..

ويبدو أن صديقنا الباحث المصرى «أبو اليسـر» مغـرم بالموضوعات الصعبة غير المطروقـة؛ فإن موضوع رسـالة الدكتوراة التى يعد لها الآن فى جامعة أوكسـفورد هـو موضوع غـريب آخر: (الهجرة غير الشـرعية عنـد قدماء المصريين فى العصر الرومانـى)، أى العصر الذى أنهى العصر البطلمـى وحل محله فى مصر.. العصر الذى كان منه الإمبراطور الأشهر فى تاريخ العالم حتى الآن؛ الإمبراطور الذى حرق رومـا: نيرون!!.. والمقصود بـ (الهجرة غير الشـرعية) هى الهجرة من الريف إلى المدينة.. لأن كل شـخص فى ذلك العهد كان مسـجلاً على قريـةٍ ما أو مدينةٍ ما، والمفـروض أن يقضـى حياته كلها فى هذه القرية أو تلـك المدينة ويرتبط بها طول العمر.. فإذا تركها وهاجر منها إلى المدينة تكون قريته مسـئولة عن سـداد الضريبة التى كان يدفعها هو للدولة، لذا تكون هجرته غير شرعية..

● «سامية نعمة حرب» شابة لبنانية جميلة تدرس للحصول على درجة الدكتوراة فى الكيمياء من جامعة أوكسفورد.. وقد كان ممكناً أن تدرس الأدب الفرنسى أو الأدب الإنجليزى؛ لكنها اختارت الكيمياء لكى تضمن وظيفة بعد تخرجها وحصولها على الدكتوراة والعودة إلى وطنها لبنان!!..

«سامية» هى أكبر أخواتها وأول بنت فى الأسرة تخرج للدراسة خارج لبنان.. أسرتها الصغيرة: أبوها وأمها وأخواتها؛ لم تعترض على سفرها للدراسة فى الخارج؛ لكن الذين اعترضوا كانوا أقارب الدرجة الثالثة والرابعة: الخالات والعمات، اللاتى رأين أن كفاية أوى أن «سامية» قد حصلت على الليسانس وينبغى أن تقعد فى البيت تنتظر ابن الحلال حتى يجىء فتتزوج وتعيش فى التبات والنبات وتخلف دستة صبيان ودستتين بنات.. لكن الحمد لله أن والديها لم يستمعا إلى ذلك الرأى ولولا ذلك لما كانت «سامية» فى أوكسفورد الآن!!..

من رأى «سامية نعمة حرب» أن البنت العربية المغتربة تستطيع أن تتواءم بسرعة مع نمط الحياة الأوروبية، لأن الحياة الأوروبية - ببساطة - لا تفرض نظاماً معيناً على أى إنسان، لكنها تترك كل إنسان يعيش حياته على راحته وبالنظام أو النمط الذى يقرره هو.. ومادام لا يزعج الآخرين فلا أحد يزعجه أو يتدخل فى شئونه.. لذا فإن البنت العربية ليس هناك ما يرغمها على أى شىء على الإطلاق: هى وحدها صاحبة القرار فى أن تظل محافظة على تقاليدها، وهى وحدها صاحبة القرار فى أن ينفلت عيارها وتتفرنج أكثر من الأوروبيات أنفسهن لو أرادت.. يعنى باختصار أن نمط الحياة الأوروبية برىء من مسئولية انحراف البنت العربية لو انحرفت، لأنها هى التى اختارت شكل حياتها ولم يفرضه عليها أحد!!..

«سامية» جميلة لكنها تتكلم كلاماً عاقلاً جداً.. سألتها:

- والبنت الأوروبية فى تقديرك!؟..

- أكثر من ٨٥ ٪ من الدارسين فى جامعة أوكسفورد شبان، وأقل من ١٥ ٪ فقط بنات.. القسم الذى أدرس به أنا، الكيمياء، فيه ١٠٠ شاب و٣ بنات فقط يدرسون

لدرجة الدكتوراة.. يعنى أن كل بنت فى مقابلها ٣٢ شـاباً.. لكن البنت الأوروبية بشكل عام تستطيع أن تقول عنها: إنها بنت محافظة جداً بالقياس والمقارنة ببنات الدول الإسـكندنافية وألمانيا وفرنسـا.. فالبنت الإنجليزيـة التى تجىء إلى جامعة أوكسـفورد للدراسـة غالباً ما تكون من بنات العائلات الإنجليزية الأرسـتقراطية ومـن بيئـة محافظة جداً؛ لذا تجدهـا خجولة و (قطة مغمضة) وليسـت منفتحة كما نتصورها، بل هى أقرب إلى تقاليدنا ومحافظتنا نحن البنات العربيات..

* * *

● «عبـد الرازق فـارس الفارس» مبعوث دولـة الإمارات فى جامعة أوكسـفورد؛ يـدرس للحصول على درجة الدكتوراة فى: [العلـم العبوس]!!.. وهو تعبير ليس من عند «عبد الرازق» شـخصياً لكن (الاقتصاد) يسـمى تاريخياً بـ [العلم العبوس] لأنه يبحث فى قضايا تثير الهموم والقلق ومشـاكل الموارد والسكان وتوزيع الثروة، ونظرياته معقدة وصعبة إلى حدٍ ما وليسـت سهلة الفهم بالنسبة للشخص العادى، لذا استحق تسميته بـ [العلم العبوس]!!..

«عبد الرازق» حصل على البكالوريوس من جامعة الكويت عام ١٩٧٦ لأنه لم يكن فـى دولـة الإمارات جامعة فى ذلك الوقت، ثم حصل على الماجسـتير من جامعة القاهرة.. بعدها جاء إلى جامعة أوكسفورد للحصول على درجة الدكتوراة.. كان قد تقدم إلى ١٥ جامعة إنجليزية شـهيرة لم تكن جامعة أوكسـفورد من بينها، وقبلته فعلاً واحدة من هذه الجامعات.. لكن قبل بدء الدراسـة بأسابيع قليلة أقنعه بعض أصدقائه بأن الدراسـة فى جـامعة أوكسـفورد ستكون أفيد له، فتقدم إليها، وبعد مقابلة سريعة قبل فيها والتحق بها..

يقول «عبد الرازق فارس الفارس»:

– هنـا يأخذون العلم بصرامة شـديدة.. علم يعنى علم.. وذلك يحفظ لجامعة أوكسفورد هيبتها وتقاليدها وسمعتها وصيتها كأقدم وأعرق جامعة بريطانية يقارب عمرهـا الآن ثمانية قرون.. والجامعة؛ أى جامعة؛ ليسـت جدراناً ومبانى؛ وإنما هى تقاليد وأسـاتذة؛ فإن الأساتذة فى جامعة أوكسفورد ليسوا كما نتصور إنجليزًا

فقط؛ إنما هم خيرة الأساتذة من كل أنحاء العالم، فيهم اليابانى والمصرى والعراقى والهندى ووو.. إلخ..

سألت «عبد الرازق الفارس»:

– إذا كانت جامعات بريطانيا الـ ٣٥ حاشدة بفطاحل أساتذة الاقتصاد فى العالم كله كما تقول؛ فلماذا إذن اقتصاد بريطانيا منهار وراكع على ركبتيه!؟..

قال ببساطة وإيجاز وبطريقة (ما قل ودل):

– لأن أمور اقتصاد الدولة فى أيدى رجال السياسة وليس فى أيدى رجال الاقتصاد!!..

* * *

● «إلياس فؤاد راجى» طبيب عراقى ترك عيادته فى بغداد وجاء للحصول على درجة الدكتوراة فى أمراض الأعصاب من جامعة أوكسفورد، وبحثه للدكتوراة فى موضوع: [مفعول دواء جديد معين حين يعالج به مرض معين بالذات].. بعد سنتين ونصف فى اوكسفورد هو موشك الآن على الانتهاء من بحثه خلال ستة شهور أخرى يعود بعدها إلى الوطن فى العراق.. فإن «إلياس» لا يؤيد إصرار بعض الشبان العرب الذين يحصلون على درجاتهم العلمية من إنجلترا أو من أى مكان آخر فى أوروبا؛ على البقاء هنا بعد حصولهم على الدكتوراة، لأن بلادهم محتاجة إلى جهودهم وخبراتهم أكثر مما تحتاج إليها إنجلترا أو أوروبا أو أمريكا..

* * *

● «مها سالم عزام» جاءت من مصر إلى انجلترا مع أسرتها وعمرها ٤ سنوات – عمر «مها» طبعاً الذى كان ٤ سنوات وليس عمر أسرتها – عمر «مها» الآن ٢٣ سنة، إذن فهى فى إنجلترا منذ ١٩ سنة.. لكن أسرتها ترسلها إلى مصر بين حين وآخر لكى تعايش الحياة فى مصر لفترة ولكى تشعر دائماً أن مصر هى وطنها وبلدها الأصلى، وأن تظل الصلة متصلة ومستمرة ودائمة بينها وبين الأسرة الكبيرة فى مصر.. «مها» تتكلم العربية بطلاقة جداً على رغم السنوات الـ ١٩ التى قضتها فى إنجلترا،

وعلى رغم أننى قابلت شـباناً وشـابات عربا قضوا فى إنجلترا ٣ أو ٤ سنوات فقط فانعوجت ألسـنتهم وادعوا أنهم قد نسـوا لغتهم العربيـة ولم يعودوا يتكلمون بها بطلاقـة زى زمان، حتى إن بعـض الكلمات الإنجليزية لم يعودوا يتذكرون معناها باللغة العربية (!!).. سـألت مرة واحداً من هؤلاء المتحذلقين: «زى إيه الكلمات الإنجليزية التى نسـيت معناها باللغة العربية!؟» فقال لى بصفاقة شـديدة: «زى كلمة (كوكاكولا) مثلاً؛ مابقيتشى عارف معناها بالعربى إيه»!!..

«مها» تتكلم العربية فى البيت باسـتمرار، لأنه ليس هناك مبرر أبداً لأن تتكلم بالإنجليزيـة فى بيت كل من فيه مصريون، حتى لوكان هذا البيت فى إنجلترا.. «عبد الرحمن باشا عزام» أول أمين عام لجامعة الدول العربية عند بداية إنشائها فى منتصف الأربعينيات، هو أخو جد «مها» وعم أبيها، ووالدها هو «سالم عزام» أمين عام المجلس الإسـلامى الأوروبى فى لنـدن.. وعلى رغم أنها تخرجت فى جامعة لندن حيث درست علوم سياسية وتاريخ؛ إلا أن طموحها ليس سياسياً مثل جدها وشقيق جدها؛ إنما طموحها أكاديمى، وهو أن تقوم – بعد حصولها على الدكتوراة – بالتدريس فى إحدى الجامعات المصرية أو العربية.. «مها» عمرها الآن ٢٣ سـنة فقط وتدرس منذ سنتين للحصول على درجة الدكتوراة؛ فى حين أن مثيلاتها فى العمر، صبيان وبنات؛ لازالوا لم يحصلوا بعد على الليسانس أو البكالوريوس..

سطر أخير بالنسبة لـ «مها» التى قضت ١٩ سنة من عمرها فى إنجلترا: موضوع رسالتها للدكتوراة هو: [دور الإسلام فى السياسة المصرية ]..

* * *

أحييكم من أوكسفورد، المدينة والجامعة..

## من أشهر وأقدم جامعات العالم.. جائزة أشهر خريجى جامعة كمبريدج: قطع رقبته!!..

★ ثكنة جيش.. تصبح أشهر جامعة فى العالم!!..

★ خشبة حبشى، فى كليات جامعة كمبريدج!!..

★ طلبة كمبريدج: ينامون فى الكلية، ويدرسون فى مكان آخر!!..

★ ١٤٠٠ جنيه . مصروف جيب، الطالب الإنجليزى!!..

★ متى تعتبر الأسرة الإنجليزية (فقيرة دقة )!؟..

★ أشهر رجال جامعة كمبريدج.. لم يكمل تعليمه فى الجامعة!!..

★ الملك يطرد الجامعة ليسكن مكانها!!..

★ الإفطار ممنوع فى كلية سانت كاترين!!..

★ كلية الطلبة الفقراء، وكلية الطالبات الخائبات!!

★ زواج الطلاب ممنوع فى جامعة كمبريدج!!..

★ قطع الملك رأس رئيس الجامعة، وردت عليه الجامعة بالمثل!!..

يبدو أن ذلك هو جزء من تكويننا كعرب: الشيء الصعب البعيد عنا وعن تناولنا نسعى إليه ونبذل فى سبيله الجهد والوقت والمال، أما الشيء السهل الذى أمام أعيننا ولا يتطلب الوصول إليه أى جهد أو مشقة أو تعب؛ فإننا نهمله ونتركه ونركنه ولا نطمح إليه، أو على الأقل نؤجله ونظل نؤجله حتى ننساه أو نكاد..

وذلك هو ما حدث معى بالنسبة لكمبريدج.. فمنذ أن استقر بى المقام فى إنجلترا منذ سنوات بعيدة وقد زرتها من أقصاها إلى أقصاها.. من جلاسجو وأدنبرة فى الشمال إلى بورنموث وآيل أوف وايت فى الجنوب، ومن فولكستون على بحر المانش إلى ليفربول وآبيرستويث أصغر قرية تطل على المحيط الأطلنطى فى الغرب.. لكننى طوال هذه السنوات لم أزر كمبريدج، على رغم شهرتها، لسبب بسيط جداً؛ هو أنها قريبة جداً من مدينة لندن حيث أعيش، والمسافة بين لندن وكمبريدج أقل من المسافة بين بيتى فى ضواحى لندن وبين وسط المدينة!!..

إنما؛ ولأن كل شيء بأوان؛ فقد ذهبت إلى كمبريدج أيضاً فى النهاية..

* * *

أسهل شيء فى إنجلترا هو شبكة مواصلاتها الهائلة.. وذلك ليس مستغرباً؛ فإن إنجلترا هى التى اخترعت القطار وأول دولة فى العالم أدخلت نظام السكك الحديدية.. والإعلانات الدءوبة جداً فى التليفزيون الإنجليزى وفى الملصقات التى تجدها فى كل محطات القطارات ومحطات مترو الأنفاق [الأندرجراوند]؛ تقول لك: إن (هذا العصر هو عصر القطار).. وواضح أن ذلك صحيح فعلاً، فإن نظام الإرشادات والبرامج السياحية والتخفيضات الكبيرة، سواء فى موسم السياحة

الإنجليزى أم فى غير الموسم؛ تكاد تهزك هزاً وتزغدك فى جنبك لكى تقوم وترتدى ملابسك وتذهب إلى أقرب محطة سكة حديد.. فإذا ذهبت فألف مكان ومكان فى انتظارك داخل إنجلترا فى القطارات السريعة المريحة الفاخرة ذات الأسعار الزهيدة إلى حد كبير..

* * *

كمبريدج، المدينة الصغيرة التى بها إحدى أشهر جامعتين فى إنجلترا، وفى العالم كله - الأولى هى جامعة أوكسفورد - على بعد ٥٦ ميلاً و٧٠ دقيقة فقط فى القطار من محطة [ليفربول ستريت] فى وسط لندن، ونفس المدة تقريباً فى الأوتوبيس الأخضر الـ [جرين لاين] من محطة أوتوبيسات الأقاليم فى حى [فيكتوريا] فى وسط لندن أيضاً: أوتوبيس كل نصف ساعة إبتداءً من السادسة صباحاً حتى منتصف الليل.. أما القطار فتخيل: ٦٣ قطاراً فى اليوم الواحد رايحة جاية بين لندن وكمبريدج إبتداءً من الرابعة صباحاً وحتى قرب منتصف الليل أيضاً!!.. أظنك تتصور الآن مدى صدق شعار (إنه عصر القطار)..

* * *

مدينة كمبريدج، جزء من المقاطعة البريطانية المسماة باسمها [كمبريدج شاير]؛ وصفت بأنها (المدينة الجامعية الحقيقية الوحيدة فى إنجلترا)؛ لسبب بسيط جداً، هو أنك لا تستطيع أن تفصل بين الجامعة وبين المدينة: الجامعة بكلياتها الثلاثين ومبانيها القديمة جداً؛ منتشرة تماماً فى المدينة، والمدينة متداخلة تماماً فى الجامعة.. فى كل شارع كلية أو معمل أو مكتبة أو مبنى من مبانى الجامعة.. بمعنى أن الجامعة ليس لها سور يحيط بها وبكلياتها لأن الجامعة هى كل المدينة، ولو احتاجوا لبناء سور حول الجامعة لبنوا السور حول المدينة نفسها!!..

وقد بدأ (وجود) كمبريدج كمعسكر للجنود الرومان الذين كانوا يحتلون إنجلترا كلها قبل أن يوحدها الملك «ويليام الفاتح» أو «ويليام الأول» - مؤسس الأسرة الملكية الحالية فى بريطانيا - فى مملكة واحدة فى عام ١٠٦٠. كان هذا المعسكر

علـى تل صغير على شـاطئ نهر الـ [كام].. وحين أقيم كوبـرى على النهر فى مواجهة المعسـكر – (كوبرى بالإنجليزية = بريدج Bridge) – اشـتهرت المنطقة باسـم (كوبرى نهر كام) أو بالإنجليزية (كام بريدج Camp-Bridge)، ثم أصبحت كلمة واحدة هى [كمبريدج Cambridge]..

ونشـأت على الضفة الأخرى لنهر [كام] المواجهة للمعسـكر قرية صغيرة.. وما لبثـت هذه القرية أن تحولت فـى القرن الخامس الميلادى إلى قرية كبيرة وسـوق تجارى نشـيط يربط بين شمال ووسط إنجلترا.. وفى عام ٨٧٥ استخدمت الجيوش الدانمركية فى غزوها لإنجلترا قرية [كمبريدج] لتكون قاعدة لها.. وبعد قرن آخر؛ فـى عـام ٩٧٥؛ كانت [كمبريدج] قد أصبحت مدينة صغـيرة ذات أهمية كبيرة، حتى إنها أصبحت تسـك عملاتها الخاصة بها.. وفى بداية القرن الحادى عشـر كان سكان [كمبريدج] قد أصبحوا فى حالة من الرخاء واليسر مكنتهم من بناء أول مبنى بالحجر فى المدينة، كان هو برج كنيسة [سانت بنيت].. فحتى ذلك الوقت كانت كل مبانى وبيوت المدينة الصغيرة تبنى من الخشب، وكثيراً ما كانت تشب الحرائـق لتأتى على أجـزاء كبيرة من المدينة فتحيلهـا إلى أنقاض.. وحتى أواخر القرن الحادى عشر لم يكن فى مدينة كمبريدج كلها أكثر من ٤٠٠ بيت، هدم منها ٢٧ بيتاً لكى يقام فى مكانها قلعة كمبريدج التى بنيت عام ١٠٦٨ – بعد ٨ سنوات فقـط من توحيد إنجلترا على يد الملك «ويليام الفاتح» – لتكون قاعدة للمقاومة ضد القائد السكسونى «هاير وارد»..

وقد ظلت مدينة [كمبريـدج] منذ ذلك الوقت، عام ١٠٦٨، وحتى عام ١٨٠٠؛ تحتل مسـاحة صغيرة جداً.. وإن كانـت كل الكنائس الموجودة بها الآن فى وقتنا الحالى قد بنيت جميعها حتى عام ١٢٠٠.. أى إن عمر أحدث كنيسة فى [كمبريدج] الآن أكثر من ٨٠٠ سنة!!..

* * *

وقـد بدأت قصة المدينة الصغيرة مع الجامعة الشـهيرة فـى عام ١٢٠٩؛ حين اضطر بعض أسـاتذة وطلاب جامعة أوكسـفورد – التى تقع على بعد ٨٠ ميلاً فقط

من كمبريدج – إلى ترك أوكسفورد والهجرة منها بعد حدوث مشاكل ومتاعب بين أهل الجامعة وأهل المدينة فى أوكسفورد، فجاء بعضهم إلى مدينة كمبريدج واستقر بها.. وبسرعة تكون منهم مجتمع جامعى فى كمبريدج.. وقبل أن يصبح لهم بيوت ومساكن أصبح لهم معهد، ثم معاهد.. وقبل أن تمضى سنوات كثيرة كانت هذه المعاهد قد أصبحت تحمل اسم [جامعة] فى كمبريدج.. وفى عام ١٢٨٤ أنشئت فى جنوب المدينة الصغيرة أول كلية تابعة للجامعة بجوار كنيسة [سانت بيترز]، لذا فقد أطلق على هذه الكلية اسم [بيتر هاوس]، لتكون أول وأقدم كلية على الإطلاق فى كليات جامعة كمبريدج..

* * *

وهنا لابد وأن نقف وقفة صغيرة لكى نوضح بالضبط ماهو المقصود باسم أو بتسمية [كلية] هنا فى جامعة كمبريدج.. لأن هناك فارقاً كبيراً جداً بين الـ [كلية] التى نعرفها فى جامعات بلادنا العربية وكل بلاد العالم؛ وبين الـ [كلية] فى جامعة كمبريدج وشقيقتها الكبرى جامعة أوكسفورد..

الـ [كلية] عندنا فى مصر، وفى كل جامعات كل الدول العربية، وفى معظم جامعات العالم؛ هى المكان أو المبنى الذى نذهب إليه لنتلقى فيه العلم، نتلقى نوعاً محدداً من العلم: حقوق، آداب، هندسة، طب، زراعة، صيدلة، علوم إلخ.. ثم نعود فى آخر اليوم الدراسى إلى بيوتنا لنأكل ونشرب ونذاكر دروسنا وننام.. وقد نكون ثلاثة أو أربعة أشقاء فى بيت واحد نذهب إلى ثلاثة أو أربعة كليات مختلفة متفرقة متباعدة، ثم يجمعنا البيت فى آخر اليوم..

الـ [كلية] هنا فى جامعة كمبريدج بالعكس تماماً: اسم [كلية] هنا يطلق على المكان الذى (نسكن) فيه ونأكل ونشرب ونذاكر دروسنا ونمارس نشاطنا الرياضى والاجتماعى أو هواياتنا فيه، وننام فيه آخر اليوم، مهما اختلفت نوعية الدراسة التى يقوم بها كل منا.. ثم فى الصباح يتوجه كل منا إلى (المبنى) الذى يدرس فيه، وهو هنا لا يسمى (كلية) لكنه يسمى (مدرسة) أو (معهد): مدرسة الطب أو مدرسة

الآداب أو مدرسة الحقوق أو مدرسة الهندسة، ومعهد الإحصاء أو معهد العلوم السياسية أو معهد الآثار..

وبمعنى أن الطلبة فى جامعة كمبريدج الذين (يعيشون) فى [كلية] ما؛ لا يكونون بالضرورة يدرسون فى مكان واحد ولا يكونون بالضرورة يدرسون نوعاً واحداً من الدراسة.. وبالتالى فإن طلبة مدرسة الطب – مثلاً – فى جامعة كمبريدج ممكن أن يكونوا متوزعين ومتفرقين على ١٠ أو ١٥ كلية (يعيشون) فيها.. والتشبيه الأقرب ما يمكن إلى ذلك الشكل عندنا فى مصر هو نظام (المدينة الجامعية) التى تجمع بين طلبة من مختلف كليات الجامعة ومختلف سنوات الدراسة فى مبنى واحد، وهم يعيشون فى المدينة الجامعية ولا يتلقون العلم فيها.. الفارق أن عندنا نسميها (مدينة جامعية) وهنا فى كمبريدج يسمونها [كلية].. ونحن نسمى المكان الذى نتلقى فيه العلم (كلية) وهنا فى كمبريدج يسمونه «مدرسة» أو «معهد»!!..

* * *

عودة إلى كمبريدج إذن.. بعد أن أنشئت كلية [بيتر هاوس كولدج] سنة ١٢٨٤ لتكون أول كليات جامعة كمبريدج؛ أنشئت ١١ كلية أخرى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبدأت القرية الصغيرة تتسع ببطء لتستوعب الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين بدأوا يتوافدون بكثرة للدراسة فى جامعة كمبريدج.. فبُنِى عدد هائل من المساكن والنزل وبيوت الشباب لإسكان الطلاب الذين لم تتسع لهم الكليات..

ويبدو أن الطلبة هم الطلبة فى كل زمان وفى كل مكان، بحكم السن وزهوة الشباب، والاندفاع والغرور فى كثير من الأحيان.. فبدأت المشاكل والمنازعات والخلافات بين الطلبة وأهل المدينة من ناحية؛ وبين سلطات المدينة وسلطات الجامعة من ناحية أخرى، حتى إنها وصلت إلى مرحلة العنف المتبادل بين الجانبين.. وكان نتيجة ذلك فى النهاية أن منحت الحكومة الإنجليزية – فى ذلك الوقت – للجامعة سلطات واسعة على المدينة ذاتها.. من هذه السلطات التفتيش

علـى التجار ومراقبة الأسـعار والموازين والمكاييل والمقاييـس!!.. وعلى مر القرون والعصور ازداد نفوذ وسـلطات جامعة كمبريـدج على المدينة حتى أصبح من حقها محاكمة سكان المدينة الذين يعتدون على الطلاب أو على الجامعة!!..

وكان طبيعياً أن يضايق ذلك سكان المدينة كثيراً، خصوصاً عندما بدأت الجامعة تطرد بعض السـكان من بيوتهم لكى تهدمها وتقيـم فى مكانها كليات جديدة فى أواسـط القرن الخامس عشـر.. حتى جاء وقت تهددت فيـه جامعة كمبريدج بأن تـزول تماماً، حين حـدث الخلاف بين الملك عنيف الطبـع متقلب المزاج «هنرى الثامـن» ورجال الكنيسـة، وكانت جامعة كمبريدج تعتبر بشـكل أو بآخر جامعة دينيـة، فنالها من غضب «هنرى الثامن» على رجال الدين؛ حتى إنه أعدم رئيس الجامعـة وقتها الكاردينال «جون فيشـر» ضمن الكثيرين الـذيـن أعـدمهم.. لكن «هنـرى الثـامن» مالبث أن عـاد - بمزاجه المتقلب - فأراد أن (يصالح) الجامعة مـرة أخرى؛ فأنشـأ بها كلية جديدة هى كليـة [ترينتى كولدج] فى عام ١٥٤٦، وعادت سـلطات الجامعة تسيطر على المدينة كلها مرة أخرى.. لكن على أى حال فإن ذلك انتهى تماماً فى منتصف القرن التاسع عشر، حين توسعت الجامعة كثيراً وازدادت مبانيهـا وكلياتها وتفرقت وتبعثرت فى أرجاء المدينة، وبالتالى توسـعت المدينة نفسها توسعاً كبيراً، فقلل ذلك من هيمنة الجامعة على المدينة، حتى - فى النهاية - استقرت الأمور فى شكلها الطبيعى المفروض، فاستعادت المدينة سلطاتها على نفسها، والتزمت الجامعة بحدودها كجامعة لتدريس العلم وليس لمراقبة الناس ومحاكمتهم..

* * *

تعداد السـكان فى مدينة كمبريدج يزداد ببطء شـديد: خمسة آلاف نسمة فقط فى القرن السادس عشر؛ تضاعفوا - إلا قليلاً - خلال ثلاثة قرون ليصبح عددهم فـى عام ١٨٠١ هو ٩٢٧٦ نسـمة!!.. لكن خـلال القرنين الأخيرين، ومع دخول خط السـكة الحديد إلى المدينة فى عام ١٨٤٥، والسـماح بزواج الطلاب فى جامعة

كمبريدج فى عام ١٨٨٢ – قبل ذلك لم يكن مسموحاً بزواجهم.. لماذا!؟.. الله أعلم!! – زاد عدد الطلاب والأساتذة والموظفين فى الجامعة؛ فقد تضاعف عدد السكان ١٠ مرات حتى أصبحوا ١٠٢,٣٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩.. ويصبح – لكى نعرف مدى تغلغل الجامعة فى المدينة ومدى ارتباط المدينة بالجامعة – واحداً من كل أربعة من سكان كمبريدج له صلة ما بالجامعة: طالباً أو مدرساً أو أستاذاً أو موظفاً بها أو متعاملاً معها..

* * *

أين تقع الجامعة!؟.. السؤال التقليدى المعتاد الذى يسأله أى وافد جديد إلى مدينة كمبريدج: «كيف أصل إلى الجامعة!؟».. لكنه سؤال صعب الإجابة عليه، فإن مبانى الجامعة الأقدم هى التى تحتلها الآن الإدارة المركزية للجامعة فى مواجهة كنيسة [جريت سانت مارى].. ويمكن أن نعتبر هذه المنطقة هى منطقة قلب الجامعة، لكن الكليات ومدارس الجامعة ومعاهدها وقاعات المحاضرات والمعامل والمكتبات منتشرة فى كل أرجاء المدينة كما قلت..

وجامعة كمبريدج تدير نفسها بنفسها ولا تتلقى أى إعانة من الحكومة البريطانية.. وتنفق على نفسها من موردين رئيسيين: الأول هى المصروفات التى يدفعها طلبة الجامعة للدراسة بها، والثانى الأوقاف الموقوفة على كليات الجامعة المختلفة، بالإضافة إلى التبرعات والهبات التى يغدقها أثرياء الإنجليز، وغير الإنجليز، على جامعة كمبريدج وعلى غيرها من الجامعات الإنجليزية..

ويقودنا ذلك إلى الحديث عن المصروفات التى يدفعها طالب الجامعة فى كمبريدج؛ وهى تختلف بكون الطالب إنجليزياً أو أجنبياً.. فإذا كان إنجليزياً فإنه سوف يدفع ١٤٩٤ جنيهاً – إسترلينياً طبعاً – عن السنة الدراسية الواحدة، على ثلاثة أقساط قيمة كل قسط ٤٩٨ جنيهاً، أياً كانت المادة أو التخصص الذى يدرسه.. أما الطالب الأجنبى فإنه إذا كان يدرس الآداب أو الحقوق أو الفنون أو الدراسات النظرية عموماً؛ فهو يدفع ٣٣٠٠ جنيه فى السنة الدراسية الواحدة

على ثلاثة أقساط قيمة كل منها ١١٠٠ جنيه.. فإذا كان يدرس العلوم فهو يدفع ٤٢٠٠ جنيه على ثلاثة أقساط قيمة كل منها ١٤٠٠ جنيه.. فإذا درس الطب أو الصيدلة فهو يدفع ٧٤٠٠ جنيه فى السنة الدراسية الواحدة على ثلاثة أقساط أيضاً قيمة كل منها ٢٤٦٦ جنيهاً وبضعة بنسات!!..

وتلك هى مصاريف الدراسة فقط. ويشرح الكتاب السنوى الذى تصدره جامعة كمبريدج أن الطالب يحتاج بعد ذلك إلى مصاريف (الكلية) نفسها – التى اتفقنا أنها مكان إقامته – وهى أقل قليلاً من ١٠٠٠ جنيه فى العام الدراسى الواحد نحو ٩٥٠ جنيهاً..

ليس ذلك فقط؛ بل إن طالب جامعة كمبريدج سوف يحتاج أيضاً إلى نفقات معيشته وطعامه.. الطالب الإنجليزى يحتاج إلى مبلغ ١٩٥٠ جنيهاً إذا كان سيدرس لمدة ٩ شهور فقط، وإلى ٢٦٠٠ جنيه إذا كان سيدرس لمدة عام دراسى كامل ١٢ شهراً.. بينما يحتاج زميله الطالب الأجنبى إلى ٢٤٧٥ جنيهاً إذا كان سيدرس لمدة ٩ شهور، وإلى ٣٣٠٠ جنيه إذا كان سيدرس لمدة عام كامل..

انتظر قليلاً ولا تتعجل فلم ينته بند المصروفات بعد: المصروفات التى ذكرتها سابقاً للطالب الأعزب الوحدانى (اللى بطوله).. لكن الطالب المتزوج – إنجليزيا كان أو أجنبيا – سوف يحتاج إلى ١٥٠٠ جنيه أخرى لنفقات زوجته على مدار العام الدراسى.. فإذا لم يكن قد عمل حسابه و(نظر حوله) وتسرع وأنجب أطفالاً؛ فإن كل طفل سوف يحتاج إلى ٨٥٠ جنيهاً كنفقات خلال العام الدراسى الواحد + ٤٥ جنيهاً أسبوعياً لنفقات الطفل أيضاً، وهى تشكل فى مجموعها مبلغاً آخر لا يستهان به، هو ٢٣٤٠ جنيهاً، يعنى أكثر من مصاريف الطالب الأب نفسه.. ليه ولماذا واشمعنى وعلشان إيه ؟؟.. ذلك مالم يوضحه الكتاب السنوى لجامعة كمبريدج..

فقرة صغيرة أخرى ينبغى أن أذكرها هنا، لأنها يمكن أن تكون مفيدة، بصورة ما، لبعض الطلاب العرب الذين (قد) تنطبق عليهم، لتخفيف أو تقليل نفقات دراستهم.. وهى مسألة: متى يعتبر الطالب إنجليزياً، ومتى يعتبر أجنبياً..

يعتبر الطالب إنجليزياً، وبالتالى يدفع المصروفات كالطالب الإنجليزى؛ فى عدة حالات:

● إذا كانت أسـرته مهاجرة إلى إنجلترا وتقيم فيها وتعمل بها منذ فترة لا تقل عن ٤ سنوات قبل التحاق الطالب بجامعة كمبريدج..

● الطالـب الـذى يجىء إلى كمبريدج وفقـاً لاتفاقيات التبـادل الثقافى أو التبادل الجامعى – (وهو نظام آخر غير نظام البعثات المعتاد)..

● الطالب الذى تشهد الحكومة البريطانية أنه لاجئ سياسى لبريطانيا، هو شخصياً أو أسرته طبعاً، وفقاً لاتفاقية جنيف للاجئين السياسيين فى ٢٨ يوليو ١٩٥١ المعدلة بالبروتوكول المضاف فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٧، على شرط أن تكون بريطانيا هى محل إقامته الوحيد منذ قبوله أو قبول أسرته كلاجئين سياسيين..

وبمجـرد قبول الطالب (الإنجليـزى) فى جامعة كمبريدج؛ فـإن (كل) الطلبة والطالبـات الإنجليز يحصلون على منح دراسـية مجانية مـن إدارات التعليم فى المناطق التى جاءوا منها من داخل إنجلترا، بالإضافة إلى أنهم يتقاضون – من هذه المناطـق التعليمية – (مصروف جيب) كافيا جداً ومحترما، تبعاً لدخل أسـرهم.. فكلما قل دخل الأسـرة زاد (مصروف الجيب)، والعكس صحيح، لنفقات طعامهم وملابسـهم ومواصلاتهـم ومصاريفهم النثرية.. ويكـون (مصـروف الجيب) هذا هو ١٤٠٠ جنيه فى السـنة الدراسية، للطالب الواحد طبعاً، يعنى حوالى ١٢٠ جنيهاً فى الشهر!!..

ومسـألة أخرى (كلما قل دخل الأسـرة زاد مصروف الجيب الذى تدفعه الإدارة التعليمية للطالب الإنجليزى) فهى مسـألة نسـبية جداً ولا مجال للقياس والمقارنة فيها بيننا وبينهم.. فإن الأسـرة الإنجليزية التى دخلها الشـهرى هنا ٨٠٠ جنيه – إسـترلينى طبعاً – تعتبر هنا فى إنجلترا أسرة فقيرة (دقة) تحتاج إلى المساعدة، وتحصل عليها فعلاً من الدولة وليس من أهل الخير!!..

* * *

ويشـــترط على طالب أو طالبة جامعة كمبريدج؛ إذا لم يكن يســكن فى إحدى الكليــات؛ أن يســكن فى داخل (كــردون) المدينة بحيث لا يبعــد عنها بأكثر من ٩ أميال.. بمعنى أن الطالب الذى تعيش أســرته فى مدينة لندن على بعد ســاعة واحدة فى القطار؛ لابد وأن يســكن فى داخل كمبريدج ولا يستطيع أن يأتى إليها كل صبــاح ويعود إلى لندن بعد نهاية اليوم الدراســى.. بينمــا الطالب الذى بيت أســرته فى قريــة قريبة من كمبريدج – أقل من ٩ أميال – يســتطيع أن يســكن ويعيش فى بيته مع أســرته، ويظل أيضاً يتقاضى (مصروف الجيب) ١٢٠ جنيهاً كل شهر!!..

أما الطلبة الذين وجدوا لهم أماكن فى داخل مبانى الكليات؛ فهم قد يسكنون فى غرف حديثة ومبنية هذا العام فقط؛ وقد يسكنون فى غرف عمرها ٦٠٠ سنة!!..

* * *

عنــد بدايــة جامعــة كمبريدج فى أواســط القــرن الثالث عشــر؛ كانت أقرب ما تكون مركزاً للدراســات والأبحاث.. ثم بدأ طلبة المرحلة الجامعية – الليســانس والبكالوريوس – يتدفقون بكثرة على الجامعة منذ عام ١٧٢٠.. وحتى ذلك الوقت كان طلبة جامعة كمبريدج يتعلمون فى نفس المبانى التى يقيمون وينامون ويعيشون فيها – (أقرب إلى نظام المدارس الداخلية والكليات العســكرية عندنا فى مصر) – وحتى اليوم لازالت تبنى مبانٍ جديدة وقاعات جديدة للمحاضرات وللأساتذة..

والمواد التى تــدرس فى جامعة كمبريدج تبدأ بالموســيقى وتنتهى بالكومبيوتر، مروراً بالآداب والفنون واللغات الحية واللغات غير الحية، والدراســات الشــرقية والاقتصاد والعلوم السياســية والتاريخ والتربية وعلــم النفس وعلم النفس التجريبى وعلم الاجتماع والقانون والفلســفة والهندسة والجغرافيا وعلم الحيوان والجيولوجيا والرياضيــات والإحصــاء والكيمياء والفيزيــاء والكيمياء الحيوية والأشــعة والعلاج بالأشــعة والصيدلة والطب وطب الأطفال والطب النفســى وعلــم الأورام والجراحة والآثار وهندســة العمارة وتاريخ العمارة والهندســة الكيميائيــة والاقتصاد المحلى

والدراسات الأفريقية والدراسات الدولية ودراسات أمريكا اللاتينية ودراسات جنوب آسيا، كما أن هناك معهداً خاصاً لدراسة الجريمة..

وذلك كله فى دورات دراسية تبدأ من ٩ شهور، حتى عام دراسى كامل ١٢ شهراً، فما فوق ذلك بلا حد أقصى للمدة، حتى تزهق أنت من الدراسة أو تزهق الدراسة منك..

* * *

وكل كلية من كليات جامعة كمبريدج مستقلة تماماً عن إدارة الجامعة وتدير نفسها بنفسها ولها إدارتها المستقلة مالياً وعلمياً، ولها مكتبتها وأنديتها الرياضية وأنشطتها الاجتماعية التى لا تخضع لأى نوع من الإشراف من إدارة الجامعة.. بل ولها أيضاً عقوباتها ونظامها التأديبى الخاص..

وقد أنشئت هذه الكليات غالباً بواسطة منح أو هبات من بعض الأثرياء.. وعند بداية إنشاء الكليات كانت كل كلية تقدم للطلاب الذين يتعلمون بها السكن والإقامة والمعيشة، والتعليم طبعاً، مجاناً.. ثم حين أصبح من المعتاد أن تقبل الكليات طلاب المرحلة الجامعية للحصول على الليسانس أو البكالوريوس؛ كان على طلاب هذه المرحلة فقط أن يدفعوا مصروفات.. ولازال ذلك هو، غالباً، المعمول به حتى الآن.. أما الذين يطلق عليهم لقب (فيلو Fellow) أو (زميل) – وهو مايعادل (المعيد) عندنا – فتتولى الكليات نفسها الإنفاق عليهم وعلى دراساتهم بها، من رصيد المنح والهبات والأوقاف التى توقف على الكليات.. وفى جميع كليات جامعة كمبريدج – ماعدا ثلاث كليات فقط – يتولى هؤلاء الـ (زملاء) أو الـ(Fellow) انتخاب رئيس كلياتهم..

وكل كلية فيها قاعة طعام وكنيسة صغيرة ومكتبة وبار وقاعة للجلوس والدردشة وقراءة الصحف.. وفى بعض الكليات يوجد ما يشبه الـ (ميس) للوجبات السريعة غير الرسمية (!!).. فإن نظام الوجبات الرسمية يحتم على طلبة الكلية أن يجتمعوا جميعاً على مائدة العشاء فى صالة الطعام الرئيسية خمس مرات كل أسبوع على الأقل!!..

وابتداءً من عام ١٩٧٢ بدأت العديد من كليات جامعة كمبريدج التى كانت تصر على عدم اختلاط الجنسين فى السكنى بداخلها؛ تغير من نظامها لكى تسمح بقبول الجنسين معاً، فيتجاور الصبيان والبنات فى السكن فى داخل الكلية الواحدة، وتصبح الغرف المتجاورة تضم صبياناً وبنات لا يهم!!.. وحتى عام ١٩٨٠ كانت ١٨ كلية قد سمحت بإقامة الجنسين معاً داخل الكليات، بينما بقيت كليتان فقط قاصرتان على قبول الرجال فقط، وخمس كليات لا تقبل إلا البنات فقط.. وفى البداية كان من غير المسموح للطالبات البنات بزيارة الطلبة الصبيان فى حجراتهم الخاصة أو (البقاء معهم فيها) إلا لوقت محدد – العاشرة مساءً فى بعض الكليات – لكن يبدو أن ذلك قد أصبح ماضياً الآن أيضاً!!..

* * *

وفى جامعة كمبريدج الآن بكلياتها المختلفة ١٢٦٨٠ طالباً وطالبة.. منهم ٣٨٢٠ فى مرحلة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة)، و٨٨٦٠ طالباً وطالبة فى المرحلة الجامعية (الليسانس والبكالوريوس).. يقابلهم ٢٧٤٧ من الأساتذة والمحاضرين.. أى بمتوسط أستاذ واحد لكل ٥ طلاب، أو – للدقة – ١٠ أساتذة لكل ٤٦ طالباً وطالبة!!.. ويالليهول على رأى يوسف وهبى: أين نحن من ذلك فى جامعاتنا فى مصر، التى – على قدر علمى – يوجد فى أصغر كلية فى أى جامعة من جامعاتنا عدد طلاب أكبر من عدد طلاب جامعة كمبريدج كلها!!..

* * *

نلتقط أنفاسنا ونستريح قليلاً من الحديث عن جامعة كمبريدج؛ ونتحدث عن شىءٍ آخر قبل أن نعود إلى الحديث عن الجامعة مرة أخرى.. فنحن لا نستطيع أن ننسى أن الجامعة هى المدينة والمدينة هى الجامعة..

فى كمبريدج؛ على الرغم من صغر المدينة؛ عدد كبير من المتاحف أهمها متحف [فيتز ويليام]، متحف [فولك]، متحف الجامعة، متحف العمارة التقليدية أو الكلاسيكية، متحف الحيوان، متحف العلوم، متحف الجيولوجيا، متحف

الفنـون، متحـف التكنولوجيا، متحـف تاريخ كمبريدج.. بالإضافـة إلى مكتبات الجامعة المسموح بزيارتها كمتاحف..

وحـول مدينة كمبريـدج يوجد العديد من الأماكن والمعالم التى تسـتحق الزيارة والمشـاهدة، المسافات بينها وبين المدينة تقطعها بين دقيقتين و٤٥ دقيقة.. ومكتب السـياحة البريطانى فى كمبريدج ممكن أن يزود السـائح الـذى يزور المدينة بكل مـا يحتاجه من المعلومات أو الخدمـات، إبتداءً من زيارة كليات الجامعة المختلفة والكنائس الأثرية العديدة والمتاحف المنتشرة فى كل مكان؛ إلى أين يقيم وأين يأكل وأين يقضى فترة المسـاء والسهرة، إلى تزويده بدليلة أو مرشدة حسناء تشرح له كل ما يراه ويزوره فى كمبريدج: الجامعة والمدينة..

* * *

يطلق على خريج جامعة كمبريدج لقب [كمبريدج مان Cambridgeman].. ومن أشهر من درسوا فى جامعة كمبريدج:

الملك هنرى السابع ملك إنجلترا (١٤٨٥ – ١٥٠٩) + ٤ آخرين من أفراد الأسرة الملكية البريطانية.. لكن ولا واحد منهم أتم دراسـته فى كمبريدج كاملة غير الأمير «تشارلز» ولى عهد بريطانيا الحالى..

**بالمناسـبة؛ سطر سريع أوضح فيه شـيئاً لبعض القراء اللى مش شاطرين أوى فى التاريخ:** لا نستطيع أن نقول (ولى عهد إنجلترا) بدلا من (ولى عهد بريطانيا)، وليـس صحيحـاً أن نقول (إنجليزيا) والصحيح أن نقـول (بريطانيا).. لأن الدولـة الآن اسمهـا (بريطانيـا) وليس (إنجلـترا).. لماذا!؟.. لأن (إنجلـترا) مجرد إقليم واحـد من أربعة أقاليم تتكون منهـا (بريطانيا) أو (المملكة المتحدة)، هى: إنجلترا – إسـكوتلندة – ويلـز – أيرلندا الشـمالية.. مثـل أن نقول أن فلاناً (أسـيوطى) أو (منوفى) أو (شرقاوى)، لكنه فى النهاية (مصرى) ولا يحمل جواز سفر (أسيوطى) أو الجنسية المنوفية.. أظن المسألة أصبحت واضحة الآن..

وبالمناسـبة أيضـاً مادمنا قد فتحنا هذا الموضوع ولكـى نخلص منه تماماً: كثير مـن الناس، ومن بينهم عدد مـن الكتاب والصحفيون، يقولون أو يكتبون (بريطانيا

العظمى)، وهى تسمية غير صحيحة، وصحتها (بريطانيا الكبرى)، كما نقول عن مدينة القاهرة (القاهرة الكبرى) وليس (القاهرة العظمى).. نسميها القاهرة (الكبرى) لأنها توسعت حتى تداخلت والتحمت بالمحافظات المتاخمة لها التى هى القليوبية والجيزة.. نفس الأمر بالضبط حدث مع مدينة لندن التى زحفت على حدود المقاطعات المتاخمة لها فأصبحت (لندن الكبرى) وليست (لندن العظمى)، وكما حدث مع (إنجلترا) حين انضمت إليها (ويلز) و( إسكتلندة) و (أيرلندا الشمالية) لكى تصبح جميعها مملكة واحدة باسم (بريطانيا الكبرى) وليست (بريطانيا العظمى).. اللهم إنى قد أبلغت..

* * *

من بين الذين درسوا فى جامعة كمبريدج أيضاً الشاعر الإنجليزى الشهير «ميلتون».. وواضح أنه كان يحب الجامعة جداً لأنه قضى فيها ٧ سنوات كاملة!!..

الشاعر الإنجليزى الأشهر «لورد بايرون»..

العالم «إسحق نيوتن» صاحب قانون الجاذبية، الذى درس الفيزياء والرياضيات فى كلية [ترينيتى كولدج] عام ١٦٦١، ثم أصبح أستاذاً وبروفسورا فى نفس الكلية..

العالم « تشارلز داروين » صاحب كتاب (أصل الأنواع) ونظرية (النشوء والارتقاء).. ولم يكن هو وحده الذى درس فى كمبريدج؛ لكنْ هناك ثلاثة آخرون من أبنائه درسوا أيضاً فيها: «فرانسيس» و «جورج» و «هوراس»..

«أوليفر كرومويل».. الذى درس فى كلية [سيدنى ساسكس كولدج] عام ١٦١٦ لمدة عام واحد، ثم توفى والده فعاد إلى قريته ليعمل مزارعاً ويدير أرض الأسرة.. وأصبح عضواً فى البرلمان الإنجليزى عن منطقة كمبريدج عام ١٦٤٠، ثم قاد الحرب الأهلية بين البرلمان والملك «تشارلز الأول»، وجعل كمبريدج مقر قيادته فى الوقت الذى كانت جامعة كمبريدج فيه تدين بالولاء للملكية، فجعل «كرومويل» من كلية

[سانت جورج كولدج] سجناً للمتعاطفين مع الملك.. حتى استطاع فى النهاية أن يرد الدين للملك «هنرى الثامن» الذى كان قد قطع رأس أحد رؤساء الجامعة قبل ذلك بنحو مائة عام؛ فقطع «كروميل» رأس الملك «تشارلز الأول» بعد أن انتصر عليه، وحكم إنجلترا مكانه كأول – وآخر – رئيس لـ (جمهورية) إنجلترا لمدة ١١ سنة فقط، من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٦٦٠، حين توفى «كروميل»، فعادت الملكية إلى إنجلترا، أو عادت إنجلترا إلى الملكية مرة أخرى!!..

* * *

على الرغم مما ذكرته قبلاً من أن نظام (الكلية) فى جامعة كمبريدج يجعلها أقرب ما تكون إلى نظام (المدينة الجامعية) التى يقيم ويسكن فيها الطلاب لكنهم لايتلقون العلم فيها؛ لكن – مع ذلك – فإنه لا يمكن لأى طالب أن يلتحق بالدراسة فى جامعة كمبريدج إلا إذا قبل طلبه للإقامة فى إحدى كلياتها أولاً!!.. بمعنى أنه يتقدم بطلبه أولاً إلى الكلية التى يريد أن يقيم فيها، فإذا قبلته كان ذلك معناه أن له مكاناً للدراسة التى يريدها فى جامعة كمبريدج!!..

وقد ذكرت قبلاً مجالات الدراسة فى جامعة كمبريدج؛ والآن أقدم عرضاً سريعاً وموجزاً جداً عن كل كلية من كليات الجامعة، حسب تاريخ إنشائها:

● كلية [بيتر هاوس كولدج].. هى أولى وأقدم كليات الجامعة، فقد أنشئت فى القرن الثالث عشر: عام ١٢٨٤، وفى الوقت نفسه هى أصغر كليات الجامعة.. أنشأها «هيو بالسهام» أسقف منطقة (إيلى).. عدد الطلبة بها ٤٠ فى مرحلة الدراسات العليا و٢١٠ فى المرحلة الجامعية (الليسانس أو البكالوريوس)..

● كلية [كلير كولدج].. الكلية رقم ٢ فى تاريخ جامعة كمبريدج.. بدأ وجودها فعلياً عام ١٣٢٦، بعد ٤٢ سنة كاملة من أول كلية.. ثم تولت رعايتها والإنفاق عليها عام ١٣٣٨ ليدى «إليزابيث دى كلير» وأطلقت على الكلية اسمها.. وهى كلية مختلطة تقبل الجنسين للإقامة بها.. عدد الطلبة والطالبات بها ١١٥ للدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة) و٣٥٠ للمرحلة الجامعية..

● لية [بيمبروك كولدج].. أنشئت عام ١٣٤٧.. عدد طلبتها ٦٠ للدراسات العليا + ٣٣٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [جونفيل آند كايوس كولدج].. أنشئت بعد [بيمبروك كولدج] بعام واحد فقط: عام ١٣٤٨.. تضم ١٠٠ طالب دراسات عليا + ٤٥٠ بالمرحلة الجامعية..

● كلية [ترينيتى هول كولدج].. جاءت بعد عامين آخرين، ففى عام ١٣٥٠ أنشأها أساساً لدراسة القانون الأسقف «بيتمان» أسقف منطقة (نوريتش) – حيث توجد الآن قرية إنجليزية كل سكانها مسلمين إنجليز!! – وهى كلية صغيرة نسبياً تضم من الجنسين ٨٠ دارساً ودارسة لمرحلة الدراسات العليا + ٣٠٠ بالمرحلة الجامعية..

● كلية [كوربوس كرايستى كولدج].. كانت السنوات الخمس ١٣٤٧ – ١٣٥٢ من أنشط السنوات فى تاريخ جامعة كمبريدج؛ فقد تم خلالها إنشاء ٤ كليات، فى حين أنه فى خلال الـ ١٥٣ سنة التالية لم تنشأ غير ٤ كليات أخرى فقط. انضمت كلية [كوربوس كرايست كولدج] إلى كليات جامعة كمبريدج عام ١٣٥٢ ليصبح عدد كليات الجامعة حتى ذلك الحين ٦ كليات خلال ٦٨ سنة منذ بدء إنشاء الجامعة نفسها.. وتضم هذه الكلية ١٠٠ طالب دراسات عليا + ٢١٠ طلاب للمرحلة الجامعية..

● كلية [كنجز كولدج].. بعد ما يقرب من ٩٠ سنة كاملة مرت دون إنشاء أية كليات جديدة؛ بدأت الجامعة تزيد من عدد كلياتها فى بطء شديد، حتى إنه فى خلال القرن الخامس عشر كله لم يتم إنشاء غير ٤ كليات فقط، كانت أولاها [كنجز كولدج] عام ١٤٤١ التى أنشأها الملك «هنرى السادس».. وهى الآن كلية مختلطة للجنسين معاً تضم ١٣٥ طالباً وطالبة لمرحلة الدراسات العليا + ٣٥٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [كوينز كولدج].. أنشأتها فى البداية الملكة «مارجريت» عام ١٤٤٨، ثم أعادت إنشاءها مرة أخرى عام ١٤٦٥ الملكة «إليزابيث وودفيل» – وهى غير

الملكة «إليزابيث» الحالية التى لم تكن موجودة قطعاً فى ذلك التاريخ منذ أكثر من ٥٠٠ سنة، بل وغير الملكة «إليزابيث الأولى» التى كانت ثانى ملكة فى تاريخ إنجلترا وحكمتها لمدة ٤٥ عاماً من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣.. وأتصور – وذلك استنتاج شخصى قابل للتعديل والتصحيح طبعاً – أن الملكة «إليزابيث وودفيل» قد تكون زوجة الملك «إدوارد الرابع» الذى كان يحكم إنجلترا فى تلك الفترة ١٤٦١ – ١٤٨٣..

بعض خريجى كلية [كوينز كولدج] كانوا عباقرة مرموقين، مثل العالم «أوسبورن رينولدز» الذى يطلق عليه لقب (أبو الهيدرو ديناميك) والذى عين كأول أستاذ للهندسة فى جامعة [مانشستر] وعمره ٢٦ سنة فقط.. ومثل القديس «جون فيشر» الذى أصبح كاردينالاً ورئيساً لجامعة كمبريدج نفسها، قبل أن يقوم الملك نارى المزاج متقلب الطباع «هنرى الثامن» بإعدامه!!.. و «هنرى الثامن» (١٥٠٩ – ١٥٤٧) يبدو أن الإعدام كان من (هواياته) المفضلة؛ فقد أعدم أيضاً اثنتين من زوجاته الست، وأعدم أعز أصدقائه سير «توماس موور» رئيس الكنيسة الإنجليزية وقتها، فليس مستغرباً إذن أن يصل (نشاطه) إلى إعدام رؤساء الجامعات كذلك!!..

● كلية [كوينز كولدج] مختلطة تقبل الطلبة والطالبات معاً للدراسة بها..

● كلية [سانت كاترين كولدج].. على الرغم من أن الملك «هنرى السادس» كان قد توفى عام ١٤٦٣؛ إلا أن كلية [سانت كاترين كولدج] التى أنشئت بعد وفاته بعشر سنوات كاملة، عام ١٤٧٣، تدين له بالفضل فى إنشائها.. وهى تضم ٦٠ طالباً للدراسات العليا + ٣٨٠ لمرحلة الدراسات الجامعية.. وهى كلية ظريفة لها تقاليد «دمها خفيف».. منها أنه مسموح لطلبتها أن يدعوا زوجاتهم وأصدقاءهم وصديقاتهم لتناول (كل) وجبات الطعام معهم فى صالة الطعام فى الكلية، فيما عدا وجبة الإفطار!!.. لماذا وجبة الإفطار بالذات!؟.. الله أعلم..

● كلية [جيساس كولدج] أو [كلية عيسى]، التى كانت آخر كلية أنشئت فى القرن الخامس عشر، عام ١٤٩٦.. وهى كلية مختلطة للجنسين معاً، طلبة وطالبات، وتضم ٩٠ فى مرحلة الدراسات العليا + ٣٨٠ فى المرحلة الجامعية..

● كلية [كرايستز كولدج] أو [كلية المسيح].. كان اسمها فى بداية إنشائها على يد «ويليام بينجهام» عام ١٤٣٧ [جودز هاوس] أو [بيت الله]؛ ثم جاء الملك «هنرى السادس» فطمع فى موقعها القديم المطل على النهر ليكون قصراً له؛ فاستولى عليه ونقل [جودز هاوس] إلى موقعها الحالى.. ثم جاءت ليدى «مارجريت بيوفورت» أم الملك «هنرى السابع» لكى تعيد إنشاء هذه الكلية من جديد عام ١٥٠٥ وتغير اسمها إلى الاسم الحالى [كرايستز كولدج ].. [كرايستز كولدج] كلية رجالى أو للرجال فقط، وعدد الطلبة بها ١٠٠ للدراسات العليا + ٣٦٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [سانت جونز كولدج].. ويبدو أن ليدى «مارجريت بيوفورت» أم الملك «هنرى السابع» وكونتيسة (ريتشموند) و (دربى)؛ صاحبة أفضال كثيرة على جامعة كمبريدج؛ فبعد ٦ سنوات فقط من إنشائها كلية [كرايستز كولدج] كانت ليدى «مارجريت» نفسها قد انتقلت إلى رحمة الله، لكنها لم تنس أن تخصص جانباً من وصيتها لإنشاء كلية أخرى جديدة تضم لجامعة كمبريدج، وكانت هى كلية [سانت جونز كولدج] التى أنشئت عام ١٥١١ لتكون ثانى أكبر كليات الجامعة كلها.. فهى تضم ٧٠٠ دارس، ربعهم تقريباً فى مرحلة الدراسات العليا..

● كلية [ماجدالين كولدج].. كان مبناها موجوداً منذ عام ١٤٢٨ كبيت أو كـ(نزل) للرهبان.. وفى عام ١٥٤٢ تحول إلى كلية باسم [ماجدالين كولدج].. وقد هاجر عدد كبير من خريجى [ماجدالين كولدج] إلى أمريكا فى بداية اكتشافها واستقروا فى ولاية (نيو إنجلند) أو (إنجلترا الجديدة)، وأصبح واحد منهم أول رئيس لجامعة [هارفارد] أشهر وأهم الجامعات فى أمريكا..

● كلية [ماجدالين كولدج] هى الأخرى كلية رجالى أى للطلبة الرجال فقط ولا تقبل الجنس الناعم.. وتضم ٦٠ طالباً فى مرحلة الدراسات العليا + ٢٩٠ بالمرحلة الجامعية..

● كلية [ترينيتى كولدج] أو كلية [الثالوث المقدس].. أنشئت عام ١٥٤٦ فى عهد الملك العنيف «هنرى الثامن» وقبل عام واحد من وفاته.. وهى تعتبر أكبر كليات

جامعــة كمبريدج من ناحية عــدد الطلاب المقيمين بها، وأكثرهــا ثراءً من ناحية الأوقــاف الموقوفة للانفاق عليها.. وقد ظلت [ترينيتى كولدج] تقاوم التحاق البنات بهــا لمدة ٤٣٠ عاماً؛ حتى استســلمت أخيراً فبدأت فى قبول طالبات الدراســات العليا بها فى عام ١٩٧٦.. وبعدها بعامين فقط كانت قد فتحت كل أبوابها للبنات الصغيرات القادمات من المدرسة الثانوية للالتحاق بجامعة كمبريدج لدراسة المرحلة الجامعيــة، ليصبح عدد طلابها وطالباتهــا ٦٥٠ للمرحلة الجامعية + ٢٤٠ لمرحلة الدراسات العليا..

● كلية [إيمانيويل كولدج].. أنشــئت عام ١٥٨٤ وتضم ٩٠ فى مرحلة الدراســات العليــا و٣٧٠ فى المرحلــة الجامعية.. ومن تقاليدها الطريفة أنها لا تســمح بقبول الطالبات فيها لمرحلة الدراســات العليــا إلا إذا كن من خريجات جامعة كمبريدج أصلاً.. بمعنى أننا لن نجد فيها طالبة واحدة حصلت على الليسانس أو البكالوريوس مــن أى جامعة أخرى، حتى لوكانت جامعة أوكســفورد الأخت الكبرى لجامعة كمبريدج!!..

اثنان من خريجى كلية [إيمانيويل كولدج] حصلا على جائزة نوبل..

● كلية [سيدنى ساسكس كولدج].. سادس وآخر كلية من كليات جامعة كمبريدج أنشــئت خــلال القــرن السادس عشــر.. أنشــئت عام ١٥٩٦ تنفيذاً لوصية ليدى «فرانسيس سيدنى» كونتيسة (ساسكس).. وهى تقبل الجنسين معاً، وتضم ٧٠ طالباً وطالبة فى الدراسات العليا + ٣٠٠ بالمرحلة الجامعية..

● كلية [داوننج كولدج].. وتمر أطول فترة ركود فى حياة جامعة كمبريدج، فطوال قرنين كاملين هما القرن السابع عشر والثامن عشر، لم تزد كليات جامعة كمبريدج ولا كلية واحدة جديدة.. لكن بعد ٢٠٤ ســنوات ومع نهاية آخر ســنة من سنوات القرن الثامن عشــر، ســنة ١٨٠٠، ظهرت كليــة [داوننج كولــدج] تنفيذاً لوصية الديبلوماســى الإنجليزى ســير «جورج داوننج» الذى توفى عام ١٧٤٩.. وهو نفسه الرجل الذى يحمل اسمه الشــارع الشــهير فى لندن الذى فيه مقر رئاســة الوزارة

وسكن رئيس الوزراء فى بريطانيا (رقم ١٠ داوننج ستريت).. الطريف فى الأمر أن «سير جورج داوننج» نفسه لم يتخرج فى جامعة كمبريدج وإنما درس فى جامعة (هارفارد) فى أمريكا!!..

كلية [داوننج كولدج] تضم ٦٠ دارساً لمرحلة الدراسات العليا + ٣٤٠ للمرحلة الجامعية..

● كلية [جيرتون كولدج] .. ويبدو أن لجامعة كمبريدج فترات صحو وفترات ركود فى مسألة إنشاء الكليات.. فبعد [داوننج كولدج] مرت ٦٩ سنة أخرى قبل أن تنشأ كلية جديدة: كلية [جيرتون كولدج]، التى أنشئت عام ١٨٦٩ لطلبة الدراسات العليا فقط.. التى من تقاليدها الطريفة أن الطلبة وأصدقاءهم يدعون للعشاء مرة كل أسبوع مع أعضاء هيئة التدريس.. وتوضح الدعوة أن هذا العشاء مجاناً للطلبة وأصدقائهم!!..

● كلية [نيونهام كولدج].. مرحلة الصحو مرة أخرى فى حياة جامعة كمبريدج.. فبعد ٦٩ سنة من عدم إنشاء كليات جديدة فى الجامعة؛ تنشأ ٣ كليات أخرى فى خلال ١٣ سنة فقط.. فبعد كلية [جيرتون كولدج] بعامين فقط تنشأ كلية [نيونهام كولدج] عام ١٨٧١.. وفى الوقت الذى لم تكن فيه نساء ذلك العصر يجرؤن على الالتحاق بالجامعات؛ أنشئت كلية [نيونهام كولدج] لتكون أول كلية نسائية قاصرة على الطالبات فقط فى تاريخ جامعة كمبريدج، لتشجيع النساء على الالتحاق بالدراسة الجامعية.. ويبدو أنه قد حدثت محاولات عديدة لإلحاق الطلبة الرجال بكلية [نيونهام كولدج]، كانت آخرها عام ١٩٧٧، لكن كل هذه المحاولات كانت نتيجتها أن ظلت [نيونهام كولدج] كلية حريمى لا يسمح للرجال بالإقتراب منها.. ويبلغ عدد طالباتها الآن ٣٥٠ طالبة فى المرحلة الجامعية + ٥٠ فى مرحلة الدراسات العليا، بعضهن يقمن بالتدريس لطالبات المرحلة الجامعية فى نفس الوقت الذى يقمن فيه بأبحاثهن للماجستير والدكتوراة..

● كلية [سيلوين كولدج] هى الكلية الرابعة التى أنشئت خلال القرن التاسع عشر، فقد أنشئت عام ١٨٨٢ (نفس عام الإحتلال الإنجليزى لمصر!!).. تخليداً

لذكـرى «جورج أوجسـطس» أول أسـقف لنيوزيلاندا، ولكى تـدرس فيها مبادئ كنيسـة إنجلترا.. لكنها منذ عام ١٩٥٧ بدأت تقبل الجنسـين معاً للالتحاق بها.. وتضـم الآن ٦٠ طالباً وطالبة فى مرحلة الدراسـات العليا + ٣٣٠ طالباً وطالبة فى المرحلة الجامعية..

● كليـة [هيـوز هول كولدج].. أول كلية من كليات جامعة كمبريدج تنشـأ لغرض إلحاق طلبة الدراسـات العليا فقط.. أنشـئت عام ١٨٨٥ لتكون الكلية الخامسـة والأخيرة التى تنضم إلى جامعة كمبريدج خلال القرن التاسع عشر.. وهى تضم الآن ١١٠ طلاب وطالبات يدرسون لدرجة الماجستير والدكتوراة..

● كلية [نيو هول كولدج].. ويأتى القرن العشرون ويمضى نصفه الأول كاملاً تقريباً بـلا كلية واحدة جديدة فـى جامعة كمبريدج؛ ثم تعود فترة الصحو مرة أخرى إلى الجامعة فيتوالى إنشـاء الكليات الجديدة بها.. وقبل أن تمضى ٢٨ سـنة من بداية النصف الثانى من القرن العشـرين تكون ١٠ كليات جديدة قد انضمت إلى جامعة كمبريدج.. أولاها [نيو هول كولدج] التى أنشئت عام ١٩٥٤، لتكون ثالث مستعمرة نسـائية فى جامعة كمبريدج تحتلها النسـاء فقط.. وهى تضم ٣٠ طالبة فى مرحلة الدراسات العليا + عشرة أضعافهن بالضبط (٣٠٠ طالبة) فى المرحلة الجامعية..

● كلية [تشرشـل كولدج].. أنشـئت عام ١٩٥٩ تكريماً لـ«سير ونستون تشرشل» رئيـس وزراء إنجلترا خلال الحرب العالمية الثانية.. وهى كلية مختلطة طلبتها من الجنسين.. منهم ٢٠٠ فى مرحلة الدراسات العليا + ٣٧٠ فى المرحلة الجامعية..

● كليـة [داروين كولـدج].. ويبد أنه قد حدث فـى أوائل السـتينات من القرن الماضى – القرن العشرين – حدث تدفق طلابى على جامعة كمبريدج، فى مرحلة الدراسات العليا بالذات، كان نتيجته إنشاء خمس كليات جديدة متالية فى خلال ٣ أعوام فقط: من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦، خصصت جميعها لطلبة وطالبات الدراسـات العليـا فقط.. كانت أولاها كليـة [داروين كولدج] عـام ١٩٦٤، التى تعاونت فى إنشائها ثلاث من شقيقاتها الأقدم فى تاريخ جامعة كمبريدج، هى كليات [كونفيل

كولــدج] و[جايوس كولدج] و [ســانت جونز كولدج].. وقــد حملت كلية [داروين كولدج] اسم واحــد من أبـرز خريجى جـامعة كمبريدج هـو العالم الشهير «داروين» صاحب نظرية (النشوء والارتقاء) وكتاب (أصل الأنواع).. وكان المفروض أساساً أن تضم ٤٠ دارســاً فقط؛ لكنها حتى عام ١٩٨٠ كانت قد توســعت كثيراً حتى إنها قبلت عشــرة أضعاف ذلك الرقم، ليصبح عدد طلبتها ٤٠٠ طالب وطالبة جاءوا من ٤٤ دولة من دول العالم..

● كلية [ســانت إدموندز هاوس].. أنشــئت عام ١٩٦٥ لطلبة الدراسات العليا فقط أيضاً.. وهى كلية صغيرة مختلطة من الجنسين تكاد تكون كلية عائلية، لأن زوجات الطلاب وأزواج الطالبات يعتبرون أعضاء فعليين فى أســرة الكلية ويشــتركون فى كل أنشطتها..

ولأنهــا كلية عائلية فقد فتحــت مؤخراً باباً صغيراً جداً لقبول عدد محدود جداً من طلبة وطالبات المرحلة الجامعية.. لكنها اشترطت فيهم شرطاً ظريفاً جداً وغريباً جداً أيضاً: هو ألا تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة!!..

● كلية [ولفســتون كولدج].. أنشــئت عام ١٩٦٥ أيضاً، ولطلبة الدراســات العليا كذلك.. وأطلق عليها عند إنشــائها اســم [يونيفيرسيتى كولدج]، ثم حملت اسمها الحالى [ولفســتون كولدج] إبتداء مــن عام ١٩٧٣.. وهى أيضــاً فتحت باباً صغيراً مؤخراً لقبول عدد محدود من طلاب المرحلة الجامعية عددهم ٤٠ فقط، بينما يبلغ عدد الملتحقين بالدراسات العليا ٢٤٠ طالباً وطالبة..

● كلية [لوســى كافينديش كولدج].. ثالث كلية تنشــأ فى خلال نفس العام: ١٩٦٥، ورابــع كلية فــى جامعة كمبريدج تقبل الطالبــات فقط. ليس ذلك فقط؛ إنما يشــترط أيضــاً ألا يقل عمر الطالبة عن ٢٥ ســنة، على الرغــم من أنها تضم ٥٠ طالبــة فى المرحلة الجامعية المفروض أنهن جميعاً لم يحصلن على الليســانس أو البكالوريوس بعد، بينما متوسط السن الذى تحصل فيه الفتاة – إنجليزية كانت أو مصرية أو من أى جنســية أخرى – على شــهادة الليسانس أو البكالوريوس هو ٢١ سنة أو ٢٢ سنة على الأكثر!!..

علـى العـموم؛ فهناك ٢٠ طـالبة أخـرى فى مرحلة الدراسـات العليا فى كلية [لوسـى كافيديـش كولدج]، ليصبح عـدد الطالبات جميعهـن ٧٠ طالبة فقط فى المرحلتين الجامعية والعليا..

● كلية [كلير هول كولدج].. ثانى كلية فى تاريخ جامعة كمبريدج، التى أنشـئت عام ١٣٢٦، تحمل نفس الاسم: [كلير كولدج].. وهى التى أنشأت أختها الصغرى – أو لعلهـا حفيدتها الصغرى – كلية [كلير هـول كولدج] عام ١٩٦٦، يعنى بعد ٦٤٠ سـنة من وجود الكلية القديمة.. الكلية الجديدة مختلطة تضم الجنسين معاً، وأيضاً لطلبة الدراسات العليا فقط..

● كليـة [فيتز ويليام كولدج].. أنشـئت أساسـاً فـى القرن الثامن عشـر فى عام ١٨٦٩، لغرض إسـكان ورعاية الطلبة الفقراء الذين لا يستطيعون الالتحاق بكليات جامعة كمبريدج ذات المصروفات.. ثم تحولت عام ١٩٦٦ إلى كلية مستقلة مختلطة للجنسـين تضم ٧٠ من طلبة وطالبات الدراسـات العليا + ٣٦٠ من طلبة وطالبات المرحلـة الجامعيـة.. ولو أنها لازالت تحاول حتى الآن، بقدر الإمكان، أن تحتفظ بنفس التقليد فى رعاية وقبول الطلبة المتازين الذين تنقصهم الإمكانيات المادية..

● كلية [روبنسون كولدج].. هى أول كلية من كليات جامعة كمبريدج تنشأ مفتوحة الأبواب بلا قيود.. فهى تقبل الطلاب من الجنسـين أساساً، وللمرحلتين فى نفس الوقت: المرحلة الجامعية ومرحلة الدراسات العليا.. أنشأها «ديفيد روبنسون» الذى تحمـل اسمه، وفتحت أبوابها للطلاب عام ١٩٧٧ بالرغم من أن مبانيها لم تكتمل تمامـاً إلا فى عام ١٩٨٠.. ولأنها أحدث كليات جامعة كمبريدج على الإطلاق لذا فهى مبنية على أحدث طرز الجامعات الحديثة وبها كل الخدمات التى تحتاجها كلية جامعية..

* * *

أتصـور أنه قـد نالكم التعب من القراءة نفس ما نالنى من التعب من الكتابة عن جامعة كمبريدج.. لكننى بالفعل قد اسـتمتعت بجامعة كمبريدج اسـتمتاعاً كاملاً

ثلاث مرات: مرة فى زيارتى للجامعة وكلياتها المختلفة، ومرة فى لقائى بعدد كبير من طلابها والدارسين المصريين والعرب بها، والمرة الثالثة بقراءتى لتاريخ مدينة كمبريدج وجامعة كمبريدج وكلياتها؛ حتى تمنيت لو أننى كنت واحداً من طلبتها أو خريجيها، وحتى حسدت طلبتها الحاليين وتمنيت لو أن يكونوا فعلاً يشعرون بأهمية الجامعة التى يعيشون فيها الآن أجمل أيام العمر: أيام الصبا والشباب وأيام الدراسة فى الجامعة..

ولست أظننى كنت قادراً على أن أضع على الورق كل ماعرفته وكل ما قرأته عن جامعة كمبريدج وإلا احتاج الأمر إلى مئات من صفحات هذا الكتاب قد تصلح كتاباً مستقلاً.. لذا فإننى أضع فى نهاية هذا الفصل عنوان جامعة كمبريدج نفسها، للقراء الذين قد يحتاجون إلى أى معلومات أخرى عن جامعة كمبريدج أو السبيل للالتحاق بأية كلية من كلياتها، ليكتبوا إليها مباشرة للاستفسار عن أية معلومات أخرى يريدونها.. ولعل الأسهل من ذلك أن يطلبوا (الكتاب السنوى) الذى تصدره الجامعة ويضم كل المعلومات عن كليات الجامعة المختلفة وشروط الالتحاق بها وفروع الدراسة المختلفة الموجودة فى ثانى أشهر جامعة فى العالم بعد جامعة أوكسفورد وقبل جامعة هارفارد..

* * *

وكنت قد تلقيت فى بريدى اللندنى عدداً من رسائل القراء والمستمعين الذين عرفوا عنوانى فى لندن من إذاعة الشرق الأوسط التى كنت أقدم فيها برنامجاً اسبوعياً بعنوان (حسين قدرى يحييكم من لندن)، يطلبون منى أن ألقى بعض الضوء على نظام المنح التى تقدمها بعض الجامعات البريطانية إلى الطلاب الأجانب، ومنهم الطلاب المصريون والعرب بطبيعة الحال.. وحملت حصيلة هذه الأسئلة والاستفسارات إلى الملحق الثقافى المصرى فى لندن، وقتها، الدكتور «هشام مخلوف»، الذى أوضح لى، وللقراء والمستمعين، الصورة:

– نظراً للظروف الإقتصادية الصعبة التى تمر بها بريطانيا فى الوقت الحالى؛ فإن عدد المنح التى تقدمها الجامعات البريطانية للطلبة الأجانب – غير الإنجليز

– قد انخفض كثيراً جداً فى السنوات الأخيرة.. والمنح تقدمها الحكومة البريطانية عـادةً من خلال (المجلس البريطانـى) أو (The British Council)، الذى يوزع هذه المنـح – القليلة جداً أصلاً – على الجهات المختلفة كالجامعات ومراكز البحوث وما أشـبه ذلك، فى الدول الأجنبية.. وتكون فى أغلبها منحاً تدريبية لمدد قصيرة وليسـت للحصول على درجتى الماجستير أو الدكتوراة.. وهى توزع للجهات وليس للأشخاص.. بمعنى أن كل مؤسسة تعليمية هى التى توفد بمعرفتها الأشخاص من العاملين فيها الذين ترى أنها فى حاجة إلى إيفادهم للتخصص، حسب احتياجاتها هى..

النوع الآخر من المنح تقدمه بعض الجامعات البريطانية.. وهى منح لها ظروفها الخاصة.. فبعض الشركات الكبيرة ليست لديها إدارات بحوث خاصة بها، فتقدم مبلغـاً ما لإحدى الجامعات الإنجليزية لكى يقوم الدارسـون بهذه الجامعة بإجراء بحثٍ ما معين تحتاجه هذه الشـركة فى مدى سـنتين أو ثلاث سـنوات أو أربع، حسب ظروف الشركة.. وبالتالى تقسم الجامعة هذا المبلغ بحيث يكفى لتقديم عدد من المنح لعدد من الباحثين أو الدارسين يشتركون فى إجراء هذا البحث، كل منهم يقوم بدراسـة نقطة معينة أو جزء معين منـه.. وفى هذه الحالة تعلن الجامعة عن هذه المنح لدراسـة الدكتوراة بحيث تحدد الجامعة موضوع البحث الذى سـيجريه الدارس ولا يكون ذلك متروكاً لرغبة أو قرار الدارس نفسـه.. بحيث يخدم البحث فى النهاية الجهة أو الشركة التى أنفقت أصلاً على دراسة الدارس أو المبعوث..

وفـى هذه الحالة تخاطب الجامعات البريطانية مكاتـب البعثات الأجنبية فى بريطانيا، كمكتب البعثات المصرى أو السـورى أو السـودانى، إلخ.. وترسل إلينا الشـروط التى تتطلب هذه المنح توفرها فى الدارس المطلوب ترشـيحه لهذه المنحة أو تلـك.. ومن ناحيتنا نحن؛ فمن باب التوفير علـى حكومتنا فإننا نبحث ما إذا كانت هذه الشـروط ممكن أن تنطبق على أى عدد من المرشـحين أصلاً لبعثات من مصر على نفقة الدولة، ونضعهم على هذه المنح، حتى يمكن أن نسـتفيد من الوفر

الـذى سـيحدث فى ميزانية البعثات نتيجة ذلك؛ فـى إيفاد عدد آخر غيرهم من المبعوثين المصريين للدراسة على نفقة الدولة..

وفى خـلال وجودى كملحق ثقافى فى لندن خـلال الأعوام الأربعة الأخيرة لم يكن نصيب مصر – على سبيل المثال – من هذا النوع من المنح سوى منحتين فقط كل سنة من هذه السنوات الأربع..

ويستطرد الدكتور «هشام مخلوف» الملحق الثقافى المصرى فى لندن:

– النـوع الثالـث من المنح جاء نتيجة الارتفاع الباهظ في المصروفات الدراسـية بالجامعـات الإنجليزية فـى الوقت الحالى؛ مما جعل كثيراً من الدول غير الغنية، مثـل مصر، تعلن أننا سـوف نضطر إلى تقليل عدد مبعوثينـا إلى بريطانيا نتيجة ارتفاع المصروفات.. لذا فقد اجتمعت اللجنة البريطانية التى تعادل [المجلس الأعلى للجامعـات] فى مصـر، وتم الاتفاق على أن تقدم الحكومـة البريطانية نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ منحة كل سـنة للدول النامية.. لكنها ليست منحاً كاملة تغطى كل نفقات المبعوث مثلما كان الحال فى الماضى؛ لكنها فقط تغطى (فارق المصروفات الدراسية) التـى يدفعها الطالب الأجنبى زيادة عمـا يدفعه زميله الطالب الإنجليزى.. وعلى سبيل المثال فإنه إذا كان الطالب الأجنبى يدفع ٤ آلاف جنيه إسترلينى فى السنة، بينمـا يدفع الطالب الإنجليـوى ١٠٠٠ جنيه فقط؛ فإن هذه المنحة تجعل الطالب الأجنبـى يدفع ١٠٠٠ جنيه فقط مثله مثـل الطالب الإنجليزى.. وفى هذه الحالة يكون قد وفر على دولته ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى فى السنة الدراسية الواحدة..

ونرسـل نحن – المكتـب الثقافى المصرى فى لنـدن – إلى الجامعات المصرية لنخطرهـا بهـذه المنح، ونطلب منها ترشـيح مـن تراهم جديرين بهـذه المنح من المرشـحين للبعثـات أصلاً.. وترسـل الجامعـات المصرية أسماء هؤلاء الدارسـين المرشـحين وبياناتهم إلى المجلس الأعلى للجامعات الإنجليزية، ليختار من بينهم العدد الذى يريده..

ونصيب مصر من هذه المنح يتزايد باسـتمرار عاماً بعد عام.. فقد كان منذ عامين ٢٠ منحة فقط؛ وفى العام الماضى حصلنا على ٩٠ منحة.. وهو رقم كبير بالنسـبة

لدولــة واحدة تحصل عليــه من بين ٥٠٠ أو ٦٠٠ منحة.. وفــى هذه الحالة تكون المنحة شخصية باسم الدارس الذى فاز بها..

وفى حالة فوز طالب مصرى بهذه المنحة فإنه يكون قد وفر على الدولة فى مصر نحو ثلثى نفقات البعثة، وأحياناً أكثر.. لذا فإن الدولة فى مصر قررت أن تصرف مكافأة قدرها ٥٠٠ جنيه إسترلينى فى السنة للطالب الذى يفوز بهذه المنحة..

وإذا نظرنــا إلى أن عـدد المبعوثــين المصريين فى إنجلترا الآن هو ٥٠٠ مبعوث؛ فسنجد أن الـ ٩٠ مبعوثاً مصرياً الذين فازوا بهذه المنح يمثلون نحو ٢٠٪ من مجموع المبعوثين كلهم..

* * *

ولم يكــن ممكنــاً أن أذهب إلى كمبريــدج وأعود منهــا دون أن التقى بالطلاب العــرب بها.. تلك مســألة طبيعية تماماً.. أما الذى لم يكــن طبيعياً فى تقديرى؛ فهو أنه على رغم الشــهرة التى تتمتع بها جامعة كمبريدج فى العالم العربى كله؛ ولمعرفتــى أن عدد الطلاب العرب الذين يدرســون فــى جامعات بريطانيا يزيد عن ١٠ آلاف طالب؛ ولو أن هؤلاء الـ ١٠ آلاف طالب عربى قد قســموا بالتساوى على الـ ٣٥ جامعة المنتشــرة فى أنحاء بريطانيا؛ فإن نصيب كل جامعة منها ســيكون حوالى ٢٨٥ طالباً.. لكننى مع ذلك فقد تصورت أن نصيب جامعة كمبريدج – هى وشــقيقتها الكبرى جامعة أوكســفورد – سيكون نصيب الأســد تبعاً لشهرتهما فى العــالم أجمع وفى العالم العربى بالذات الذى يكاد لا يعرف غيرهما من الجامعات الإنجليزيــة.. لكننى فوجئت بأن عدد الطلاب العرب فى جامعة كمبريدج لا يكاد يبلغ ثلث هذا الرقم أصلاً!!..

* * *

الطبيــب الســعودى «إبراهيم صقر الحســن» يدرس فى جامعــة كمبريدج منذ ما يقــرب مــن ســنة الآن، ويبقى أمامه ســنتان أخريان حتى ينتهى من رســالة الدكتوراه فى (علم الحداثة).. حكى لى الدكتور «إبراهيم صقر» عن شعارات كليات جامعة كمبريدج:

– كل كليـة مـن كليات جامعة كمبريدج لها شـعار أو (بـادج) تتميز به ويدل عليهـا، بالإضافـة إلى أنه للجامعة كلها شـعار واحد أو (بادج) واحد، هو رسـم لكتاب مقفول.. نفس الشـيء بالنسبة لجامعة أوكسـفورد الشقيقة الكبرى لجامعة كمبريدج.. لكن رمز جامعة أوكسـفورد هو كتاب مفتوح.. والمنافسـة التقليدية بين الجامعتـين العريقتين جعلت المداعبـات بينهما تصل إلى أن طلبة جامعة كمبريدج أطلقوا تشـنيعة بأن جامعة أوكسفورد قد اختارت رسم الكتاب المفتوح رمزاً لها لأن طلبة جامعة أوكسـفورد يعانون من بطء فى الفهم جعل الكتاب بين أيديهم مفتوحاً إلى الأبد لا ينتهى أبداً!!.. ورد طلاب جامعة أوكسفورد على التشنيعة بمثلها تقول إن رمـز جامعة كمبريدج هو كتـاب مقفول لأن طلبتها يتخرجون منها كما دخلوها لا يفتحون كتبهم ولا يستفيدون منها!!..

والتشـنيعتان كمـا ترى – ياعزيـزى القارئ المصرى والعربـى – واضح فيهما مسـتوى التنكيت الإنجليزى وخفة الـدم الإنجليزية التى تتواءم كثيراً مع حالة الطقس هناك!!..

* * *

الطبيـب المصـرى الدكتور «محمد رأفـت خلف» المدرس المسـاعد بكلية الطب بجامعـة أسـيوط؛ عضو بعثة هنا فى كمبريدج للحصول علـى درجة الدكتوراة فى (التحاليل الطبية)؛ لكنه بعد أن يحصل على الدكتوراة ويعود إلى مصر سوف يعين مدرسـاً فـى كلية الطب جامعة المنوفية التى أوفدته فـى البعثة.. الدكتور «رأفت» الذى بدأ دراسـته فـى كمبريدج منذ سـنتين ويبق أمامه سـنتان أخريان قبل أن يحصل على درجة الدكتوراة؛ كان دليلى فى زيارتى لكمبريدج وجامعة كمبريدج، هو وزميليه المبعوثين المصريين أيضاً: الطبيب «عماد الدين نافع» والمهندس «فهمى فتح الباب»..

قال لى الدكتور «رأفت» إن جامعة كمبريدج تضم ٢٣ نوعاً من الدراسات الأكاديمية تشمل ٥٠ قسماً.. فمثلاً (الطب) هنا نوع واحد من الدراسة، لكن يتفرع منه أقسام:

التشـريح والميكروبيولوجى والجراحة والتحاليل، وهكـذا.. وأن فى بريطانيا كلها ٣٥ جامعة موزعة ومنتشرة فى جميع أنحاء بريطانيا، لكن أشهرها جميعاً جامعتا أوكسفورد وكمبريدج، لأنهما أقدم جامعتين، فعمر كل منها أكثر من ٧٠٠ سنة..

وجامعـة كمبريـدج متغلغلة تماماً فى المدينة – يسـتطرد الدكتور «محمد رأفت خلف» – فتخيل ٣٠ مدينة جامعية صغيرة + ٥٠ مبنى للأقسـام أو الدراسات + مبانـى الإدارة والمعامل والمكتبات والملاعب الرياضيـة؛ مبعثرة جميعها فى أرجاء المدينة التى هى صغيرة أصلاً – ١٠٠ ألف نسـمة فقط – فنسـتطيع أن نقول: إن المدينة قائمة حول الجامعة أو إن الجامعة موجودة فى كل المدينة.. لذا يطلق على مدينة كمبريدج (المدينة الجامعة)، وذلك صحيح فعلاً..

وفـى جامعة كمبريدج ٩٠٠٠ طالب وطالبة يدرسـون للحصول على الليسـانس أو البكالوريـوس + ٣٠٠٠ طالـب وطالبـة لمرحلة الدراسـات العليا: الماجسـتير والدكتـوراة، من كل أنحـاء العالم.. والمفروض أنهم جميعـاً يقيمون داخل كردون المدينـة بحيث لا يبعد سـكن الواحد منهم عـن المدينة بأكثر من عشـرة أميال.. والغرض من ذلك توفير مشـقة الانتقال على الدارس لكى يعطى كل وقته للدراسـة والتحصيل أولاً، ثم معايشة الحياة فى الجامعة معايشة كاملة ثانياً.. لأن الجامعة هنا ليست مجرد مكان لتحصيل العلم فقط وإنما هى حياة اجتماعية كاملة..

والجامعة تدبر لطلبتها الـ ١٢٠٠٠ جميعاً مسـألة الإقامة والسـكن.. فبالإضافة إلى الـ (كليـة) – التى اتفقنا على أنها هـنا هى ما نطلـق عليه فى بلادنا (المدينة الجامعية) – التى يوجد منها ٣٠ مدينة جامعية فى كمبريدج، تسـتوعب النسـبة الأكـبر من الطلاب؛ فإلى جانـب ذلك فإن الجامعة بها مكتـب خاص لديه بيان بالأسـر والعائلات الإنجليزية التى تسـكن فى مدينة كمبريدج ولديها الاسـتعداد لاسـتضافة طلاب وطالبات للإقامة لديها عنـد تعذر إيجاد أماكن لهم داخل المدن الجامعية.. وفى الحالتين فالفرصة متاحة أمام الطالب أو الطالبة لمعايشـة ومعاشرة والاحتـكاك بالحياة الإنجليزية اليومية، سـواء داخل المدن الجامعية أم فى بيوت الأسر الإنجليزية..

والمبعـوث الذى معه أسـرته: زوجـة، أو زوجة وأطفال؛ فـإن الجامعة تعطيه شـقة مناسبة كاملة تتسع للأسرة بشكل مريح جداً.. والعَزَب الذى يسكن فى شقة من حجرة واحدة داخل المدينة الجامعية يدفع ٦٠ جنيهاً شـهرياً، والمتزوج الذى يسكن فى الجامعة يدفع ١١٠ جنيهات فى الشهر.. أما إذا سكن كل منهما خارج الجامعة فإن هذه الإيجارات تزيد بنسـبة ٥٠٪ تقريباً.. والمبعوث المصرى الأعزب يتقاضـى مـن مكتب البعثـات المصرى فى لنـدن مرتباً قدره ٢٦٠ جنيهاً شـهرياً – إسـترلينياً طبعـاً – فإذا كان متزوجاً تقاضى زيـادة قدرها ٣٠٪ للزوجة + ١٠٪ لـكل طفل من أطفالـه الموجودين معه فى إنجلترا.. وغير مصاريف الدراسـة التى تدفعهـا عنه الدولة فـى مصر للجامعة هنا؛ فإن الدولة فـى مصر تدفع عنه أيضاً ٩٥٠ جنيهاً سنوياً رسوم المدينة الجامعية فى مقابل الأنشطة والرحلات والحفلات والرعاية الاجتماعية والصحية وما إلى ذلك..

* * *

الطبيـب الأردنى «نايف عقل» مبعوث إلى جامعة كمبريدج للحصول على درجة الدكتوراة فى (علم الأمراض).. سـألته مندهشاً: «يعنى إذا كنت أنا مريضاً بماذا، أذهـب إليك لتعالجنـى!؟».. وفزعت حـين عرفت أننى لكى أذهـب إليه لكى يفحصنى لابد وأن أكون (مرحوماً) وليس مريضاً فقط؛ لأنه يدرس تشـريح الموتى لتشـخيص الأسـباب التى أدت إلى وفاتهم!!.. يعنى ما هـو معروف بالـ (طبيب الشرعى)، وقانا الله وإياكم شرف المثول بين يديه..

قال لى الطبيب الأردنى «نايف عقل»:

– أنا أعتبر نفسى محظوظاً لأننى جئت للدراسة فى جامعة كمبريدج؛ والدراسة التى أدرسها فى القسم مستواها ممتاز جدًا..

ويشـرح لى الدكتور «عقل» السبب فى أن بعض الدول العربية لا ترسل مبعوثيها ليـس فقط إلى جامعـة كمبريدج ولكن إلى إنجلترا كلها؛ فيقـول: إن دول الجزائر وتونس والمغرب بسـبب الاسـتعمار الفرنسـى لها فإنهم قد تعلموا اللغة الفرنسـية

وأصبحت هى لغتهم الأوروبية الأولى؛ لذا فإنه من الأسهل لهم أن يستمروا فى الدراسات العليا بنفس اللغة فى فرنسا وليس فى إنجلترا.. لأنهم لو جاءوا إلى إنجلترا فسوف يضطرون إلى تعلم لغة جديدة عليهم تماماً هى اللغة الإنجليزية، وحتى إذا فعلوا ذلك فلن يصلوا فيها إلى الدرجة التى تمكنهم من الاستمرار فى الدراسة بها للمرحلة العليا..

وعدد المبعوثين العرب فى جامعة كمبريدج نحو ١٠٠ مبعوث فقط.. جميعهم يدرسون للمرحلة العليا وليس بينهم من يدرس للمرحلة الجامعية..

ويشرح لى الدكتور «عقل» مسألة كانت جديدة على معلوماتى تماماً، فيقول:

- توزيع السكان فى الأردن غريب إلى حدٍ ما.. فإن أكثر من ٥٠٪ من تعداد السكان أعمارهم نحو ١٥ سنة.. لذا فإن عدد الطلاب الذين يحصلون على شهادة التوجيهية كبير جداً لا تستوعبه الجامعات الست فى الأردن: ٣ فى الضفة الشرقية و٣ فى الضفة الغربية.. لذا يتجه عدد كبير منهم لدراسة المرحلة الجامعية خارج الأردن.. وفى رومانيا وحدها على سبيل المثال نحو عشرة آلاف طالب أردنى يدرسون للمرحلة الجامعية وليس للدراسات العليا، وعدة آلاف أخرى فى تركيا وفى ألمانيا وفى أسبانيا.. لكنهم جميعاً يدرسون على نفقة أسرهم وليس على نفقة الدولة الأردنية، لأن الدولة فى الأردن لا تستطيع أن تتحمل نفقات دارس المرحلة الجامعية الذى يدرس خارج الأردن ويكفيها تحملها لنفقات مبعوثيها للدراسات العليا..

* * *

المبعوث السودانى «إبراهيم موسى محمد» لم يبق أمامه فى جامعة كمبريدج إلا شهور قليلة حتى يحصل على درجة الدكتوراة فى علم الآثار.. وهو على رغم أنه سودانى ومبعوث من جامعة الخرطوم إلا أنه متخصص فى الآثار المصرية.. وقد أمضى فى دراسته للدكتوراة خمس سنوات حتى الآن، لكنها لم تكن كلها فى داخل جامعة كمبريدج؛ فقد أمضى منها سنتين فى السودان لكى يتابع الاكتشافات

الأثريـة الجديدة.. وعند عودته إلى جامعـة كمبريدج أحضر معه مواد أثرية (آلات حجرية) لتحليلها هنا، على أن تكون (عهدة) يعيدها معه إلى السودان بعد الانتهاء مـن بعثته.. وبعد أن يعود من البعثة ومعه الدكتوراة، والعهدة، سـيكون عليه أن يقوم بالتدريس فى جامعة الخرطوم لمدة ٦ سـنوات أخرى فى مقابل النفقات التى أنفقتها الدولة فى السودان عليه حتى حصل على الدكتوراة..

يحكى لى الدكتور السودانى – على اعتبار ما سيكون بإذن الله – «إبراهيم موسى محمـد»؛ أن فى السـودان الآن ٨ جامعات: جامعة الخرطـوم + جامعة أم درمان الإسـلامية + جامعـة القاهرة فـرع الخرطوم + كلية الأحفـاد الجامعية + جامعة الجزيرة + جامعة جوبا + جامعة دارفور – تحت الإنشاء، وجامعة أخرى..

وحين سـألته عن سبب تسـمية (كلية الأحفاد) الجامعية بهذا الاسم الغريب؛ شرح لى أن الشيخ «بابكر البدرى» كان قد بدأ يدرس لأحفاده – الصبيان والبنات طبعاً – حين بلغوا سـن المدرسـة؛ بدأ يدرس لهم مناهـج المرحلة الابتدائية، ثم المرحلـة الثانويـة، وأخيراً للمرحلـة الجامعية أيضاً للدراسـات النظرية فقط.. ثم انفتحت كلية للدراسات النظرية فى أم درمان لكل الطلاب والطالبات السودانيين وليـس لأحفاد الشـيخ « بابكر البدرى » فقط، لكنهـا ظلت مع ذلك تحتفظ بنفس الاسم!!..

لعله حين يصل هذا الموضوع إلى يد القارئ منشـوراً؛ أن يكون الطبيب العراقى «عبـاس ناجى» قد حصـل على درجة الدكتوراة فعلاً من جامعة كمبريدج وعاد إلى وطنـه العراق وعاد إلى التدريس فى كلية الطب بجامعة بغداد التى تخرج منها فى الأصل والتى أوفدته فى هذه البعثة..

يحكـى لى الطبيب العراقى «عباس ناجى» أن المبعوثين العراقيين للدراسـة فى بريطانيا كانوا رقم ٢ من ناحية الـ (كم) بالنسبة لمبعوثى الدول العربية؛ لكن نظراً لظـروف الحرب الآن فقد انخفض عدد المبعوثـين العراقيين – ضغطاً للمصروفات – إلى ٤٠٠٠ طالـب عراقى فقط فـى بريطانيا الآن للمرحلتـين الجامعية والعليا..

طلبة المرحلة الجامعية يدرسون على نفقة أسرهم، أما طلبة الدراسات العليا فعلى نفقة الدولة.. لكن بشكل عام فإن الطلبة العراقيين للمرحلة الجامعية الذين لا يجدون لأنفسهم أماكن فى جامعات العراق يذهبون للدراسة فى جامعات اليونان بالذات لسببين: السبب الأول هو أن اليونان هى أقرب دولة أوروبية إلى العراق، والسبب الثانى هو أن الدراسة فى جامعات اليونان مجانية بعكس بريطانيا باهظة المصروفات: ٥٠٠٠ جنيه إسترلينى لدراسة العلوم، و ٦٠٠٠ جنيه لدراسة الطب + ٩٥٠ جنيها لكل منهما كمصاريف الكلية أو المدينة الجامعية..

والمبعوث العراقى بعد أن ينتهى من بعثته عليه أن يعمل فى خدمة الدولة مدة تساوى ضعف مدة البعثة.. بمعنى أنه إذا قضى فى البعثة خمس سنوات حتى حصل على درجة الدكتوراة؛ فعليه أن يقضى ١٠ سنوات فى التدريس فى الجامعات العراقية بعد عودته من البعثة..

ويستطرد الطبيب العراقى «عباس ناجى»:

– زمان كانت هناك إغراءات مادية وأدبية لإغراء المبعوثين العرب الذين ينتهون من دراساتهم هنا للبقاء فى إنجلترا للاستفادة من الخبرات التى اكتسبوها ولأن بريطانيا كانت فى حاجة إليهم، أما الآن فذلك غير وارد نظراً لأزمة البطالة الخانقة فى بريطانيا الآن؛ التى جعلت عدة آلاف من الأطباء وعدداً كبيراً من أساتذة الجامعات الإنجليز أنفسهم متعطلين عن العمل.. وبالتالى لم يعد هناك مبرر الآن لإغراء الدارسين العرب على البقاء فى بريطانيا بعد انتهاء دراستهم؛ بل إن العكس هو الصحيح؛ وهو إغراؤهم وترغيبهم فى العودة إلى بلادهم بأقصى سرعة.. فحكاية (هجرة العقول) أو (هجرة الأدمغة) كانت زمان وليس الآن.. ويكفى أن تعرف أن فى مدينة [ميتشيجان] فى أمريكا وحدها ٣٠ ألف عراقى يعيشون فيها، سواء كانوا من الذين درسوا فى جامعة ميتشيجان نفسها أم فى أى جامعة أخرى، لأن الوضع والظروف فى أمريكا تختلف!!..

* * *

أغلب الدارسين العرب فى جامعة كمبريدج يدرسون الطب.. فإن ٩٠ ٪ ممن قابلتهم يدرسون للحصول على درجة الدكتوراة فى الطب.. منهم الطبيب المصرى «عماد الدين محمد نافع» الذى يدرس هنا منذ سنتين وباقٍ أمامه ٣ سنوات أخرى حتى يحصل على درجة الدكتوراة ليعود إلى مصر مدرساً فى كلية الطب بجامعة المنوفية..

قال لى الطبيب «عماد الدين نافع»:

– على الطالب الذى يريد أن يأتى ليدرس فى جامعة كمبريدج أن يتقدم بطلبه لجهتين فى نفس الوقت: للكلية التى سوف ينتسب إليها ويعيش وينام فيها؛ وطلب آخر لفرع الدراسة الذى يريد أن يدرسه..

والفرق بين المدينة الجامعية فى مصر والكلية هنا هو أن المدينة الجامعية فى مصر تابعة للجامعة كوحدة من وحداتها تتلقى منها التعليمات والأوامر، وموظفو المدينة الجامعية هم موظفون فى الجامعة يتقاضون مرتباتهم منها وممكن أن ينقلوا من المدينة الجامعية إلى أى مكان آخر فى الجامعة أو حتى إلى وزارة التعليم نفسها.. لكن الكلية هنا لا علاقة لها بالجامعة على الإطلاق ومستقلة عنها استقلالاً كاملاً فى كل شىء، والعلاقة بينهما كالعلاقة فى مصر بين هيئة السياحة ووزارة العدل مثلاً.. كل منها مستقل عن الآخر تماماً ولا علاقة له به.. الشىء الوحيد الذى يربط بين الجامعة والكلية هنا هو الطالب نفسه: الطالب الذى يقيم فى الكلية ويدرس فى الجامعة.. لكن، مع ذلك؛ فإن شرط قبول أى طالب فى جامعة كمبريدج هو أن تقبله كلية ما أولاً.. فإذا قبلته الجامعة ولم تقبله كلية ما فهو لا يعتبر مقبولاً للدراسة!!..

ليس ذلك فقط؛ بل لأن كل كلية مستقلة استقلالاً كاملاً عن أى كلية أخرى.. ولا تجمع كل الكليات إدارة واحدة ولا أى نوع من الربط. وهناك كليات غنية جداً بحكم الأوقاف الموقوفة عليها من الأثرياء، وكليات أخرى ليست على نفس القدر من الثراء، أيضاً بسبب قلة الأوقاف الموقوفة عليها من الأثرياء.. ولا علاقة

لذلك بالمصروفات التى يدفعها الطالب للكلية.

قلت للطبيب المصرى «عماد الدين نافع»:

● لكـن هنـاك طلبة فى جامعـة كمبريدج لا يسـكنون فى الكليـات، مثلك أنت مثلاً.. فأنت تسـكن فى بيت عادى فى شـارع عادى بعيد عن الكلية التى تنتسب إليها!؟..

– هـذا البيت، ومئات أخـرى من البيوت المتناثرة فى أنحاء مدينة كمبريدج؛ تابعـة للكليات المختلفة، والكلية هى التـى تعطينى هذا البيت وكأنه جزء منها، كل ما فى الأمر أنه خارج أسوار مبانى الكلية..

● وتظل مع ذلك تدفع مصاريف الكلية أيضاً، الـ ٩٥٠ جنيهاً!؟..

– طبعاً.. لأن هذه المصاريف هى للنشاط الرياضى والاجتماعى والثقافى وليست مصاريف إقامتى بالكلية.. بمعنى أن الطالب الذى يسكن داخل الكلية يدفع نفقات إقامته أيضاً.. وبالمناسبة؛ فجامعتى أوكسفورد وكمبريدج هما الجامعتان الوحيدتان فـى إنجلترا وفى العالم كله اللتان تتبعان هذا النظام الغريب.. لكنه على أى حال يميزهما..

● كـم تدفع إيجاراً لشـقتك التـى رأيتها أنا، والتى تتكون مـن غرفتى نوم وغرفة معيشة فى بيت قديم عادى جداً وبسيط جداً من بيوت مدينة كمبريدج!؟..

– أدفع ٢٥ جنيهاً و٥٥ بنساً كل أسبوع، يعنى نحو ١١٣ جنيهاً فى الشهر.. والشـقة التى تماثلهـا تماماً لكنها لا تتبع الكلية لا يقـل إيجارها عن ٢٠٠ جنيه فى الشـهر.. إذن أنا أوفر الكثير فى مقابل المبلغ الذى أدفعه كمصروفات للكلية.. الأكل فى مطعم الكلية لو كان يكلفنى جنيهاً ونصف الجنيه للوجبة؛ فنفس الوجبة بالضبط فى أى مطعم خارجى تكلف خمسـة أو سـتة جنيهات، ذلك بند آخر من بنـود التوفير.. وهناك بنود أخرى لتوفير النفقات يسـتفيد منها الطلبة الأوروبيون ولا نسـتفيد منها نحن الطلبة المصريين، غالباً، وهى أسـعار الخمور والمشـروبات الروحية وحفلات الرقص والديسـكو وما أشـبه.. فلا يمضى أسـبوع إلا وهناك

حفـلات راقـصة وسـهرات اجـتماعية من هذا النوع يسـيل فيهـا (المنكر) أنهاراً وبأسـعار رخيصة عـن الخارج كثيراً.. لكننا نحن الطلبـة المصريين، والحمد لله، لا نستفيد ولا نريد أن نستفيد، من هذه الميزة بالذات!!..

* * *

قلت للطبيب «عماد نافع»:

● منذ دقائق وأنا واقف فى أحد ممرات الكلية أتكلم مع بعض الطلبة العرب؛ مرت بنا فتاة أوروبية ترتدى بيجامة نوم وحافية القدمين.. قطعاً هى لم تجىء من بيتها للكلية حافية وبالبيجاما!!..

– طبعاً.. لأنها لم تجىء من بيتها أساسـاً.. لأننا خلاص اتفقنا أن الكلية هى بيتها الذى تقيم فيه، فهى الآن فعلاً فى بيتها..

● أفهم من ذلك أن الكلية الواحدة تضم طلاباً شـبانا وطالبات فتيات ينامون وينمن فى نفس المبنى!؟..

– طبعاً.. ولو أن هناك عددًا قليلا جداً من الكليات قاصر على الطالبات البنات فقـط، وعدد قليل جداً مـن الكليات قاصر على الطلبة الذكـور فقط؛ إلا أن معظم الكليات فيها الجنسـان معاً، يحيون حياتهم الكاملة تحت سـقف واحد.. بمعنى أن نتخيـل إحـدى المدن الجامعية فى مصر يعيش فيها الطلبة والطالبات فى نفس المبنى .. صحيح فى غرف مستقلة لكن ليس فى أجنحة مستقلة.. بمعنى أنه ليس هناك تحديد أو تخصيص لغرف البنات بعيداً عن غرف الصبيان.. فتجد أن الغرفة رقـم ٦ مثلاً فيها بنت والغرفة رقم ٧ التى تجاورها مباشـرة فيها ولد.. يعنى كده سايحين على بعض!!..

● هايل وعقبالنا، وياريت لو بأثر رجعى من سـنة ١٩٥٠.. وهل تسـتطيع البنت الطالبة المقيمة فى الكلية أن تسـتقبل «صديقها» الشـاب فى غرفتها، أو يستطيع الطالب أن يستقبل «صديقته» فى غرفته.. هل ذلك مسموح به!؟..

– طبعاً.. وفى منتهى الحرية..

● ولـو أرادت أن يقضى الليلة فى غرفتها أو أن تقضى الليلة فى غرفته !؟..

– هم أحرار طبعاً.. فليس هناك حد حاييجى يفتش عليهم..

● يا ســلام.. طول عمرى وأنا أقدس الحرية ومن أشــد أنصار الحرية، لكن للأسف فاتنى سن الالتحاق بجامعة كمبريدج الآن!!..

* * *

## برمنجهام.. العاصمة الإنجليزية رقم ٢.. المدينة التى أشهر أبنائها: مخترع.. ومفكر.. ومجنون!!

★ أشهر علماء برمنجهام هاجر إليها متعطلاً يبحث عن عمل!!

★ برمنجهام.. هدية من لورد إلى خادمه !!

★ لماذا أراد الملك «تشارلز الأول» أن يهدم برمنجهام!؟..

★ وراء كل مخترع عظيم، رجل مجنون!!..

★ صدق أو لا تصدق: بين المطار والمدينة: دقيقة ونصف فقط!!..

★ حذاء «برايان روبنسون» يساوى ٢ مليون جنيه!!..

★ ( عيد الحرائق) الذى تحتفل به بريطانيا كلها!!..

★ مسابقة سنوية فى برمنجهام: للرقص الشرقى!!..

★ يطلب يد حبيبته عن طريق إتحاد كرة القدم!!..

★ هل سيأتى اليوم الذى أكتب فيه كتاباً فى أدب الرحلات عن (برمنجهام اللى فوق)!!..

★ حين فوجئ «أنور» بأن الإنجليز يتكلمون اللغة الإنجليزية!!

★ المصرى أحمد.. فعل فى ٤ شهور ما عجز عنه الإنجليز فى ١٠ سنوات!!..

★ حضرة الضابط الصومالى الإنجليزى المسلم، طردنى من بيت الله!!..

★ أحمد محمود سيد عبد العال.. ومع ذلك فهو: طليانى!!

المدن كالنساء..

مدينة تشعر فيها كأنك بصحبة صبية فى السادسة عشرة، يا دوب تطرق أعتاب الأنوثـة، ولازالت تتأرجح بين طفلة كبيرة وامرأة صغيرة.. كل ما فيها مرح وجذل وطروب ومتفتح للحياة..

ومدينة تجعلك تشـعر فيها كأنك مع فتاة فى الخامسة والعشرين اكتمل جمالها ووفرت أنوثتها، تضج بالحيوية والصحة والشـباب والانطلاق.. العمل موجود فى حياتها لكنه، أبداً، ليس أهم شـيء.. لا تهتم كثيراً بما فات وتأمل الكثير فيما هو آت..

مدينة فى الأربعين، رصينة عاقلة، لم يعد الجمال بالنسبة إليها هو الأهم، لكن لديها الكثير مما لا زالت تسـتطيع أن تعطيه.. تأنس إليها وتشـعر معها بالهدوء والراحـة والأمـان، وبأنك تحب أن تعود إليهـا كلما احتجت إلى فترة تبتعد فيها عن الصخب والضوضاء..

ومدينة فى السـتين.. لازال فيها وهج وسـحر جمال قديم وعطر شباب قديم.. مدينة تشعرك بأنك تجلس إلى أمك أو جدتك.. تحبها، تحترمها، لكنك لا تستطيع أن تعشقها..

أحـب مدن العالم إلى قلبى ثلاثاً: القاهرة لأن فيها أهلى وأصدقائى.. لندن لأن فيها حياتى الآن.. برمنجهام لأنها فى الخامسة والعشرين!!..

القاهرة أمى.. لندن صديقتى.. برمنجهام حبيبتى..

* * *

برمنجهام هى العاصمة الثانية لبريطانيا بعد لندن.. مثل مكانة الإسكندرية بعد القاهرة بالنسبة لمصر، واللاذقية بعد دمشق بالنسبة لسوريا، وتعز بعد صنعاء بالنسبة لليمن، والمدينة بعد الرياض بالنسبة للسعودية.. وهى - برمنجهام - تبعد عن لندن بـ ١٠٥ أميال (١٨٥ كيلومترًا) وساعة ونصف بالقطار الإنجليزى السريع..

برمنجهام هى المدينة رقم ٢ فى إنجلترا بعد لندن، على الرغم من أن عدد سكانها مليون و ١٠٠ ألف فقط، بينما سكان لندن الآن عشرة ملايين.. لكن أهمية برمنجهام تأتى من حيث موقعها فى وسط الخريطة الإنجليزية تماماً، مما يجعلها محور الطرق الرئيسية فى إنجلترا كلها، سواء الطرق البرية أم السكك الحديدية أم حتى القنوات والممرات المائية.. وأيضا من ناحية أهمية الإنتاج وأهمية حركة العمل فيها وأهميتها كسوق كبير ليس لإنجلترا وحدها؛ وإنما لأوروبا كلها.. بل وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر من جوانب الحياة: جانب الثقافة والفنون والآداب، والمتعة واللهو والمرح وحياة الليل؛ فهى أيضاً رقم ٢ فى بريطانيا.. وإلى جانب ذلك فهى منطقة سياحية تماماً يشعر فيها السائح بأنه لو قضى فيها يوماً واحداً فسوف يرى شيئاً يستحق المشوار، ولو قضى فيها شهراً فسوف يرى خلاله كل شىء فى برمنجهام وحول برمنجهام، ابتداءً من (مدرسة المجوهرات) إلى (ستراتفورد شكسبير)، ومن (قلعة ووريك) إلى (كاتدرائية كوفنترى) و ١٠٠ مكان آخر يستحق الزيارة والمشاهدة فى برمنجهام وحول برمنجهام..

الأهم من ذلك كله هو أن برمنجهام مدينة تجيد الدعاية لنفسها وتعرف جيداً كيف تدعوك إليها، وإذا ذهبت إليها فأنت لا شك واقع فى حبها.. كما حدث معى..

* * *

انطباعتى الأولى التى خرجت بها من زيارتى لبرمنجهام التى استمرت أربعة أيام؛ هى أن الناس فى برمنجهام يشعرونك منذ اللحظة الأولى بأنهم أصدقاؤك ويعرفونك من زمان.. يقابلونك بودٍ حقيقى ويعاملونك بإقبال ليس مصطنعاً وكأنه

طبع أصيل فيهم.. إبتداء من «روجر تومسون» مدير [فرايداى جايد] والمسئول عن عالم شكسبير، و «جيليان هال» دليلتى الحسناء فى ستراتفورد التى تتعامل مع شكسبير كما لو أنه «أونكل ويليام» خالها مباشرة، ومعاون مدرسة [الملك إدوارد السادس] التى تعلم فيها شكسبير فى طفولته، و «تيم آيرسون» مدير فندق شكسبير الذى نزلت فيه فى مدينة ستراتفورد، إلى «جينى» فتاة محل [آندروود] التى حكت لى قصة حياتها كلها فى خمس دقائق وأنا أشترى منها شيئاً صغيراً جداً.. إلى الذين التقيت بهم فى مدينة برمنجهام نفسها: «فيليب تايلور» مدير السياحة فى برمنجهام ومساعداته الجميلات «سو برنارد» و «ميتشيل كولان» و «كارول أورايلى»، و «جون فيركلاو» مدير الفندق الذى نزلت فيه فى برمنجهام، و «جوليان ستانتون» الذى صحبنى فى رحلة نهرية فى قنوات برمنجهام.. وقبل هؤلاء جميعاً «كريس واتون» مندوب هيئة السياحة البريطانية [BTA] الذى صحبنى طوال هذه الأيام الأربعة، وكان طول الوقت يحدثنى عن برمنجهام حيث العاشق المحب، حتى اكتشفت فى آخر يوم من أيام الرحلة أنه هو أيضاً من أبناء برمنجهام.. كل هؤلاء الذين قابلتهم خلال رحلتى يجعلونك تشعر أنهم لا يؤدون واجباً أو عملاً وظيفياً روتينياً؛ إنما هم يستضيفونك فى بيتهم شخصياً، بيتهم الكبير، برمنجهام.. ولعله ليس بموقعها المتميز فقط؛ لكن بالحب والمودة التى تملأ قلوب أبنائها؛ استحقت برمنجهام اللقب الذى يطلق عليها والذى هو شعارها: [قلب إنجلترا الكبير] أو [The Big Heart of England]..

* * *

لم تكن برمنجهام موجودة على خريطة إنجلترا حتى القرن السادس أو السابع الميلادى، يعنى منذ ١٣٠٠ أو ١٤٠٠ سنة.. لكن بعد وصول قبائل الـ(أنجلوساكسون) المسماة [بيرم Berm] أو [بيورما Beorma] أقامت هذه القبائل لنفسها بيوتاً بالقرب من الوادى الخصب لنهر الـ[رى Rea].. وأصبحت هناك قرية صغيرة فى هذا المكان، لكنها لم تكن قد حملت اسماً بعد..

وبعد انتصار النورمانديون بقيادة الملك «ويليام الأول» أو «ويليام الفاتح» عام ١٠٦٦ – الذى هو بداية الأسرة الملكية البريطانية الحالية والجد الأكبر للملكة إليزابيث – أصبحت تلك القرية الصغيرة إقطاعية ضمن ممتلكات لورد «ويليام فيتزانسكلف William Fitzansculf»، الذى وهبها أو منحها إلى خادمه المخلص «ريتشارد» – (لأن كلمة Steward فى اللغة الإنجليزية تتأرجح معانيها بين (كبير الخدم) و (مدير البيت) و (وكيل أعمال).. لكن فى النهاية يظل أى واحد من هؤلاء الثلاثة (خادماً) لـ (سيد).. وقد أردت أن أوضح لكم ذلك حتى لا نظلم الخواجة «ريتشارد» سواءً كان كبيراً للخدم أو مديراً للبيت أم وكيلاً للأعمال)، على الرغم من أنه هو نفسه قد أصبح بعد ذلك (سيداً) هو الآخر وحمل لقب «دى برمنجهام De Birmingham» وأصبح هو ثم ورثته من بعده ملاكاً لـ (إقطاعية برمنجهام) حتى منتصف القرن السادس عشر، يعنى ما يقرب من ٥٠٠ سنة..

وكانت القرية الصغيرة برمنجهام فى عام ١٠٨٦ أصغر من جاراتها الإقطاعيات الأخرى [آستون Aston] و[نورث فيلد Northfield].. اليوم أصبحت [آستون] و[نورث فيلد] مجرد ضاحيتين من ضواحى مدينة برمنجهام الآن!!..

وبدأت قرية برمنجهام تكبر وتنمو وتزدهر اقتصادياً منذ ذلك الحين.. لكن الاعتراف الملكى بها كمركز هام من مراكز التجارة لم يأت إلا عام ١١٥٦، حين قرر الملك «هنرى الثانى» أن يمنح «بيتر دى برمنجهام» حق إقامة سوق للقرية!!.. فقد كانت إقامة الأسواق، حتى أسواق القرى الصغيرة البعيدة؛ فى تلك الأيام لا تتم إلا بعد موافقة الملك شخصياً، وتعتبر منحة ملكية هامة!!.. ويبدو أنه لم يكن لدى الملوك زمان الكثير مما يشغلهم حتى أن إقامة سوق فى قرية كان يحتاج إلى موافقة الملك شخصياً!!..

بعد ذلك بمائة عام أخرى و٣ ملوك آخرين؛ فى عام ١٢٥٠، تلقت برمنجهام منحة أخرى من الملك «هنرى الثالث» الذى منح «ويليام دى برمنجهام» تصريحاً بإقامة (معرض) للتجارة والتجار فى برمنجهام..

وبعد أن ظلت برمنجهام زمناً طويلاً سوقاً للتجارة والتجار فحسب؛ بدأت مع بداية القرن الرابع عشر تكتسب أهمية وشهرة جديدة بتزايد عدد الحرفيين والصناع فيها.. وبعد قرنين آخرين من الزمان كانت مصنوعات برمنجهام تغزو إنجلترا كلها من أقصاها إلى أدناها، بما فى ذلك العاصمة لندن نفسها..

وخلال الحرب الأهلية بين قوات الثائر الإنجليزى «كروميل» وقوات الملك «تشارلز الأول» (١٦٤٢ - ١٦٤٩) كانت برمنجهام هى المصدر الرئيسى للسيوف والرماح وباقى الأسلحة لقوات «كروميل»، بينما رفضت أن تمد القوات الملكية بقطعة سلاح واحدة.. لذا فسرعان ما تلقت عقابها ففى ذلك حين هاجمتها قوات الملك «تشارلز الأول» عام ١٦٤٣ وحاصرتها واحتلت قصر حاكم المنطقة.. ولازالت آثار مدفعية القوات الملكية باقية على بعض الجدران حتى الآن بعد أكثر من ٤٥٠ سنة على انتهاء تلك الحرب.. ولعل من حسن حظ برمنجهام أن قوات «كروميل» قد انتصرت فى الحرب الأهلية؛ وإلا فلو كانت القوات الملكية هى التى انتصرت لمحت برمنجهام من على الخريطة البريطانية عقاباً لها على تمردها على الملك..

وقد خرجت برمنجهام من تلك الحرب بازدياد شهرتها وصيتها كبلد صناعية، وبدأت تتفتح فيها صناعات أخرى جديدة ناجحة ومزدهرة تعتمد على مهارة سكان برمنجهام وقدرتهم على العمل الشاق، مثل صناعة البنادق والمسدسات والأسلحة النارية، حتى إن الحكومة الإنجليزية فى عام ١٦٩٠ - بعد انتهاء الحرب الأهلية بما يقرب من ٤٠ عاماً، وكانت الملكية قد عادت من جديد - حين احتاجت الحكومة إلى أسلحة لتحارب بها فى فرنسا وأيرلندا؛ تعاقدت مع صناع الأسلحة فى برمنجهام على تزويد الجيوش الإنجليزية بـ: ٢٠٠ بندقية كل شهر!!.. (قد إيه زمان كانت الحروب بسيطة وسهلة)، حتى إن الجيش وهو فى حالة حرب لا يحتاج إلى أكثر من ٢٠٠ بندقية فى الشهر!!.. وفى عام ١٧٥٤ - وأنا أذكر التواريخ لأن الكثيرين من القراء يعشقون التواريخ ويهتمون بها كثيراً - فى

عام ١٧٥٤ أصبح واحداً من تعاقدات برمنجهام الأساسية الثابتة تصدير ٦٠٠ قطعة أسلحة النارية كل: أسبوع!!.. الحروب تزداد صعوبة مع الأيام كما ترى!!..

وازدهرت فى برمنجهام فى تلك الفترة أيضاً صناعة الحلى المعدنية الصغيرة، كالأساور والأقراط والخواتم والبروشات، والعدد والأدوات الصناعية الصغيرة كالمفكات والمناشير والكماشات والمسامير وما إليها، و (توك) الأحزمة والأزرار المعدنية – فلم يكن البلاستيك قد اخترع بعد – والأدوات المصنوعة من النحاس الأصفر والنحاس الأحمر والصلب والزنك والزجاج، وزخرفة وطلاء المعادن وتلميعها..

* * *

وفى القرن الثامن عشر بدأت الثورة الصناعية تجتاح العالم كله، وانجلترا على وجه الخصوص، فازداد نمو برمنجهام وتطورها مع متطلبات عصر الصناعة الجديد، حتى إنها اعتبرت العاصمة الصناعية والتجارية والثقافية لمنطقة وسط إنجلترا التى كانت تسمى فى ذلك الوقت (ورشة بريطانيا).. وأصبحت برمنجهام هى الملاذ والملجأ لكل أصحاب الأفكار الجديدة المتطورة.. ودخل تاريخ الصناعة فى بريطانيا العديد من أسماء رجال الصناعة فى برمنجهام، أمثال رجل الطباعة «جون باسكرفيل John Baskerville» و «جوزيف بريستلى Joseph Priestley» الذى أطلق عليه لقب (أبو الكيمياء الحديثة) بعد أن اكتشف الأوكسوجين والنيتروجين وغيرهما، على الرغم من أنه طرد وأبعد عن برمنجهام عام ١٧٩١ نتيجة أمور متعلقة بالدين، فرحل إلى [بنسلفانيا] فى أمريكا حيث مات حسيراً كسيراً بعد ١٣ عاماً من طرده من بلده، والآن برمنجهام تذكر فضله وتفخر به وتضع اسمه وصورته فى نشراتها السياحية والكتب التى تتحدث عن تاريخها كواحد من أشهر وأهم أبنائها.. وأيضاً «هربيرت أوستين Herbert Austin» الذى ابتكر السيارة التى تحمل اسمه: (أوستين) عام ١٩٠٦ لتصبح السيارة الشعبية الأولى والأكثر مبيعاً فى العشرينات من القرن الماضى، وكان يبيع منها ١٥٠٠ سيارة فى العام، وكان ذلك رقماً كبيراً جداً فى تلك الأيام.. و «ويليام موردوك William Murduch» الذى

جاء إلى برمنحهام متعطلاً يبحث عن عمل، فاخترع غاز الإضاءة.. و«جيمس وات James Watt» الذى جاء إلى برمنجهام (على كبر) وعمره ٣٦ سنة، فاخترع (ذراع الحركة)، فنتج عن ذلك واحد من أعظم الاختراعات فى تاريخ البشرية وهو: قطار السكك الحديدية، التى بدأت فى بريطانيا لتكون أول دولة فى العالم تدخلها السكك الحديدية.. وبالمناسبة: كانت مصر هى ثانى دولة فى العالم تدخلها السكك الحديدية بعد بريطانيا مباشرةً، وقبل أمريكا نفسها..

ومن رجال الصناعة أيضاً الذين جلبوا الشهرة والرخاء والازدهار الاقتصادى لبرمنجهام، على الرغم من أنه هو شخصياً لم يخترع شيئاً ولم يبتكر شيئاً ولم يكتشف شيئاً؛ لكنه كان فقط رجلاً جريئاً: «ماثو بولتون Matthew Boulton»، الذى جاء من أسرة تصنع الأزرار المعدنية و( توك) الأحزمة!!.. وقد أصبحت مصانع «ماثو بولتون» مزاراً يقصده السياح من كل مكان فى أوروبا حين أصبحت – فى عام ١٧٧٤ – أول مكان فى العالم يضاء بالغاز؛ مما جعل العمل والإنتاج يستمران بعد حلول الظلام، وبالتالى لا يتوقف العمل فى المصانع عندما يهبط الظلام فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى شتاء بريطانيا المظلم، وبالتالى أيضاً فقد أمكن – لأول مرة فى تاريخ الصناعة فى العالم – إدخال نظام الـ (ورديات) فى المصانع بحيث يمكن أن يستمر العمل ٢٤ ساعة فى اليوم على ٣ أو ٤ (ورديات)، بدلاً من عدد قليل من الساعات تنتهى بهبوط الظلام فيتوقف كل شىء.. ومن المؤكد أن ذلك قد تسبب فى نهضة صناعية كبرى تفجرت فى إنجلترا ثم انتقلت بعد ذلك إلى العالم الصناعى كله، وأدت إلى تشغيل ملايين جدد من العمال لم يكن نظام عمل الساعات القليلة يحتاجهم.. وذلك يؤكد النظرية القائلة – أنا الذى أقولها – أنه لا يكفى أن يكون هناك مخترع عبقرى، بل يجب أن يكون هناك أيضاً رجل مجنون يقتنع بأفكار هذا المخترع العبقرى ويخرجها إلى حيز التنفيذ.. وبالتالى يمكن أن نبتكر أيضاً مثلاً جديداً يقول – أنا أيضاً الذى أقوله –: (وراء كل مخترع عظيم ممول مجنون).. انتهى المثل!!..

لذا فإن مدينة برمنجهام تضع الآن فى واحد من أهم شـوارعها الرئيسـية تمثالاً ضخمـاً يجمع بين أبنائها الثلاثة الذين تعتبرهم رواداً وأصحاب فضل عليها وعلى العالم كله، على الرغم من أنهم لم يكونوا من رجال السياسة وإنما كانوا: (مخترعين ومفكرين ومجانين..) وهم:

المخترع: «ويليام موردوك».. (١٧٥٤ – ١٨٣٩ )..

المفكر : «جيمس وات».. (١٧٣٦ – ١٨١٩ )..

المجنون: «ماثو بولتون».. (١٧٢٨ – ١٨٠٩ )..

تاريخ برمنجهام أيضاً يشـير بشكل هامشى جداً وعابر جداً؛ إلى أن أشهر أدباء إنجلترا على الإطلاق – بعد «ويليام شيكسـبير» –: «تشارلز ديكنز»؛ كان مديراً لمعهد [برمنجهام ووسط إنجلترا ].. ولم أكن أعلم عن «ديكنز» ذلك على رغم أننى قـرأت كل ماكتب وقرأت الكثير عنه، وكنـت أظنه لندنياً لكثرة ماكتب عن لندن وعن الحياة فى لندن بالذات..

* * *

وقد نمت وازدهرت أيضاً التجارة فى برمنجهام لكى تواكب بطبيعة الحال هذه النهضة الصناعية؛ حتى إن البنوك التى كان يديرها المرابون لقرون عديدة سـابقة أصبحت فى ذلك الوقـت نشـاطاً تجارياً شديد الأهمية.. فى بريطانيا الآن خمسة بنوك يطلق عليها (الخمسة الكبار)؛ اثنـان منها تأسسـا أصـلاً وبـدآ نشـاطهما فى برمنجهام، هما بنك (لويدز) الشـهير عندنا فى العالم العربى بمسـألة التأمين على السفن، وبنك (ميدلاند)..

وقـد تطورت مجالات الصناعة فى برمنجهام لكى تصبح رائدة أيضاً فى تصنيع وتعليب الأطعمة والمشروبات.. وعلى سبيل المثال فإن الشوكولاتة ماركة [كادبورى] والمشـروبات التى تحمل اسـم [شويبس] الشـهيرتين جداً فى العالم العربى الآن؛ كلتاهمـا بدأتـا فى مدينة برمنجهـام كمقاهى صغيرة من مقاهى شـارع [بال Bull Street] فى بدايات القرن التاسع عشر، وبالتحديد عام ١٨٢٤.. وصناعات أخرى

عديـدة بدأت فى برمنجهام ثم انطلقت منها لتشـتهر فى العالم كله، مثل شـاى [تايفـو] وصلصـة [HP].. وتصنيع البيرة أيضاً يعتبر مـن الصناعات التقليدية فى المدينة من قديم الزمان..

ولم يجىء عام ١٨٠٠ وبداية القرن التاسـع عشـر إلا وبرمنجهام مزدهرة متألقة ذات شـهرة عريضة، كما أصبحت المركز والميدان الرئيسى لحركة الملاحة النهرية فى القنوات المائية التى كانت تستخدم فى نقل التجارة بين برمنجهام وباقى مدن بريطانيا.. وحتى الآن يوجد فى برمنجهام وحدها قنوات نهرية ملاحية أطول مما يوجد فى مدينة (فينيسـيا) الشـهيرة التى تعوم على هذه القنوات وشوارعها عبارة عن قنوات.. وأصبحت برمنجهام أيضاً البؤرة والمحور الرئيسى الذى تتجمع عنده وتنطلق منه شبكة خطوط السكك الحديدية الإنجليزية وكذلك شبكة الطرق البرية، وذلك لموقعها الذى يتوسـط إنجلترا فعلاً، فجعلها تسـتحق اللقب الذى تشتهر به الآن: [قلب إنجلترا الكبير]..

وعلى الرغم من شهرة برمنجهام إلا أنها لم تمنح حق انتخاب عمدتها ومجلسها المحلـى إلا فى عام ١٨٣٨ فقط، بل وحتـى لم تحمل لقب (مدينة) رسمياً إلا بعد أن منحتـه لها الملكـة «فيكتوريا» فى عام ١٨٨٩، يعنى أنـه منذ أعوام قليلة فقط احتفلت برمنجهام بمضى ١٠٠ سـنة على ترقيتهـا إلى درجة مدينة!!.. وامتناناً من (مدينة) برمنجهام للملكة «فيكتوريا» صنعت لها تمثالاً هائلاً من الرخام وضعته فـى أهم ميادينها وأسمته (ميدان فيكتوريا) فى عـام ١٩٠١.. لكن لم يقدر للملكة « فيكتوريا » – أطول ملوك وملكات إنجلترا حكماً على الإطلاق: ٦٤ سـنة على العـرش – لم يقدر لها أن تنعم طويلاً برؤية تمثالها يحتل أهم ميادين برمنجهام، لأنها ماتت فى نفس السنة.. بل وليس تحت يدى تاريخ وضع التمثال فى الميدان بالتحديـد لكى أسـتطيع أن أؤكد ما إذا كان قد وضع فـى حياتها أصلاً أو وضع بعد وفاتها بفترةٍ ما.. لكن برمنجهام على أية حال قد اسـتبدلت التمثال الرخامى للملكة «فيكتوريا» بتمثال آخر جديد من البرونز نصب فى نفس المكان فى الذكرى الخمسين لوفاة الملكة «فيكتوريا» فى عام ١٩٥٠..

الشعار الذى تتخذه مدينة برمنجهام لنفسها هو قلب أحمر نابض ملىء بالدم والحياة، مكتوب عليه – باللغة الإنجليزية طبعاً – [اعط موعداً فى برمنجهام، قلب إنجلترا الكبير Make A Date In Birmingham, The Big Heart Of England]، ثم جعلت هذا القلب الأحمر النابض على أرضية لونها كحلى غامق، شعارها فى كل شىء: على شنط المشتريات البلاستيك، فى ورق لف البضائع والهدايا التى تشتريها من المحلات، فى سلاسل وعلاقات المفاتيح، فى الكرافتات وربطات العنق، فى أقداح وفناجين القهوة والشاى الكبيرة التى يسمونها هنا الـ [ماج Mug]، فى محافظ الجيب، فى الأقلام الجافة والأقلام الحبر.. أينما تولّ وجهك وأنت هنا تجد هذا الشعار أو الرمز بألوانه المميزة أمامك فى كل مكان.. وهى فكرة لا شك جيدة ومتميزة وملفتة للنظر ولو رأيتها فى أى مكان فيما بعد فسوف تجعلك على الفور تتذكر برمنجهام..

الرجل الذى ابتكر هذا الشعار هو «فيليب تايلور Phillipe Taylor» مدير مكتب السياحة فى برمنجهام، المكتب الذى يطلق عليه [BCV] اختصاراً لاسمه الطويل [Birmingham Convention And Visitors Information Bureau] أو [مكتب برمنجهام لاستعلامات المؤتمرات والزوار].. فإذا كنت حضرتك من رجال الأعمال – الإنجليز أو الأوروبيين أو العرب أو من أى جنسية فى العالم – واحتجت أن تعقد اجتماعاً أو تقيم مؤتمراً فى مدينة برمنجهام؛ فإنك لا أنت ولا سكرتاريتك ولا موظفى مكتبك أو شركتك سوف تجرون يميناً ويساراً هنا وهناك لكى تبحثوا عن مكان تعقدون فيه الاجتماع أو تقيمون فيه المؤتمر، سواء كان اجتماعاً لدستة أشخاص أم مؤتمراً يحضره ٢٠,٠٠٠ شخص، ولا عن الفنادق والأماكن التى سوف يقيم فيها الذين سوف يشتركون فى هذا الاجتماع أو ذلك المؤتمر.. كل ما هو مطلوب منك هو أن ترفع سماعة التليفون – وهى مسألة سهلة ولا تكلف جهداً – وتطلب «فيليب تايلور» وتبلغه بما تريد، ثم تترك كل شىء بعد ذلك إلى «فيليب» وطاقم مكتبه من الشبان النشطين والشابات الحسناوات بالغات الكفاءة والمقدرة – وقد

رأيتهم ورأيتهن جميعاً – فسوف يقومون هم بكل العمل لأن تلك هى مهمتهم؛ إبتداءً من حجز المكان المناسب لعقد الاجتماع أو المؤتمر، إلى حجز أماكن النوم فى الفنادق وأماكن إقامة الاحتفالات والاستقبالات والولائم، والزيارات والجولات السياحية والبرامج الترفيهية والمسارح، إلى تدبير وسائل الانتقال لهم جميعاً، إبتداءً من التاكسيات إلى سيارات الليموزين إلى الطائرات لو لزم الأمر..

فمهمة هذا المكتب – والكلام لـ «فيليب تايلور» – هو جذب الناس، كل الناس، سواء من داخل إنجلترا أم من أى مكان فى العالم، إلى برمنجهام.. وسواء السياح العاديون مثلى ومثلك؛ إلى الاجتماعات صغيرة العدد، وصولاً إلى المؤتمرات التى يشترك فيها أعداد ضخمة من الأعضاء.. كالمؤتمر السنوى لأعضاء أندية الـ [روتارى] من جميع أنحاء العالم الذى أقيم فى برمنجهام وشارك فيه ٢٣,٠٠٠عضو من أعضاء الـ[روتارى].. وذلك ليس من داخل إنجلترا فقط؛ ولكن من أى مكان فى العالم يريد أن يعقد مؤتمراً فى برمنجهام تحاول أن تقتنصه لنفسها ليقام هذا المؤتمر فيها.. ومن أجل ذلك؛ يستطرد «فيليب تايلور»:

– ومن أجل ذلك أقيم معرض برمنجهام الدولى الذى افتتح عام ١٩٧٦ ليصبح منذ ذلك الحين نافذة العرض الرئيسية لبريطانيا وواحدًا من أهم معارض أوروبا، وفى الحقيقة فهو رقم ٢ فى معارض أوروبا الآن، على مساحة ٢٥٠ فداناً.. أنشئ بمساهمة المواطنين العاديين فى برمنجهام وتكلف إنشاؤه ١٣٠ مليوناً من الجنيهات، ليصبح أكبر بؤرة جذب فى بريطانيا الآن، حتى إن ٨٠ ٪ من معارض بريطانيا الصناعية والتجارية تقام فيه، وبالتالى تجتذب كل زوار ومشاهدى – وفى الأساس: عارضى – هذه المعارض، حتى إن زوار ورواد المعرض ينفقون فى منطقة برمنجهام ما بين ٧٠ و ٨٠ مليون جنيه كل سنة.. ويجتذب أيضاً المؤتمرات والاجتماعات الدولية لتنعقد فيه.. وعلى سبيل المثال اجتمع فيه ٢٣,٠٠٠ من أعضاء أندية الـ[روتارى] من مختلف أنحاء العالم اجتماعهم السنوى الذى يعقدونه كل عام فى مكان مختلف.. وكذلك معرض أجهزة وآلات الطباعة الدولى

الذى اجتذب هو الآخر ١٠٠,٠٠٠ مشاهد، بينما معرض السيارات اجتذب نحو ٨٠٠ ألف مشاهد..

معرض برمنجهام الدولى يضم ٩ قاعات عرض مختلفة المساحة، تغطى فى مجموعها مساحة ١٠٥,٠٠٠ متر مربع مكيفة الهواء والإضاءة الطبيعية – إلى جانب الإضاءة الصناعية طبعاً – والكهرباء والغاز والمياه والتليفونات.. وعلى سبيل المثال فإن القاعة رقم ٧ واسمها قاعة [إرينا Arena] تتسع لـ ١٢,٠٠٠ كرسى، يعنى ١٢,٠٠٠ مشاهد جالسين فى نفس الوقت يشاهدون شيئاً ما يعرض أمامهم، سواء كان ذلك مؤتمراً دولياً أم مباراة فى الملاكمة أو فى كرة السلة مثلاً، أم حفلا لمُغَنٍّ أو مغنية من مطربى هذه الأيام الذين يجتذبون آلاف المشاهدين المهاويس بهم، أمثال «بوى جورج» و «مارلين» و «كليف ريتشارد» و «توم جونز» و «دايانا روس» و «جورج مايكل» وغيرهم.. ويقام فى هذه القاعة العديد من المعارض التى يؤمها جمهور كبير من المشاهدين، مثل معرض النبيذ الذى اشتركت فيه شركات النبيذ من كل أنحاء العالم، ومعرض الأنتيكات والتحف والمجوهرات والمشغولات الفضية والبورسلين والكريستال، إلى الأثاثات قديمة الطراز والسجاد الأثرى وغير ذلك.. ليس ذلك فقط؛ بل أقيمت فيه بطولة إنجلترا فى: الفروسية!!.. يعنى عشرات من الخيول تجرى وترمح وتقفز الحواجز والسدود التى أقيمت فى قاعة [إرينا] المغلقة التى شبهتها حين رأيتها بصحبة «فيليب تايلور» بأنها قاعة من المطاط ممكن أن تتسع وتضيق حسب الظروف والاحتياجات.. فممكن أن يكون فيها فى وقت واحد ١٢,٠٠٠ جلوساً يشهدون ويستمعون إلى عرض فنى أو موسيقى أو إلى مطرب ما يغنى على خشبة المسرح، أو يكون جميع المشاهدين وقوفاً وليس فى القاعة كلها كرسى واحد للجلوس عندما يكون هناك معرض للسيارات مثلاً أو لآلات الطباعة.. بل ومن الممكن أن تنقسم قاعة [إرينا] هذه إلى قسمين منفصلين تماماً يقدم كل منهما عرضاً مستقلاً تماماً ومختلفاً تماماً تحت نفس السقف وفى نفس الوقت، دون أن يزعج واحد منهما الآخر أو يشوش عليه.. كما حدث عندما أقيم فى نفس القاعة

وفـى نفس الوقت المعـرض الملكى للخيول + بطولة إنجلترا الدولية فى القروسـية وقفز الحواجز..

ففى عام واحد أقيم فى معرض برمنجهام الدولى ٤٠ معرضاً + ٦٥ حفلاً كبيراً.. وفى عام آخر يقام به ٥٠ معرضاً و٦٥ حفلاً ايضاً، غير ما قد يستجد خلال الجزء الباقى من هذا العام..

* * *

«فيليب تايلور» نموذج لرجل السـياحة الفاهم لشـغله جيداً، الذى يعرف تماماً مـا الذى يريده الصحفى أو الكاتب، ويعرف أيضاً كيف يوصل إليه ذلك فى جمل موجزة مفيدة وافية تماماً بالغرض.. يستطرد «فيليب»:

– وإذا كان مطار [هيثرو] الرئيسى فى لندن قد بدأ يئن تحت الضغط المتزايد عليه من الرحلات الجوية منه وإليه؛ فقد فكرت برمنجهام فى ذلك منذ فترة واستعدت له.. فكان مطار برمنجهام الدولى الذى أفتتح فى عام ١٩٨٤.. لأن موقعها الفريد فى وسط إنجلترا وعلى بعد ١٠٥ أميال فقط من لندن؛ يجعل عدداً كبيراً من المسافرين الآن مـن وإلى أى مكان فى العالم ومن وإلى أى مكان داخل إنجلترا؛ بل وحتى إلى لندن نفسـها كذلك؛ يفضلون استخدام مطار برمنجهام الدولى لأنه يجعل مشوارهم – حتى إلى لندن – أسرع وأقل مضيعة للوقت.. ذلك لأننا نستخدم للمرة الأولى فى العالم وسيلة مواصلات جديدة تماماً أطلق عليها اسم [ماجليف MAGLEV].. وهى عبارة عن عربة معلقة تسـير على قضبان علوية وتنقـل ٤٠ راكباً فى المرة الواحدة بين داخل المطار ومحطة السكة الحديد الرئيسية فى برمنجهام فى ٩٠ ثانية فقط: دقيقة ونصف!!.. بينما محطة السـكة الحديد متصلة أيضاً بالمطار بممشـى مغطى يسـتطيع الركاب أن يسـيروا فيه على الأقدام من المحطة إلى المطار أو العكس، لو أرادوا.. والمطار متصل أيضاً بشـبكة الطرق الرئيسـية فى بريطانيا إذا كانت هناك سيارة سوف تنتظرك فى المطار أو إذا كنت ستذهب إلى المطار فى سيارة..

* * *

فى صباح اليوم الثانى كانت دليلتى واحدة من فتيات مكتب السياحة هناك: «لوسيل ويليامز».. صحبتنى فى جولة فى المدينة فضلت أنا أن تكون سيراً على الأقدام لكى، أولاً، (إن اللى يعشى يشوف أكتر)، وثانياً لكى أستطيع أن أتوقف أمام أى شىء عندما أريد، وثالثا – وهو الأهم – أن أستمتع بصحبة الجميلة «لوسيل» أطول وقت ممكن..

وإذا كانت برمنجهام هى قلب إنجلترا الكبير؛ فإن ميدان [سانت مارتين] هو قلب برمنجهام النابض.. ففيه وحوله تتجمع أسواق المدينة الخمس، التى أكبرها سوق من عدة طوابق مبنى على الطراز الحديث الذى يطلق عليه اسم [شوبنج سنتر Shopping Center] والذى ممكن أن تقضى فيه ساعات وساعات دون أن تكتفى أو تمل منه.. ففيه كل ما يخطر على بالك وعلى بال السائح العادى مثلى ومثلك، ابتداءً من الملابس والمأكولات والمشتروات الأخرى؛ إلى أحدث كتب أخرجتها المطابع فى العالم.. وفيه أيضاً – فى ميدان [سانت مارتين] – محطة السكك الحديدية الرئيسية للمدينة، وأيضاً محطات الأوتوبيسات التى تنطلق من برمنجهام إلى باقى مدن إنجلترا، وكذلك المحطة الرئيسية للأوتوبيسات الداخلية ذات الطابقين التى تنتشر فى أنحاء المدينة كلها..

تقول لى «لوسيل ويليامز» إن على قائمة برمنجهام السياحية ٢٤ مكاناً أساسياً ينبغى زيارتها؛ ابتداءً من مدرسة [ياردلى] التى أنشئت عام ١٢٦٠؛ إلى كاتدرائيات وكنائس ومبانى من القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر، مثل كنيسة [سانت مارتين] التى لازال برجها قائماً حتى الآن بعد ٧٠٠ سنة من إنشائه.. والعديد من المتاحف التى تتزايد عاماً بعد عام فى برمنجهام، مثل متحف المواصلات والسكك الحديدية ومتحف العلوم والصناعات، ومتحف الطبيعة الذى هو أقرب إلى حديقة حيوانات، ومتحف الفنون وغيرها من المتاحف.. وحتى الموتوسيكلات أوجدت لها برمنجهام متحفاً يحكى تاريخها منذ أول موتوسيكل جرى فى الشوارع منذ ٧٥ عاماً فقط – وكنت أظنها أقدم من ذلك بكثير، بل كنت أظنها سابقة على اختراع السيارة أصلاً – حتى آخر طراز من الموتوسيكلات ظهر فى السوق.. لكن

أسعار دخول هذا المتحف – فى تقديرى – غالية جداً.. فهى جنيهان ونصف للكبار وجنيهان إلا ربعاً للصغار والعواجيز من أرباب المعاشات.. وإن كنت لا أظن أن أهل المعاشات سوف يكلفون أنفسهم عناء الفرجة ومشاهدة الموتوسيكلات الآن؛ إلا إذا كانوا غاويين، وإلا إذا لم يكن لديهم شىء آخر أكثر أهمية ليفعلوه..

وكعادة الإنجليز الشطار أقاموا مع المتحف محلاً يبيع الهدايا والتذكارات عن الموتوسيكلات – موجود مثله فى كل متحف – و(كانتين) أو مطعم صغير يقدم وجبات سريعة جاهزة، أيضاً ستجد مثله إلى جوار كل متحف موجود فى أى مكان فى بريطانيا..

ولما كانت برمنجهام تضم أكبر جالية عربية فى بريطانيا بعد لندن؛ وتقدر بأكثر من ٣٠,٠٠٠ عربى أغلبهم من اليمنين الشمالى والجنوبى؛ لذا لم يكن مستغرباً أن يكون بها – منذ عام ١٩٧٣ – واحد من أكبر المساجد الموجودة فى بريطانيا – وعددها، بالمناسبة ٣٠٠ مسجد (!!) – إلى جانب عدد من الزوايا الصغيرة لإقامة الصلوات..

وتأخذنى «لوسيل ويليامز» أيضاً إلى: كلية المجوهرات!!.. التى هى الكلية الأولى من نوعها فى العالم ولم أكن أتصور أنها ممكن أن تكون موجودة فى أى مكان..

وفى برمنجهام والمناطق المحيطة بها ثروة من الأماكن التاريخية التى تروى غليل السائح الذى يحب المشاهدة والفرجة مثلى.. مثل [ستراتفورد أبون إيفون Stratford Upon Evon] بلدة «ويليام شيكسبير» الرائعة على بعد ٢٠ ميلاً فقط تقطعها فى أقل من نصف ساعة بالقطار أو السيارة.. ومثل [قلعة ووريك Worwick Castle] وقلعة [كوستولدز Costwolds]، وكاتدرائيات [كوفنترى Coventry] و[جلوستر Gloucester] و[ليتشفيلد Lichfield] و[وورشستر Worcester] وغيرها وغيرها وغيرها.. وقد زرتها جميعاً؛ لكن لأن المساحة المخصصة لهذا الفصل لن تستوعب الكلام عنها كلها بالشكل الذى يفيها حقها؛ فإننى قد أتناولها فى فصلٍ قادم..

* * *

اليـوم الثالث لى فى برمنجهام يبدو أنه يوم رياضى، فبرنامجى طوال اليوم كله متعلق بالرياضة..

فـى الصباح مر علىّ فـى الفندق الشـاب الظريف «جوليان سـتانتون Jullian Stanton».. الإنجليز حالهم عجب فى لغتهم الإنجليزية؛ فهم يطلقون كلمة [Boat] على كل شـىء يتحرك فوق سـطح الماء، ابتداءً من الزورق الصغير ذى المجدافين الذى يتسـع لشـخص واحد أو شخصين على الأكثر، ما نسـميه نحن (فلوكة)؛ إلى الباخرة الكبيرة التى تحمل عدة آلاف من الركاب والمسافرين والبحارة.. ولعلنا نذكر المسلسل الكوميدى الذى أشتهر فى تليفزيوناتنا العربية باسم [سفينة الحب] واسمـه بالإنجليزية [Love Boat].. وعلى ذلك فإذا قلنا: إن الشـركة التى يديرها الشـاب الظريف «جوليان» تصنع زوارق أو [Boats] فإننا قطعاً سـوف نحير القراء المصريين والعرب فى أى نوع من الزوارق هذه!؟.. لكن أقرب تشـبيه لها ممكن أن نبسطه لقرائنا الذين أغلبهم يعرفون الأوتوبيس النهرى الموجود الآن فى العديد من الدول العربية وأولها مصر: زورق بخارى فى حجم الأوتوبيس النهرى، أو لنقل فى حجـم اللنـش البخارى العادى ٥ أو ٦ مرات مثلاً، لكنه مصمم من الداخل بحيث يكون عبارة عن بيت صغير أو شـقة صغيرة، به عدد من السـراير للنوم يتراوح بين سريرين و ٨ أو ١٠ سراير حسب حجم الزورق، وبه كل ما يحتاجه بيت عادى من دواليب وحمام ودورة مياه جارية وكهرباء وتليفون لاسلكى إذا احتـاج الأمر، وغرفة سفرة أو لنسمها (ركن للأكل)، ومطبخ، وعدد من الأرائك للجلوس.. وكلها أشياء مختصرة صغيرة الحجم حتى لا تشـغل حيزاً كبيراً على الزورق الصغير نسـبياً.. وتعالـوا نتفق على أن نطلـق على هذا النوع من الزوارق تسـمية (البيوت العائمة) لأنهـا كذلك فعلاً: بيت، بيت فيه كل ما تحتاجه أسـرة صغيرة فى بيتها، لكنه يتحرك بالأسـرة الصغيرة التى تستأجره ليوم واحد أو لعدة أيام أو لأسبوع أو أكثر، فـى القنوات الملاحية والأنهار بسـرعة ٤ كيلومترات فى السـاعة.. أو كما قال لى «جوليان»: بسـرعة شـخص عادى يمشى بسـرعة.. يعنى وأنت تقود هذا البيت

العائم بسرعته القصوى، لو أنك صادفت صديقاً يسير على الشاطئ المجاور لك؛ فسوف يستطيع أن يظل هو يسير على الشاطئ وهو يتبادل معك الحديث وأنت فى ذلك البيت العائم، على أن صديقك (يعد شوية) ولا يمشى على مهله!!..

وقد كنت أظن أن قيادة هذه الزوارق أو البيوت العائمة تحتاج إلى خبرة قبطان أعالى البحار لكى يقودها؛ أو على الأقل تحتاج إلى (رخصة قيادة) مثل رخصة قيادة السيارات أو حتى الموتوسيكلات.. ولم أكن أتصور أن قيادتها بهذه السهولة إلا بعد أن شرحها لى «جوليان» على أنها: ١ - ٢ - ٣ ليس إلا.. واحد: إضغط على هذا الزر فيشتغل المحرك ويصبح البيت العائم جاهزاً للتحرك الآن.. اثنين: هذا الذراع اسحبه إلى الخلف بهدوء فيتحرك البيت العائم ويمشى إلى الأمام، وإذا ضغطت الذراع نفسه إلى الأمام تحرك البيت إلى الخلف.. ليس هناك أبسط من ذلك: اضغط ذراع الحركة عكس الاتجاه الذى تريد الإتجاه إليه، وبس.. تحرك البيت العائم خلاص.. تتبقى إذن مسألة توجيهه بحيث يظل فى وسط القناة المائية التى يسير فيها.. ذلك هو رقم ٣: ذراع الدفة تحركه بيدك.. إذا أردت أن تظل (متوسطناً) فى وسط القناة فليظل ذراع الدفة فى الوسط بالضبط.. بدأت القناة تنحرف يميناً حرك أنت ذراع الدفة عكس الإتجاه أيضاً: حرك ذراع الدفة إلى اليسار ليتجه البيت العائم إلى اليمين، حرك ذراع الدفة إلى اليمين ليتجه بيتك العائم إلى اليسار، ليس أكثر من ذلك.. نفس الشىء إذا أردت أن (تركن) إلى جوار الشاطئ الأيمن، فحرك ذراع الدفة إلى اليسار، تريد أن تركن إلى جوار الشاطئ الأيسر فاجعل ذراع الدفة إلى اليمين.. ليس هناك أى شىء على الإطلاق غير ذلك، ولا قبطان أعالى بحار ولا أعالى أنهار ولا تِرَع ولا حاجة أبداً، ولا حتى يتطلب منك أن تكون تعرف كيف تقود سيارة ولا حتى بسكلتة..

ويسألنى: «جوليان ستانتون» بعد أن شرح لى ذلك كله فى أقل من دقيقة واحدة: «هل تحب أن تقود البيت العائم بنفسك الآن!؟».. فسألته مستريباً: «وإذا اصطدم بنا فى الشاطئ!؟».. فأجاب «جوليان» ضاحكاً: «لن يحدث شىء على

الإطلاق، ولا حتى سوف يشعر بذلك من هم بداخل الزورق.. فلا تنس أنه كما قلت لك يسير بسرعة ٤ كيلومترات فقط فى الساعة، ولو اصطدم بالشاطئ وهو يسير بهذه السرعة فكأنه قد اصطدم ببالة قطن مثلاً!!..

وتوكلت على الله وأخذت مكان القيادة، على رغم أن خبرة القيادة الوحيدة التى اكتسبتها فى حياتى هى قيادة أسانسيرات العمارتين اللتين أسكنهما فى القاهرة وفى لندن، وقيادة فريق كرة السلة فى نادى الزمالك فى سالف العصر والأوان.. لكننى قدت البيت العائم بنفسى ولعدة أميال، واستطعت أن ألف به لأعكس اتجاهه لنعود من حيث بدأنا، دون إشراف من «جوليان» الذى تركنى وتوجه إلى مقدمة «الباخرة» لكى يشرح شيئاً لرفيقى فى الرحلة «كريس واتون»، وحتى إننى فى نهاية المشوار استطعت أن أركنه إلى جانب رصيف الميناء الصغير الذى بدأنا منه وعدنا إليه، بل ودخلت به - بالراحة وبهدوء - بين بيتين عائمين آخرين كانا راكنين «واقفين» إلى جانب الرصيف، دون خسائر فى الأرواح..

* * *

تناولنا غداءنا بسرعة؛ «كريس واتون» وأنا، فى أحد المطاعم الصغيرة المنتشرة فى شوارع برمنجهام.. «كريس» يبدو منفعلاً متوتراً إلى حدٍ ما: «مالك يا كريس!؟»..

يحكى لى «كريس» أنه أصلاً من أبناء ضواحى برمنجهام، لكنه رحل مع الأسرة إلى منطقة أخرى بعيداً عن برمنجهام وهو طفل صغير ولم يعد إليها على الإطلاق إلا معى هذه المرة الآن.. وكان وهو طفل قد بدأ يهوى كرة القدم - تشجيعاً فقط - فأخذه أبوه معه مرة وهو فى الرابعة من عمره - «كريس» طبعاً هو الذى كان فى الرابعة من عمره وليس والده - ليشهد مباراة فى كرة القدم من مقاعد الدرجة الثالثة فى ملعب نادى [آستون فيللا].. ولأنها كانت المرة الأولى والأخيرة فى حياة «كريس» فقد ظلت عالقة فى ذهنه حتى اليوم على أنها من ذكرياته السعيدة..... اليوم نحن ذاهبان إلى نفس الملعب: [آستون فيللا]؛ لكننا سوف نشهد المباراة من مقصورة كبار الزوار ومديرى النادى!!.. الفارق الشاسع بين المرتين: من مقاعد

الدرجة الثالثة إلى مقصورة كبار الزوار؛ هو الذى يثير انفعال الشاب «كريس واتون»، على رغم أنه قد أصبح الآن الرجل رقم ٢ فى إدارة الشرق الأوسط فى هيئة السياحة البريطانية.. لذا فقد ظل طول الوقت يحدثنى عن نادى [ويست بروميتش] الذى كان يشجعه وهو طفل ولازال يشجعه حتى الآن، وعن الرياضة عموماً فى برمنجهام..

فى منطقة برمنجهام ٣ أندية محترفة لكرة القدم، يلعب ٢ منها فى دورى الدرجة الأولى الإنجليزى الذى يضم ٢٢ نادياً؛ هما نادى [آستون فيللا] ونادى [ويست بروميتش].. أما النادى الثالث [برمنجهام سيتى] فيلعب الآن فى دورى الدرجة الثانية.. وقد كانت الأندية الثلاث أندية كبيرة وقوية وممتازة فى سالف العصر والأوان، حتى إن نادى [آستون فيللا] الذى سنشاهد المباراة فى ملعبه اليوم فاز ببطولة دورى إنجلترا خمس مرات فى خلال أقل من ١٠ سنوات، كانت آخرها عام: ١٨٩٩!!.. يعنى فى نهاية القرن قبل الماضى!!.. ومنذ ذلك الحين لم ير البطولة مرة أخرى – ولا حتى من بعيد – لا هو ولا الناديان الآخران فى برمنجهام، بل على العكس؛ فقد تبادلت الأندية الثلاثة الهبوط إلى دورى الدرجة الثانية الإنجليزى عدة مرات خلال الثلاثين سنة الأخيرة.. وهى الآن – إذا تصادف – ولعبت فى دورى الدرجة الأولى فهى ليست من أندية المقدمة؛ بل تتراوح أماكنها بين منطقة الوسط ومنطقة المؤخرة فى الترتيب، وتكافح كفاحاً مجيداً لمجرد أن تبقى فى دورى الدرجة الأولى.. وذلك لأنها أندية فقيرة لا تستطيع دفع ملايين الجنيهات لشراء لاعبين ممتازين كما تفعل الأندية الغنية أمثال [ليفربول] و[توتنهام] و[مانشستر يونايتد].. بل فى الحقيقة أيضاً هى تعتبر نفسها معملاً لتفريخ اللاعبين الممتازين لحساب الأندية الغنية.. فهى تأخذهم صغاراً ناشئين وتربيهم وتصقلهم حتى يصبحوا ممتازين فلا تكاد تستفيد من امتيازهم لأنها تبيعهم على الفور إلى الأندية الغنية.. مثلما حدث عندما باع نادى [ويست بروميتش] لاعبه «برايان روبنسون» إلى نادى [مانشستر يونايتد]

بمليونين من الجنيهات – الإسترلينية طبعاً، (واضرب فى ١١ علشان تعرف قد إيه بالعملة المصرية) دخل جيب اللاعب ١٠ ٪ منها = ٢٠٠,٠٠٠ جنيه + مرتب سنوى قدره ١٥٠,٠٠٠ جنيه أخرى – كان ذلك منذ سنوات بعيدة – وذلك مبلغ لا بأس به على الإطلاق يجعلنى أندم كثيراً على العمر الذى ضيعته فى الدراسة والقراءة والكتابة والصحافة والأدب، وعلى أننى سمعت كلام أبى وأمى وبطلت لعب الكورة فى الشارع وأنا صغير؛ وإلا كان زمانى الآن أساوى – كلاعب كرة قدم – على الأقل حوالى عشرة جنيهات، ويمكن ١٥ كمان..

الطريف أن اللاعب «برايان روبنسون» الذى استغنى عنه نادى [ويست بروميتش] وباعه إلى نادى [مانشستر يونايتد]، قد أصبح بعد ذلك كابتن فريق منتخب إنجلترا كلها لكرة القدم!!..

* * *

ويشير «كريس واتون» إلى أرض الملعب وهو يقول لى: إنه لأن نادى [آستون فيلا] يعتبر نادياً فقيراً؛ فإن مجموع ثمن لاعبيه الذين يلعبون هذه المباراة أمامنا الآن ضد فريق نادى [ليستر سيتى]؛ لا يزيد كثيراً عن ٤/٣ مليون جنيه.. وهو مبلغ يقل كثيراً عن ثمن لاعب واحد من لاعبى الأندية الأخرى الغنية التى يلعبون ضدها.. وذلك يؤكد المثل القديم القائل (الغالى ثمنه فيه)!!..

* * *

ألاحظ شيئاً طريفاً على اللوحة الكهربائية التى توجد فى مكان عالٍ من الملعب بحيث يراها الجمهور كله وتعلن عليها نتيجة المباراة وأهدافها أثناء اللعب؛ أنها تتحول خلال فترة الـ(هاف تايم) بين شوطى المباراة إلى لوحة إعلانات ضوئية ظريفة جداً: فلان الفلانى يهنئ أمه بعيد الأم.. فلان الفلانى تبرع للنادى الذى يشجعه بـ١٠٠ جنيه.. وكان أطرف إعلان رأيته عن «موهاميد ناصر فاريد» الذى يطلب من حبيبته أن توافق على الزواج منه!!.. ولم يقل لها ذلك فى مواجهتها مباشرة لأنه بينكسف؛ لكنه دعاها لمشاهدة المباراة، وأثناء الاستراحة

هـاص الجمهور فـى المدرجات وزاط وصفقوا وهتفوا باسـم الحبيبـة «آن مونييه» يطالبونها بأن توافق على الزواج من «فاريد».. فنظرت الست «آن مونييه» إلى لوحة الإعلانات وفوجئت ثم أغرقت فى الضحك والكسوف – آل يعنى – ووافقت على الفور طبعاً، قبل ماينكسف تانى..

مسـكين ذلك الحبيب المكسـوف الخواجة «فاريد»؛ انتقـل إلى رحـمة واحـدة ست!!..

* * *

أعـود إلى الفندق الذى أقيـم فيه طوال فترة زيارتى لبرمنجهام، لكى أسـتريح قليلاً قبل أن تجىء الحسـناء «سـو برنارد Sue Bernard» – من مكتب السـياحة أيضاً – لكى تصحبنى فى برنامجى المسائى.. لكن لأن مدير الفندق الشاب «جون فيركلاو John Fairclough» يدرك بحسـه السـياحى والفندقى أننى لابد وأن أكون شـخصية هامة لأن رجال وفتيات مكتب السـياحة فى برمنجهـام يأتون ويأتين دائماً ليأخذوننى من الفندق ويعيدوننى إليه؛ ويكتشـف أننى صحفى مصرى أزور برمنجهام لكى أكتب عنها؛ لذا يقرر «جون فيركلاو» أن يضع نفسه فى برنامجى هـو أيضاً لكـى يحدثنى عن جانب آخر مـن جوانب برمنجهام هـو خبير فيه: الفنـادق.. وهكذا ضاعت فترة الراحة القليلة جداً التى كنت أمنى نفسـى بها بين برنامجى الصباحى – الذى ينتهى عادةً فى السادسة أو السابعة مساءً – وبرنامجى المسائى، فقد استولى عليها الشاب الظريف «جون فيركلاو»..

الفندق الذى أقيم فيه اسمه [بلاو آند هارو Plough And Harrow].. وهو قصر قديم يضم ٤١ غرفة و٣ أجنحة، بنى عام ١٦١٢، يعنى منذ نحو ٤٠٠ سـنة، ثم تحـول إلى فندق فى عام ١٧٠٤، يعنى منذ ٢٩٧ سـنة بالضبـط. وذلك معناه أن الغرفة التى أنام فيها الآن نام فيها نزيل آخر قبلى منذ ٢٩٧ سـنة!!. «وأنا كمان يا اخويا باقول التليفزيون اللى فى غرفتى شكله قديم شوية ليه!!.».

ولا يتركنى «جون» أتصور شـكل الحياة فى فنادق برمنجهام منذ ٢٩٧ سـنة؛ قبل اختراع الكهرباء والغاز والإضاءة عموماً، وقبل اختراع السيارات والأوتوبيسات

والمترو ووسائل الانتقال الحالية، والتليفونات والتليفزيونات والراديو ووو.....
يعنى شكل الحياة فى الفنادق منذ نحو ٣ قرون من الزمان.. لكنه يستطرد ليقطع علىّ تصوراتى؛ بأن فنادق برمنجهام كلها معاً تضم ٨,٠٠٠ سرير + ١٥,٠٠٠ سرير أخرى فى المناطق المحيطة بالمدينة على بعد أقل من ٣٠ كيلومتراً أو نصف ساعة بالسيارة، على كل المستويات، ابتداءً من فنادق الـ ٥ نجوم – يعنى الممتازة جداً – إلى فنادق اللا نجوم على الإطلاق؛ يعنى الفنادق التى يريدها السائح العادى أو السائح الفقير.. وابتداءً من الفنادق التى على أحدث طرز العمارة الحديثة، مثل الهيلتون والشيراتون والميريديان؛ إلى الفنادق التاريخية الطراز – مثل الفندق الذى أقيم فيه – التى كانت قديماً قصوراً ثم تحولت إلى فنادق يفضل الإقامة فيها كثير من السياح الذين ينبهرون كثيراً عندما ينزلون فى فندق يعرفون أنه كان موجوداً فى مكانه هذا من قبل أن تكتشف أوطانهم نفسها، كالسياح الأمريكان والأستراليين والكنديين والنيوزيلانديين وغيرهم!!..

* * *

تنقذنى «سو برنارد» فتاة السياحة الجميلة من يدى «جون فيركلاو» مدير الفندق.. برنامجى المسائى مع الجميلة «سو» – بالمناسبة: «سو» اختصار أو اسم الدلع لـ «سوزان»، و «سوزان» اسم منتشر جداً فى كل دول أوروبا – سوف تأخذنى إلى أحد مسارح برمنجهام لنشهد مسرحية غنائية، ثم للعشاء فى أحد رستورانات المدينة، ليس على حساب «سو» طبعاً؛ وإنما بدعوة من مكتب السياحة، ثم استكمال السهرة بعد ذلك حسب الظروف.. أعنى إذا كان فى الإمكان مشاهدة شىء آخر فى برمنجهام فى ذلك الوقت من الليل!!..

لاحظت شيئاً غريباً جداً اندهشت له فى البداية؛ فلما فسرته لى «سو» عندما سألتها اندهشت أنا من نفسى وتذكرت المثل الشعبى الذى نقوله فى مصر (يموت المعلم ولا يتعلم).. بمعنى أن الواحد يظل يتعلم كل يوم شيئاً جديداً حتى آخر يوم فى حياته.. فبعد سنوات طويلة من الحياة الدائمة المستقرة فى أوروبا لم يخطر

ذلك الشيء الذى أثار دهشتى اليوم على بالى ولا مرة واحدة من قبل؛ واحتاج الأمر إلى أن أتلقى وأتعلم درساً جديداً فى كيفية التعامل مع الحياة الأوروبية من فتاة فى بداية العشرينيات من عمرها، يعنى أقل من نصف عمرى..

كنت قد لاحظت أن «سو» عندما جاءت لتأخذنى من الفندق قد جاءت فى سيارتها الأنيقة الشيك الوجيهة؛ لكن عندما خرجنا من الفندق لنذهب إلى المسرح طلبت «سو» من فتاة الاستقبال فى الفندق أن تطلب لنا سيارة تاكسى!!.. فدهشت أنا، بل ووجمت: هل لا تريد «سو» أن تشاهد وأنا فى صحبتها فى سيارتها!؟.. هل هى فتاة محافظة إلى هذا الحد!؟.. لكننا سوف نشاهد معاً ونحن داخلان إلى المسرح، ونحن خارجان من المسرح، ونحن جالسان متجاوران داخل المسرح، ونحن نتناول العشاء معاً فى الرستوران أو المطعم، ونحن عائدان إلى الفندق، بل ونشاهد معاً الآن فى التاكسى ونحن ذاهبان إلى المسرح.. فما معنى ذلك التصرف الغريب والحركات البلدى التى ليس لها داعٍ من «سو»!!..

ولم أشأ أن أبدأ السهرة من أولها وأنا مشدود هكذا؛ فملت على «سو» ونحن فى التاكسى وسألتها، فأجابتنى على الفور ببساطة البنت الأوروبية منظمة التفكير، بل ولعلها اندهشت لسذاجة تفكيرى أنا: «ولماذا أتعب نفسى بقيادة سيارتى فى زحام وسط المدينة وقت دخول المسارح والسينمات والملاهى!؟.. ولماذا أتعب نفسى بقيادتها فى نفس الزحام بعد الخروج من المسرح!؟.. ولماذا أتعب نفسى فى البحث عن مكان لأركنها فيه حتى ننتهى من المسرح، ثم مرة أخرى حتى ننتهى من العشاء!؟.. وغالباً لن أجد مكاناً قريباً من المسرح الذى سوف ندخله أو الرستوران الذى سنتناول فيه العشاء.. لكن؛ وبنفس تكلفة البنزين التى كنت سأنفقها لو ذهبت بسيارتى + رسوم ركن السيارة مرتين فى وسط المدينة؛ التاكسى يأخذنا من أمام باب الفندق لننزل منه أمام باب المسرح، ثم تنتهى علاقتنا به، وهكذا بعد المسرح، ثم بعد العشاء والسهرة يأخذنا من حيث نحن لينزلنا أمام باب الفندق دون أن نشغل نفسنا بركن سيارتى ولا لدقيقة واحدة»..

فعلاً طلعت «سو» فتاة محافظة، لكن على سيارتها..

* * *

المسرحية التى دعتنى الجميلة «سو» إلى مشاهدتها على مسرح [هيبودروم Hippodrome] هى مسرحية غنائية استعراضية بعنوان [٧ عرايس لـ ٧ أشقاء Seven Brides For Seven Brothers].. من نوعية [سيدتى الجميلة] و [صوت الموسيقى] و [قصة الحى الغربى] و[أوليفار] و [غناء تحت المطر] وغيرها.. وعندما يحل الظلام على مدينة برمنجهام فإنها لا تنام؛ وإنما تبدأ فيها حياة من نوع آخر؛ شأن كل المدن الأوروبية وأغلب العواصم العربية الآن: حياة الليل كاملة، ابتداءً من المسارح التى تقدم المسرحيات والأوبرات والأوبريتات الغنائية، إلى الكباريهات والملاهى الليلية، وعروض موسيقى الجاز أو الموسيقى الكلاسيك والسيمفونية، إلى (علب الليل) أو البارات، التى يسمونها هنا [Pub] اختصاراً لكلمة [Public].. وتأتى الفرق المسرحية الشهيرة من لندن ومن كل مكان لكى تقدم عروضها الأولى على مسارح برمنجهام، على اعتبار أنها المدينة رقم ٢ فى إنجلترا، خصوصاً على [مسرح برمنجهام التجريبى]، حتى تستوى وتنضج وتأخذ شكلها النهائى فتنتقل إلى منطقة الـ [ويست إند West End] أو حى المسارح والملاهى ودور السينما الشهير فى لندن، وهو منطقة [ستراند] و [ليستر سكوير] و [بيكاديللى] و[سوهو] و [كوفنت جاردن ]..

على مائدة العشاء فى ركن هادئ فى مطعم إيطالى مضاء بالشموع، تستطرد الجميلة «سو برنارد» تحكى لى عن جانب المرح واللهو فى حياة برمنجهام:

– فى برمنجهام العديد من الرستورانات والمطاعم مختلفة الأنواع والجنسيات والتخصصات؛ ابتداءً من المطاعم التى تقدم منتجات البحر فقط: الأسماك والقواقع والجمبرى والكابوريا والإستاكوزا وما نسميه فى مصر (أم الخلول)، إلى المطاعم التى لا تقدم إلا الطيور، إلى المطاعم التى تقدم الوجبات والأكلات الإيطالية الشهيرة وألف صنف من المكرونة، إلى المطاعم اليونانية والصينية والتركية والهندية والعربية

والشـرقية ومطاعم الـ (شـيش كباب)، إلى المطاعم الشعبية الرخيصة التى تقدم لك – على الواقف – الوجبة الإنجليزية الشهيرة الـ [فيش آند تشيبس Fish & Chips] أو السـمك والبطاطس المقلى. والعديد من هذه المطاعم؛ خصوصاً التركية واليونانية والعربيـة؛ تقدم عروضاً فنية قومية كالرقص الشـرقى والرقص الشـعبى اليونانى، أثناء تناول العشاء..

إن مدينة برمنجهام تعمل وتبذل جهداً شـاقاً أثنـاء النهار؛ لكنها تعرف أيضاً كيف تستمتع بأمسياتها ولياليها..

* * *

كنت أظن أن برنامجى مع الجميلة «سـو برنارد» سوف ينتهى بعد السهرة فى المسـرح ثم العشـاء؛ لكننى لم أكن أتوقع؛ وإن كنت قد سـعدت له كرجل عزب طروب ليس وراءه من تحاسبه وتعد عليه أنفاسه؛ أن تستمر سهرة «سو» معى حتى الخامسة صباحاً..

تستطرد «سو» بعد أن عدنا إلى الفندق:

– إن برمنجهام شـهيرة أيضاً بمهرجاناتها السـياحية التى تقام فيها على مدار العـام.. وعلى سـبيل المثال فإن المدينة تحتفل فى شـهر مايـو بانتخاب عمدتها الجديد الذى ينتخب مرة كل عام، باستعراض هائل يقام فى شوارع برمنجهام يضم فرق الموسـيقى العسكرية النحاسـية وطوابير الفتيات الجميلات والملابس التنكرية والفرسان وعربات الزهور..

وفى نهاية شـهر مايو حين تتفتح الزهور فى حدائق برمنجهام يقام مهرجان الـ (تيوليب) السـنوى الذى يأتى لمشـاهدته عشرات الألوف من برمنجهام وخارج برمنجهـام.. ثم يأتـى الصيف ومعه مهرجان الرقص الشـعبى الإسـكتلندى، ثم مهرجـان سـباقات الدراجات، ومهرجانات الرقص الشـعبى غير الإسـكتلندى، والعروض الموسيقية المفتوحة التى تقدمها الفرق الموسيقية فى الهواء الطلق فى حدائق برمنجهام.. و– لا تندهش – هناك مسابقة للرقص الشرقى تقام فى برمنجهام كل

سنة، على شرط ألا تكون المشتركات فيها من الراقصات المحترفات.. كما يحتفل الإسكتلنديون من أهالى برمنجهام بعيدهم السنوى، ويقام سباق الـ ٣٥ كيلومتراً سيراً على الأقدام، وهو سباق طريف يشترك فيه متسابقون من كل الأعمار حتى أكثر من ٨٠ سنة!!..

هذا العام فى شهر يونيو؛ تحتفل برمنجهام بالعيد المئوى لاختراع السيارة، التى كان أول ظهورها فى شوارع برمنجهام فى شهر يونيو عام ١٨٨٥.. وفى بداية شهر أغسطس يحتفل أطفال المدينة بـ (عيد المرح) الذى يستمر أسبوعاً كاملاً.. أما فى نهاية شهر أغسطس فيقام استعراض برمنجهام الرئيسى الذى يتمتع بشهرة عالمية ويجتذب مئات الآلاف من كل أنحاء العالم لمشاهدته..

وفى شهر نوفمبر يحتفل أهالى برمنجهام بالاحتفال الذى تحتفل به كل مدينة وقرية فى إنجلترا كلها، وهو (احتفال الحرائق) أو احتفال [جاى فوكس Guy Fawkes]، الذى تشعل خلاله النيران فى دمى ترتدى ملابس رجل وترمز لـ [جاى فوكس] الذى أعدم حرقاً عام ١٦٠٥ بتهمة محاولة حرق البرلمان فى لندن، بينما تشتعل سماء المدينة كلها بالألعاب النارية والصواريخ الملونة.. وتستمر هذه الاحتفالات لأكثر من أسبوع ينتهى يوم ٥ نوفمبر..

وطبعاً فى شهر ديسمبر تتزين برمنجهام كلها بالزينات والأضواء الملونة استعداداً لأعياد الكريسماس ولوداع السنة المنتهية واستقبال السنة الجديدة..

* * *

وإذا كانت صناعات مدينة برمنجهام وحدها تمثل نحو ٢٥٪ من مجموع صادرات بريطانيا إلى العالم كله؛ فلعل أهم صادرات برمنجهام إلى العالم هو: اسمها نفسه!!.. فاسم [برمنجهام] يطلق الآن على ٣٠ مكاناً على خريطة العالم فى ٥ دول هى: إستراليا وكندا ونيوزيلاندا وإيرلندا، والولايات المتحدة الأمريكية وحدها بها ٢١ مدينة تحمل اسم [برمنجهام].. ليس ذلك فقط – تستطرد «سو برنارد» بفخر – بل إن اسم [برمنجهام] قد وصل إلى خارج العالم كذلك.. وصل إلى القمر.. فإن الفوهة رقم ٣٥٧ فوق سطح القمر قد أطلق عليها أيضاً اسم [برمنجهام]!!..

وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت «سو برنارد» عن الكلام المباح..

* * *

وبطبيعة الحال، وكما اعتدت أن أفعل فى كل مدينة أوروبية أزورها؛ لم يكن ممكناً أن أجىء إلى برمنجهام دون أن أبحث عن المهاجرين المصريين والعرب فيها وألتقى ببعضهم.. كنت قد زرت برمنجهام مرة من قبل؛ وفى تلك الزيارة عرفت أن فى برمنجهام أكبر تجمع عربى أو جالية عربية فى إنجلترا – بعد لندن بطبيعة الحال – إذ يبلغ تعدادها ٣٠ ألف عربى أغلبهم من اليمنين الشمالى والجنوبى، يشتغلون فى الصناعات الثقيلة كمصانع الحديد والصلب ومصانع السيارات، وعدد قليل من المصريين..

كان موعدى مع الطبيب المصرى «عوض صدقى قلينى» فى منتصف الليل فى عيادته التى هى جزء من بيته، الذى لعله واحداً من أقدم بيوت مدينة برمنجهام.. فالدكتور «قلينى» نفسه أقدم من الملكة «إليزابيث» فى بريطانيا بزمان، بحكم أنه جاء إلى بريطانيا قبل أن تولد الملكة أليزابيث، فهو – باختصار – من نفس عمر أم الملكة إليزابيث ومولود معها فى نفس الدفعة، أقصد فى نفس السنة: ١٩٠٠!!..

– لا أعرف تاريخ ميلادى بالضبط لكننى غالباً من مواليد سنة ١٩٠٠، لأننى جئت إلى بريطانيا سنة ١٩١٠ وأنا تلميذ فى ابتدائى، فالتحقت بمدرسة [مارجيت سكول] فى مدينة [مارجيت] بين لندن و [دوفر].. وحين حصلت على البكالوريا أراد أبى أن يلحقنى بكلية التجارة، وكانت وجهة نظره فى ذلك أن التاجر يستطيع أن يكسب ١٠٠٠ جنيه فى ساعة واحدة بينما لا يستطيع الطبيب أن يكسبها فى سنة كاملة.. لكننى كنت أحب الطب فجئت إلى مدينة برمنجهام والتحقت بكلية الطب فيها وتخرجت عام ١٩١٠!!..

[عذراً للقراء للتواريخ غير المتوافقة تماماً، لكن العتب على الذاكرة والسن وبعد المسافة!!]..

يستطرد الطبيب المصرى العجوز الدكتور «عوض صدقى قلينى» يحكى لى حكايته مع المهجر فى بريطانيا:

– اشتغلت بعد تخرجى فى كلية الطب فى أحد مستشفيات برمنجهام لمدة ٦ سنوات قبل أن أشترى هذه العيادة التى نجلس فيها الآن، ومنذ نحو سنة ١٩٢٠ وأنا أمارس عملى فى نفس العيادة.. ومنذ جئت إلى إنجلترا لم أزر مصر سوى مرتين فقط: مرة سنة ١٩٢٣ والثانية والأخيرة سنة ١٩٢٥.. لكن الحقيقة فإن «لويس» و «نشأت» أولاد أخى المرحوم «صادق صدقى قلينى» دايماً بييجوا يزورونى فى كل صيف هم وزوجاتهم وأولادهم وينزلون ضيوفاً علىّ.. وده بالنسبة لى أحسن كثيرا.. فمن ناحية أنا صحتى لم تعد تحتمل شحططة السفر إلى مصر أو إلى أى مكان، ومن ناحية تانية لما أصرف أنا فلوسى على المصريين أحسن ما تأخدها منى الضرايب هنا!!..

ولاحظ الدكتور «عوض» أننى نظرت نظرة سريعة إلى السيدة العجوز التى استقبلتنا معه ورحبت بنا وقدمت لنا الشاى وتجلس معنا الآن؛ فقال لى على الفور بما يشبه الاحتجاج: «لأ..دى مش مراتى.. دى مجرد صديقة قديمة من أيام الصبا تعيش معى كمديرة للبيت، وهى من نفس عمرى تقريباً.. وأنا لم أتزوج أبداً.. أولاً لأننى لا أحب النساء الإنجليزيات، وثانياً لأن النساء هن أكبر مقامرة فى حياة الرجل وأنا لا أحب المقامرة، لأن المقامر غالباً بيخسر أكثر مما يكسب.. وإذا قلنا ذلك بشكل آخر؛ فالمقامر خسران حتى لو كسب!!..

ظريف جداً الدكتور «عوض صدقى» ودمه خفيف إلى أقصى حد وحاضر النكتة والبديهة على رغم نحو قرن كامل من الزمن يحمله على كتفيه، وعلى رغم أننا دققنا بابه لنزوره فى بيته فى مدينة برمنجهام بعد منتصف الليل.. سألت الدكتور «عوض» هل لازال يعمل فى عيادته وحده أو له مساعدون من الأطباء الشبان ينقل إليهم علمه وخبرته وفنه!؟..

– فى الوقت الحالى ليس لدىّ مساعدون، منذ مات آخر مساعد لى من نحو ٣ سنوات (!!).. والأطباء الشبان بمجرد أن يتخرجوا بيروحوا السعودية والخليج والبلاد العربية لأنها تعطيهم ٢٠٠٠ جنيه مرتبا شهريا..

سألته: ألا تفكر فى العودة إلى مصر يوماً ما!؟..

قال: حين أقرر أن أتقاعد!!..

قلت مندهشاً: فى سنك هذا ولم تقرر أن تتقاعد بعد!؟.. متى تتقاعد إذن!؟..

قال على الفور: حين أجد شيئاً آخر أعمله..

* * *

حين تخرج الشاب المصرى «أديب أمين الديرى» فى كلية الطب بجامعة [فؤاد الأول] – جامعة القاهرة الآن – عام ١٩٤٢ كان عمره ٢٧ سنة وكان مليئاً بالصحة والحيوية والشباب؛ فحاول أن يلتحق بالجيش المصرى كطبيب، لكنه فشل على رغم نجاحه فى الكشف الطبى.. فلم يجد أمامه إلا أن يتطوع فى الجيش البريطانى الذى كان يحتاج فى ذلك الوقت فى عز الحرب العالمية الثانية إلى (أطباء ميدان).. وراح الطبيب الشاب «أديب» مع الجيش البريطانى إلى شمال أفريقيا، ثم نزل مع قوات الحلفاء فى [سلانو] بجنوب إيطاليا.. وحين انتهت الحرب اكتشف الطبيب الشاب «أديب» أنه فى حاجة إلى استعادة معلوماته الطبية؛ إذ إن طب ميدان القتال والتعامل مع الجرحى من الجنود يختلف تماماً عن طب العيادات والتعامل مع المرضى المدنيين.. فجاء مع الجيش الإنجليزى العائد من الحرب إلى بريطانيا.. وتصادف أن كان فى مدينة برمنجهام فى ذلك الوقت طبيب مصرى اسمه الدكتور «إسكندر سليمان»، ومرض الدكتور «سليمان» فاختار الطبيب المصرى الشاب العائد من الحرب ليساعده فى عيادته مؤقتاً خلال فترة مرضه.. لكن المرض طال فطال بقاء الشاب «أديب» معه؛ حتى اختار الله الدكتور «سليمان» إلى جواره فمات وترك العيادة بما فيها لتلميذه الدكتور «أديب»، وترك له أيضاً ١٠ آلاف مريض كانوا سيصبحون بلا طبيب لو تخلى عنهم الدكتور «أديب» وعاد إلى مصر.. فشعر بأنهم (أمانة فى رقبته) فقرر البقاء فى إنجلترا من وقتها – منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ – حتى اليوم!!..

وتزوج الطبيب الشاب – وقتها – «أديب أمين الديرى» من الإنجليزية «مارى»،

ولديهما الآن ٤ أبناء: «أمين» و «يوسف» و «رمسيس»، والبنت اسمها «رفقة فج النور»!!.. «رفقة» هو اسم أمه، و «فج النور» هو اسم جدته!!..

وعلى رغم أن الدكتور «أديب» آخر مرة زار فيها مصر كانت عام ١٩٥٢؛ إلا إن والدته وشقيقتيه جئن ليعشن معه هنا فى المهجر.. الشقيقة الصغرى «مجيدة» جاءت للدراسة هنا فى أوائل الخمسينات فاستقرت هنا وعملت هنا وحصلت على الدكتوراة فى علم النفس.. وفى أوائل الستينات وجدت الأم والشقيقة الصغرى «عفيفة» أنهما قد أصبحتا وحيدتين فى مصر، فجاءتا أيضاً لتنضما إلى «أديب» و «مجيدة»، وتصبح الأسرة كلها الآن فى المهجر الإنجليزى البرمنجهامى..

قطعًا لو كان الجيش المصرى قد قبل الطبيب الشاب «أديب أمين الديرى» حين تقدم للالتحاق به فى أواسط الأربعينات؛ لتغير شكل حياته تمامًا؛ ولكان قد أصبح الآن (لواء طبيب بالمعاش)، فالدكتور «أديب» من مواليد عام ١٩١٤..

* * *

إذا أردت أن تقوم بتصنيف أفراد الجالية اليمنية فى إنجلترا؛ فسوف تجد أنك لن تستطيع أن تضع فى خانة (المهنة السابقة) على مجيئهم إلى المهجر الإنجليزى غير مهنتين فقط. فالمهاجرون اليمنيون فى إنجلترا لم يكونوا يعملون فى وطنهم الأصلى فى غير: الزراعة، أوعمالاً فى ميناء عدن!!..

من ذلك لن يكون صعباً أن تقدر المستوى الاجتماعى للمجتمع اليمنى فى المهجر هنا فى إنجلترا؛ فهو لم يزد كثيراً عما كان أثناء وجوده فى اليمن قبل الهجرة إلى هنا.. ومعظم الزوجات اليمنيات إما كن فى الوطن يعملن فى فلاحة الأرض وزراعتها، أو كن مجرد ربات بيوت فقط. الأمية وعدم معرفة القراءة والكتابة باللغة العربية منتشرة جداً بين الرجال اليمنيين هنا؛ فما بالك بالنساء!!..

وإذا كان الرجل اليمنى المهاجر إلى إنجلترا منذ ١٠ أو ١٥ أو حتى ٢٠ سنة، ويخرج من البيت كل يوم إلى عمله ويعمل إلى جانبه ومن حوله عشرات ومئات من العمال الإنجليز فى كل مكان؛ ومع ذلك فهو لا زال حتى الآن يجد صعوبة فى

التفاهم أو التعامل باللغة الإنجليزية؛ فكيف نتصور شكل الزوجة اليمنية الموجودة هنا وهي لا تكاد تخرج من بيتها إلا إذا احتاجت إلى الذهاب إلى الطبيب، ولا تكاد تزور أو تزار، لا مع جاراتها ولا مع غير جاراتها، وبالتالى لا تزور ولا تزار ولا تتزاور مع أسر وعائلات رفاق زوجها فى العمل من الإنجليز.. كل ذلك يجعل الحياة هنا فى المهجر الإنجليزى صعبة جداً على المرأة اليمنية ويجعلها حبيسة البيت لا تكاد تخرج منه.ليس ذلك فقط؛ ليست المسألة مسألة (حياة اجتماعية) فحسب؛ بل إن هذه الحبسة فى البيت لا تكاد ترى الشمس خارجه؛ ذلك يجعل المرأة حساسة جداً مع الشتاء الإنجليزى قارس البرودة الذى ينقض عليها بأمراضه، خصوصاً أمراض الحساسية التى تصاب بها اليمنيات فى إنجلترا بشكل عام يكاد يمثل (ظاهرة مرضية يمنية)!!..

ويمكنك أن تستمع إلى نفس الشكوى دائماً؛ فإن عدم تواؤم الزوجات اليمنيات مع شكل الحياة الإنجليزية، لا (اجتماعياً) ولا (صحياً)؛ فإن ذلك يجعلهن دائمات الإلحاح على أزواجهن للعودة بالأسرة كلها إلى الوطن.. وغالباً ما يستجيب الأزواج اليمنيون إلى ذلك الإلحاح لأنهم هم أيضاً لا يقلون عن زوجاتهم رغبة فى العودة إلى اليمن، لنفس الأسباب: عدم التواؤم مع شكل الحياة الإنجليزية فى المهجر هنا..

* * *

كان طبيعياً بعد النجاح الذى حققه «على صالح العودلى»، واتساع أعماله ومزارعه الخمس لتربية الدواجن والأغنام والأبقار؛ كان طبيعياً أن يستعين على إدارة أعماله أول ما يستعين بإخوته الثلاث الذين كان قد تركهم وراءه فى اليمن.. ولبى النداء على الفور شقيقاه «محمد» و«سالم»، أما «عبد الله» فقد فضل البقاء فى اليمن لأنه كان أكثرهم تعلقاً بالتعليم..

«سالم صالح العودلى» كان تلميذاً فى سنة أولى ثانوى فى عدن حين قطع دراسته ليجىء إلى إنجلترا فى عام ١٩٧٥.. لكنه - كعادة اليمنيين الذين يزوجون أبناءهم

فى سـن مبكرة جداً؛ كان تلميذ سـنة أولى ثانوى متزوجـاً!!.. فترك وراءه كتبه وكراريسـه وزوجته فى اليمن وجاء إلى إنجلترا - برمنجهام - لكى يعينه شـقيقه «علـى» فـى وظيفة (مدير مجزر) على الفور.. (المجـزر) هو المكان الذى تذبح فيه الخـراف والعجول.. وفى نفس الوقت كانت مسـألة التلمـذة لازالت عالقة بذهن «سـالم»؛ فالتحق بمدرسـة ليلية فى برمنجهام ليتعلم اللغة الإنجليزية التى تكفى لكى يسـتمر بعد ذلك فى دراسـة أعلى فى المحاسـبة، ما يوازى (دبلوم تجارة) عندنا، ويتخرج منها بعد ٣ سـنوات فيتولى كل المسائل المالية والإدارية والتجارية لمزارع شقيقه «على»..

● ومـاذا عن زوجتك اليمنية التى كنت قد تركتها وراءك فى اليمن عندما جئت إلى هنا!؟..

- سافرت إلى الوطن فى أجازة بعد فترة قصيرة من مجيئ إلى برمنجهام وعدت أنا وزوجتى معى..

● إذن فقد قررت أن تستقر هنا فى المهجر فى برمنجهام!؟..

- أبداً.. ثلاث سنوات أخرى نعود بعدها إلى الوطن..

* * *

«المـادة وحدها هى التى تضطرنى إلى البقاء هنا فى المهجر.. فإننى لازلت مديناً ببعض الديون ينبغى أن أسـددها قبل العودة إلى الوطن، ورحلة العودة نفسـها أنا وزوجتـى وبناتى الثلاث تحتـاج إلى ٥ تذاكر على الطائرة ثمنها ليس متيسـراً لى الآن.. كمـا أننى عندما أعود إلى الوطن بعد ١٠ سـنوات غربة فى المهجر لابد وأن أجمع قبلها بعض المال آخذه معى لكى أضمن لبناتى الثلاث مستقبلهن، بالإضافة إلى أن لى فـى اليمـن أخاً أنا الـذى أنفق عليه.. لهذه الأسـباب كلها، فقط، فأنا مضطـر إلى البقاء فى المهجر البريطانى لمدة ٤ أو ٥ سـنوات أخرى على رغم أنفى ورغـم مرضى وعلى رغم عدم تأقلمى مع الحياة الإنجليزية بعد سـنوات طويلة من وجودى فى إنجلترا»!!..

هكـذا قال لى «أحمد صالح محمد» المهاجر اليمنى الذى يعمل سـائقاً فى مصنع للزجاج هنا فى برمنجهام، وفى الوقت نفسه هو سكرتير نقابة العمال اليمنيين فى المدينـة التى تعتبر أكبر مدن بريطانيا بعـد مدينة لندن.. «أحمد صالح محمد» من اليمنيـين القلائل الذين جاءوا بزوجاتهم معهم مـن اليمن.. زوجته «حليمة» أيضاً تقول إن الحياة هنا فى بريطانيا تختلف كثيراً جداً عن الحياة فى اليمن:

– هنـا ما بنقدر نحكـى معاهم بلغتهم ولا هم بيقدروا يحكوا معانا بلغتنا.. ولو كان لنا هنا أهل أو أسـرة كنا اسـتطعنا أن نبقى هنا فترة أطول.. لكن إحنا بلادنا عظيمة وطيبة وبنرجع لها أحسـن لنا ولمسـتقبل بناتنا.. وإن شـاء الله بعد سنتين أو ثلاثة نقدر نعود لوطننا فى اليمن..

«حليمـة» حين جاءت من اليمن الجنوبية لأول مرة فى عام ١٩٧٥ جاءت معها بابنتيها «أمينة» و «إيمان» – ٦ سـنوات و ٣ سـنوات وقتها – ثم أضافت إليهما «هناء» بعد نحو ٣ سـنوات.. زوجها «أحمد صالح محمد» أجره كسائق ٦٠ جنيهاً فى الأسبوع، لكن هذا الأجر لا يكفيه هو وأسرته الصغيرة، فيضطر أحياناً إلى العمل ساعات إضافية لكى يزيد من دخله، ومع ذلك:

– أنـا عارف أننى حين أعود إلى الوطن سـيكون أجـرى هناك أقل من أجرى هنا كثيراً؛ لكن أيضاً الأسـعار هناك أقل من هنا كثيراً، والظروف الاقتصادية فى الوطـن طيبة والوظائف موجودة وأى عامل يعود مـن المهجر يجد فى الوطن عملاً فى انتظاره..

* * *

تصـادف مع وجودى فـى برمنجهام احتفال العمال اليمنيـين فى المدينة بعيد استقلال اليمن.. ودعا القنصل اليمنى فى برمنجهام عدداً كبيراً من أعضاء الجالية – ودعانى معهم – إلى عشـاء بسـيط فى مبنى القنصلية، أعقبه حفل سمر، بسيط أيضاً، غنى فيه العاملان اليمنيان «عبد الله قاسم» و «عبد الودود عبد الرحيم» بعض الأناشـيد والأهازيج والأغانى العاطفية اليمنية، وقام القنصل وبعض شباب العمال

ليرقصوا رقصاتهم الوطنية القومية.. «عبد الله قاسم» عزف على العود وغنى أغانى وأناشيد وطنية، لأنه لا يحب أن يغنى الغناء العاطفى.. «عبد الله» جاء إلى المهجر هنا وعمره ١٣ سنة، وهو يعمل الآن فى مصنع لصهر الحديد كسائق ونش.. وقد اعتاد وألف الحياة فى إنجلترا وتعود عليها، على رغم أنه حتى الآن – مثل آلاف غيره من العمال اليمنيين هنا – لازال لا يجيد اللغة الإنجليزية وإن كان يتكلمها فى حدود التفاهم العادى البسيط.. ومثله أيضاً مثل أغلب اليمنيين فى المهجر ترك زوجته وراءه فى اليمن.. حاول أن يحضرها إلى هنا لكن أمه – أمه هو وليس أم زوجته– اعترضت على سفر زوجة ابنها حتى لا تبقى الأم وحيدة فى الوطن!!.. ومن الجائز أيضاً أن تكون الأم قد أرادت أن تضمن استمرار الصلة بين الابن فى المهجر والأسرة فى الوطن بالاحتفاظ بزوجته هناك، فمن يدرى، فربما إذا سافرت إليه زوجته هناك انقطعت صلتهما معاً بالأهل فى الوطن وضاعا معاً فى زحام المهجر الكبير البعيد: بريطانيا!!..

* * *

«بعد أن قضيت سنوات طويلة فى المهجر الإنجليزى فى برمنجهام؛ وبعد أن وصل أجرى هنا إلى ١٠٠ جنيه إسترلينى فى الأسبوع؛ وبعد أن ضحيت بأجمل سنوات عمرى وشبابى فى إعادة بناء بريطانيا التى خربتها الحرب مع الآلاف غيرى من العمال الذين هاجروا إليها من أوطانهم؛ الآن أصبح الإنجليز لا يريدوننا هنا بعد أن لم يعودوا فى حاجة إلينا.. والذى كان قد وصل من العمال اليمنيين إلى مركز (رئيس عمال) أو (رئيس واردية )؛ عادوا فأنزلوه إلى مرتبة عامل عادى وجعلوا عليه رئيساً إنجليزياً منهم، وقالوا له بمنتهى الوضوح الجارح ما معناه أن «ابن البلد أحق وأولى من الغريب»!!.. الآن فقط بعد أن انتهت حاجتهم إلينا اكتشفوا أننا غرباء وبدأوا يضايقوننا فى أعمالنا ويضيقوا علينا فى الرزق حتى نزهق فنرحل ونعود إلى بلادنا.. وفعلاً قررت العودة إلى وطنى وأشتغل فى بلدى بدلاً من أن أظل غريباً هنا طول عمرى..

انتهى كلام «محمد بن محمد عبد الكريم» عضو لجنة اتحاد العمال اليمنيين فى برمنجهام.. ولا تعليق!!..

* * *

وفى دردشات سريعة مع بعض العمال اليمنيين الذين التقيت بهم فى مدينة برمنجهام:

● «عبد الخالق عبد الرحمن».. جاء إلى برمنجهام وعمره ١٩ سنة.. كان يعمل مزارعاً فى اليمن وجاء فى البداية إلى مدينة [شيفيلد] ثم إلى برمنجهام ليعمل فى مصنع للحديد.. سافر إلى الوطن مرات عديدة منذ استقر هو هنا، لأن أسرته كلها لازالت فى الوطن حتى الآن..

● «عبد الرحمن شايف».. جاء إلى المهجر هنا عام ١٩٦٠ وعمره ٢١ سنة.. أيضاً كان فى اليمن مزارعاً وجاء إلى هنا ليعمل (لحام أكسجين) فى مصنع لقطع غيار السيارات.. لديه زوجة و٦ أولاد تركهم جميعاً وراءه فى اليمن ولم يجيئوا إلى هنا على الاطلاق، ولا حتى فى زيارات!!..

● «صالح على أسعد».. جاء إلى المهجر هنا عام ١٩٥٩ وكان عمره ٢٥ سنة، ليعمل فى مصنع أخشاب على رغم أنه كان فى اليمن مزارعاً.. هو أيضاً لم تحضر أسرته معه إلى المهجر.. وقد أدهشنى «صالح» حين أصر إصراراً غريباً، إلى حد العصبية، على عدم ذكر عدد أولاده الذين تركهم وراءه فى اليمن!!.. يمكن خايف من الحسد..

● «مسعد عياد محمد».. كان موظفاً فى جمارك اليمن قبل أن يجئ إلى بريطانيا مهاجراً عام ١٩٧٠ وكان عمره وقتها ٢٣ سنة، ليعمل كعامل فى مصنع قطع غيار سيارات.. ترك أسرته وراءه فى اليمن ووالده هو الذى ينفق على زوجته وأولاده خلال وجود «مسعد» فى المهجر..

● «صالح على صالح».. جاء إلى المهجر فى بريطانيا عام ١٩٥٩ وكان عمره وقتها ٢٧ سنة.. هو أيضاً كان فى اليمن فلاحاً.. أغلب المهاجرين إلى بريطانيا كانوا

فلاحين فى اليمن لأنه فى عهد الاستعمار البريطانى لليمن – الجنوبى – لم تكن هناك أى صناعات فى اليمن.. «صالح» يعمل الآن فى مصنع قطع غيار سيارات.. فى برمنجهام مصانع عديدة لقطع غيار السيارات، كل مصنع منها متخصص فى جزء صغير أو عدة أجزاء صغيرة من جسم السيارة.. فى المصنع الذى يعمل فيه «صالح» ٣٠٠ عامل من مختلف الجنسيات، منهم نحو ٥٠ يمنياً.. لكن العمال الإنجليز الآن يمثلون أغلبية فى كل مصانع برمنجهام.. لديه فى الوطن الأم اليمن ٧ أولاد لم يسمعوا عن بريطانيا إلا من خطابات أبيهم فقط؛ فهم لم يجيئوا إليها ولم يروها أبداً..

● «عبد الحافظ حسين».. أيضاً كان مزارعاً فى اليمن قبل أن يهاجر إلى بريطانيا فى عام ١٩٦٠ وعمره ٢٣ سنة.. لازالت اللغة الإنجليزية تمثل مشكلة بالنسبة إليه بعد كل هذا العمر فى المهجر.. يتقاضى ٦٠ جنيهاً – إسترلينياً – فى الأسبوع، وعلى رغم أن مثل هذا المرتب يعتبر مرتباً مرتفعاً جداً فى اليمن؛ إلا أن «عبد الحافظ» يفكر جدياً فى العودة إلى الوطن حتى ولو لم يحصل على مثل هذا المرتب هناك؛ فقد افتقد زوجته وأولاده الخمس الذين ظلوا فى الوطن ولم يحضروا معه إلى المهجر..

* * *

حين جاء الحاج «مسعد» إلى بريطانيا مهاجراً من اليمن عام ١٩٥٦؛ ترك وراءه فى الوطن زوجة يمنية وولدا وبنت.. فى المهجر طلق الزوجة اليمنية وتزوج «كاثرين» الإنجليزية وأنجب منها بنتا واحدة هى «ميريام».. وحين بلغت «ميريام» الثامنة من عمرها أرسلها الحاج «مسعد» إلى الوطن فى اليمن لتتربى وتكبر هناك، وتزوجت «ميريام» من شاب يمنى وعاشت فى اليمن فى تبات ونبات وخلفت للحاج «مسعد» أحفاد وحفيدات..

بعد ٥ سنوات من زواج الحاج «مسعد» من الإنجليزية «كاثرين» طلقها هى أيضاً وتزوج من إنجليزية أخرى هى «آن»، التى كانت حين تعرف إليها تعمل فى

مصنع للمعادن في برمنجهام أيضاً، وأنجب منها ٤ أولاد، كلهم صبيان: فيصل ونعمان ويوسف وعادل..

استغرقت المسألة ١٦ سنة كاملة من الزواج بين الحاج «مسعد» و«آن» قبل أن (يكتشف) أن طباعه كرجل شرقي لا تتفق مع طباع زوجته الإنجليزية التي تستطيع بحكم عاداتها وتقاليدها أن (تصادق) رجالاً آخرين وتلتقي بهم و( تخرج) معهم دون حاجة إلى إذن من الزوج أو إلى أن تفعل ذلك من وراء ظهره.. ست إنجليزية صريحة وواضحة وتربت على كده.. فطلق الحاج «مسعد» زوجته رقم ٣ «آن» في المحكمة الإنجليزية، وهو الآن في طريقه للزواج من الزوجة رقم ٤ التي اشترط أن تكون يمنية، لكي يصبح رصيده من الزوجات متعادلاً: ٢ يمنيات و٢ إنجليزيات.. العروس اليمنية الجديدة التي وقع عليها اختيار الحاج «مسعد» رآها مرة واحدة وهي طفلة عمرها ١٢ سنة حين زار الوطن آخر مرة منذ ١٠ سنوات، ويتذكرها جيداً (!!).. فطلب من شقيقه الموجود في اليمن أن يخطبها له.. وخطبها له فعلاً!!..

الحاج «مسعد» لديه الآن (طقمان) من الأبناء: ٣ في اليمن و ٤ في بريطانيا.. أولاده الذين في اليمن لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية ولم يروا إنجلترا طول عمرهم - باستثناء «ميريام» التي ولدت في إنجلترا وذهبت إلى اليمن طفلة فتعلمت اللغة العربية ونسيت اللغة الإنجليزية -، وأولاده الذين في إنجلترا لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية ولم يروا اليمن طول عمرهم.. وبالتالي لم ير الأخوة بعضهم بعضاً ولا يعرفون بعضهم بعضاً لأنهم لم يلتقوا طول عمرهم.. وبعد أن يتم زواج أبيهم للمرة الرابعة سوف ينتظرون - قطعاً - مجموعة ثالثة من الإخوة والأخوات!!..

صورة أخرى مختلفة تماماً عن الصورة السابقة: «صالح أحمد عبد الله مفلحي» هاجر إلى بريطانيا عام ١٩٥٣ وعمل في أحد مصانع برمنجهام، وتزوج بعدها بسبع سنوات من الإنجليزية «كارو» - اسمها الآن «صباح» - التي كانت تعمل في

إحدى الصيدليات، وأنجبا ٤ أبناء: فتاتين كبيرتين الآن، ثم جاء بعدهما «راجح» و «أمينة».. بعد عدة سنوات من زواج «صالح» و «كارو» اشتكت له زوجته من أن صاحب الصيدلية التى تعمل بها يطاردها ويضايقها بإلحاحه.. فقرر «صالح» أن يأخذ أسرته كلها ويعود إلى الوطن الذى كان فى ذلك الوقت قد قضى بعيداً عنه ١٤ عاماً.. وفعلاً عاد إلى اليمن – الجنوبية – وأخذ معه زوجته الإنجليزية وأولاده الثلاث – لم تكن «أمينة» قد وصلت بعد، وصلت فى اليمن – الذين لا يتكلمون اللغة العربية.. وسعدت «كارو» جداً بالحياة فى اليمن، ووجدت بسهولة جداً عملاً كممرضة ومولدة فى أكبر وأهم مستشفيات عدن.. «كارو» وجدت عملاً بسهولة فى وطن «صالح»؛ لكن «صالح» نفسه ظل طوال السنتين اللتين قضاهما فى وطنه اليمن دون أن يستطيع أن يجد لنفسه عملاً!!.. ولم يستطع أن يهضم فكرة أن تعمل زوجته ولا يعمل هو؛ فقرر أن يعود إلى بريطانيا مرة أخرى.. وعاد هو وزوجته فقط وتركا الأولاد وراءهما فى اليمن.. وفى برمنجهام وجد «صالح» عملاً على الفور واشتغل.. لكنه أصر على أن تبقى «كارو» فى البيت ولا تعمل حتى لا تتعرض لمضايقات أخرى، وهى – كما رأيتها – سيدة جميلة فعلاً ومعذورين الذين يجرون وراءها ويطاردونها.. لكن لكى يرضيها «صالح» بعد أن تعودت طول عمرها على أن تعمل؛ اشترى لها محل بقالة لكى تقف هى فيه وتديره بنفسها وتعمل لحساب نفسها بدلاً من أن تعمل لحساب الآخرين.. وظل هو حتى الآن يعمل فى مصنع للحديد والصلب حتى وصل مرتبه إلى ٨٠ جنيهاً أسبوعياً..

مرة أخرى يطل الرجل الشرقى فى داخل «صالح»؛ فيقرر أن يترك ابنتيه اللتين كبرتا وأصبحتا فى سن الزواج؛ يقرر أن يتركهما فى اليمن لكى تشبا هناك وتتزوجا هناك من يمنيين كأبيهما، لأنه سوف يعود هو الآخر إلى الوطن عاجلاً أو آجلاً.. و (آجلاً) هذه فى تقديره لن تزيد عن سنتين أو ثلاثة أخرى من الآن..

فى الحقيقة؛ وجدت فى الزوجين «صالح» و «كارو»، أو «صالح» و «صباح»؛ نموذجاً لأسرة سعيدة موفقة متفاهمة على رغم اختلاف جنسية الزوجين: العربى

والإنجليزية، مما جعلنى أتمنى لو أرى هذه الصورة فى كل البيوت التى تجمع بين زوجين من جنسية واحدة!!..

* * *

فى برمنجهام مسجد وزاوية علوية إسلامية.. سمعت كلاماً كثيراً من المهاجرين اليمنيين الذين قابلتهم عن تبرعات تجمع لصالح المسجد والزاوية لكنها لا تنفق فيما جمعت من أجله، وأغلبها يختفى ولا يظهر له أثر، و.... كلام كثير أثار فضولى كصحفى؛ فقررت أن أزور هذه الزاوية..

ذهبت إلى الزاوية وقابلت الشيخ «محمد قاسم».. وهو شيخ الزاوية العلوية الإسلامية فى برمنجهام، وأيضاً شيخ مسجد نور الإسلام فى مدينة [كارديف].. الشيخ «قاسم» كان يعمل بحاراً على السفن البريطانية وقضى فى بريطانيا ٥٠ عاماً، ثم تصوف وأصبح شيخ الزاوية والمسجد..

وقابلت أيضاً «سعيد عبد الله عبدى»، وهو مسلم صومالى الأصل ويعمل – كما قال لى هو – فى وظيفة (ضابط اجتماعى) (!!).. فلما سألته عن معنى (ضابط اجتماعى) قال لى أنه مسئول عن الشئون الاجتماعية للزاوية العلوية الإسلامية فى برمنجهام.. لم يطل بقاؤنا كثيراً فى الزاوية؛ فقد طردنا منها فضيلة الشيخ الضابط الاجتماعى بمجرد أن سألته – ببراءة تماماً والله العظيم – عن الجهة التى تنفق على المسجد والزاوية وتدفع لهم مرتباتهم!!.. طردنا بعنف وقسوة وفظاظة تتعارض تماماً مع الإسلام كدين سماحة وحب ورحابة صدر و (جادلوهم بالتى هى أحسن).. فلا أتصور أبداً أن يطرد شيخ من المسجد عبداً مسلماً من عباد الله المسلمين، لأن هذا المسجد هو بيت الله وليس بيت فضيلة الشيخ الضابط. ووالله حتى لو كنا فى بيت الشيخ لما كان من اللائق أن يطردنا منه، خصوصاً بعد أن رحب بالتصوير وفرح به وعمل (بوظات) أمام المصورة الصحفية التى كانت معى لكى تلتقط له عدة صور فى أوضاع مختلفة.. لكن؛ وإسلاماه!!..

* * *

طلبت أن ألتقى بنماذج من الجيل الجديد من المهاجرين؛ فأخذونى إلى كلية [براس هاوس سنتر Brasshouse Centre] لكى ألتقى ببعض الشباب العرب الذين يدرسون فيها اللغة الإنجليزية تمهيداً للالتحاق بالجامعة فى برمنجهام فى العام الدراسى القادم.. كلية [براس هاوس سنتر] لا علاقة لها بمعدن النحاس الأصفر كما قد يفهم من اسمها؛ لكنها كلية متخصصة فى تعليم اللغة الإنجليزية للأجانب الذين ليست اللغة الإنجليزية لغتهم الأصلية.. وهى تضم طلاباً من ٣٠ جنسية منها – فى الوقت الحالى – ٣ جنسيات عربية.. مدة الدراسة ٤ دورات فى السنة، كل دورة مدتها ١٠ أسابيع.. ورسوم الدراسة فيها أرخص من ثمن تذكرة الأوتوبيس إلى الكلية ذهاباً وعودة.. فإذا كنت سوف تدرس ٤ أيام فى الأسبوع فإنك سوف تدفع ٣٩ جنيهاً فقط طوال الدورة.. أما إذا درست مرتين فقط كل أسبوع فإن المصروفات تصبح ١٣ جنيهاً فقط فى الدورة.. ولو كنت أباً أو أماً وأردت أن تترك طفلك فى الحضانة الملحقة بهذه الكلية حتى تنتهى من حصتك؛ يأكل ويشرب ويلعب ويتدلع؛ فإنك سوف تدفع عنه فى الدورة الكاملة لمدة ١٠ أسابيع رسوماً قدرها: ٦٠ بنساً فقط لا غير!!.. يعنى ٦ بنسات فقط فى الأسبوع.. يابلاش..

وهذه هى الرسوم التى يدفعها الطلبة الأجانب، ونحن العرب طبعاً من بين هؤلاء «الأجانب»؛ أما الطلبة الإنجليز، والحاصلون على الجنسية الإنجليزية، فلهم رسوم أخرى أقل من ذلك كثيراً، قد تصل إلى ثلث الرسوم المطلوبة من الأجانب!!..

فى كلية [براس هاوس سنتر] التقيت بثلاثة من الطلبة العرب يدرسون اللغة الإنجليزية تمهيداً للالتحاق بالجامعات فى برمنجهام – أو فى أى جامعة أخرى من جامعات بريطانيا الـ٣٨ – اثنان منهم من اليمن، والثالث من مصر..

* * *

حين جاءت الأسرة اليمنية بأكملها من صنعاء إلى إنجلترا لتلحق بالأب الذى سبقها فى المجىء؛ استقرت فى البداية فى مدينة [برايتون] الساحلية التى تعادل

مدينة الإسكندرية عندنا فى مصر والتى تعتبر المصيف الأول والأشهر فى بريطانيا.. لكن الأسـرة فضلت بعد فترة أن تنتقل إلى مدينة برمنجهام التى توجد بها جالية يمنية كبيرة العدد – ٣٠ ألفاً – لكى تستشعر الأسرة بوجودها بين أبناء وطنها أولاً؛ ولأن المعيشة فى برمنجهام أرخص كثيراً من برايتون التى تعتبر المصيف الإنجليزى رقم ١ كما ذكرت..

«آمال مالك» الابنة الكبرى فى هذه الأسـرة ١٨ سـنة، بعدها «فهد» ١٦ سنة، ثم «أشواق» ١٢ سنة.. «فهد» و «أشواق» التحقا بالمدارس الإنجليزية لأنهما لا زالا فى مرحلتى الدراسـة الثانوية والإعدادية.. لكن المشكلة كانت فى «آمال» التى فى البداية لم تكن تريد المجيء مع الأسـرة إلى إنجلترا، لكنها حين أنهت دراسـتها الثانوية فى صنعاء ولم تسـتطع أن تلتحق بالجامعـة هناك لضعف المجموع الذى حصلت عليه؛ رحبت بأن تجيء مع الأسرة إلى إنجلترا على أمل أن يكون الالتحاق بالجامعـة هنا أسـهل من اليمن.. لكنها بعد مجيئهـا إلى إنجلترا وجدت أنها لن تسـتطيع أن تلتحق بالجامعة هنا فى برمنجهام إلا بعد أن تدرس اللغة الإنجليزية لمدة سـنة حتى تحصل على شـهادة تؤهلها للالتحاق بالجامعة لدراسة المحاسبة والاقتصاد..

على رغم مضى سـنة من الغربة فى إنجلترا لم تستشـعر «آمال» بعد الحنين إلى الوطن فى اليمن.. يمكن لأن الأسرة كلها مجتمعة هنا؛ ويمكن لأن الجالية اليمنية المحيطة بهم هنا تعتبر وطناً مصغراً.. لكن «آمال» من الآن تتصور أنها لو استمرت عدة سنوات أخرى فى إنجلترا حتى تنتهى من دراستها فى الجامعة هنا فقد تفضل أن تكمل باقى حياتها هنا فى المهجر الإنجليزى.. لأن بعد سنوات من الحياة فى أوروبا فغالباً سـوف تجد صعوبة فى أن تسـتطيع أن تتواءم مرة أخرى مع شـكل الحيـاة فى الوطن العربى.. ثم تضيف «آمال» بصراحـة أكثر أنها إذا أتيحت لها فرصة عمل مناسـبة بعد أن تنتهى من دراسـتها فى الجامعة فغالباً سـوف تفضل البقـاء فى إنجلترا.. لكنها؛ على أى الحالات؛ وحتى لو عاشـت هنا ١٠٠ سـنة

أخرى؛ فلن تتزوج إلا من شاب يمنى مثلها؛ أو على الأقل من شاب عربى.. فعلى المرشحين أن يستعدوا ويتقدموا من الآن!!..

أكثر ما لفت نظر الطالبة اليمنية «آمال مالك» هنا فى إنجلترا هو الحرية التى يتمتع بها الطلبة فى مناقشة المدرسين والمدرسات، بعكس عندنا فى الوطن العربى.. عندنا المدرس يقول والطلبة تسمع وهى ساكتة لا تناقش ولا تبدى رأياً فى أى شىء، لذا فإن التعليم عندنا دائرة مغلقة: المعلومات التى عند المدرس تنتقل إلى ذهن التلميذ كما هى تماماً، من جيل إلى جيل إلى جيل، دون أى تفتيح أو توسع أو إضافة..

* * *

الطالب المصرى «أحمد محمود سيد عبد العال» له اسم شهرة هو «أحمد الطليانى».. ذلك لأن جد «أحمد» تزوج من إيطالية فاشتهر باسم «الطليانى»، ومنه انتقل اللقب إلى أولاده ثم أحفاده فأصبحوا كلهم «طليانى».. «أحمد» من حى العطارين بالإسكندرية.. بعد أن تخرج قرر أن يترك مصر إلى أى بلد أوروبي لكى يستزيد من الخبرة بالحياة وهو شاب ثم يعود ليستقر فى مصر.. وكانت أقرب دولة أوروبية إلى ذهنه هى اليونان، فقضى فى اليونان ٤ سنوات يعمل – كما هو الحال مع آلاف الشبان المصريين هناك – فى الفنادق كجرسون أو (بارمان).. واستراح إلى الحياة فى اليونان حتى إنه تزوج من يونانية فى العام الماضى.. وكان الزواج هو الذى جعله يعود ليفكر فى مستقبله وماذا سوف يفعل بعد ذلك: هل سيظل جرسوناً طول عمره!؟.. لذا قرر أن يجىء إلى إنجلترا لكى يلتحق بإحدى الجامعات الإنجليزية للحصول على شهادة فى إدارة الأعمال يعود بها إلى مصر، وعلى الأقل يبقى (رجع وفى إيده شهادة) تبرر غربته عن مصر كل هذه السنوات.. لكنه حين تقدم للالتحاق بالجامعة فى برمنجهام فوجئ بما يفاجأ به أى طالب لغته الأصلية ليست الإنجليزية؛ بأن عليه أن يدرس اللغة الإنجليزية أولاً فى دراسة خاصة لمدة سنة يحصل بعدها على شهادة تؤهله للقبول فى الجامعة.. وها هو ذا الآن فى كلية [براس هاوس سنتر] يحاول الحصول على هذه الشهادة..

أكثـر ما يزعج «أحمد الطلياني» هنا هو الجو الإنجليزى البارد جداً المثلج الذى لم يتعود عليه فى اليونان التى يشـبه جوها كثيراً الجو فى مصر.. وهو يتصور أن الإنجليز ليسـوا عشريين بسـبب رداءة الطقس عندهم الذى يحبس الإنجليز داخل بيوتهـم إلى جوار المدفأة أغلب العام بسـبب البرد الشـديد.. «أحمـد» يعيش هنا فـى برمنجهام مع أسـرة إنجليزية كان قد تعرف إليهـا حين كانت تقضى أجازة فـى اليونان.. هذه الأسـرة تعيش فـى بيتها هذا منذ ١٠ سـنوات دون أن تعرف جيرانها فى البيت الملاصق لهم مباشـرة.. وكان الشـاب المصرى «أحمد» هو الذى عرَّف الأسـرتين الإنجليزيتين ببعضهما خلال الشهور الأربعة فقط التى قضاها فى برمنجهام حتى الآن!!..

* * *

رقـم ٣ فـى الطلبة العرب الذين التقيت بهم فى كلية [براس هاوس سـنتر] هو الشـاب اليمنى «أنور أحمد محمد عبد الله الجميل» – «الجميل» هنا ليسـت صفة لـ«أنور» نفسه لكنها اسم عائلته!! –.. «أنور» عمره ٢٣ سنة ومن قبيلة (آنس) فى قطاع (ذمار) الذى يبعد ٢٠٠ كيلومتر عن العاصمة صنعاء..

«أنور» حدوتة ظريفة جداً.. نموذج للشاب العربى شديد الطيبة إلى حد السذاجة الـذى يصـدق أى كلام يقال له.. حصل على الشـهادة الإعدادية مـن اليمن، ثم لم تمكنـه ظروفه العائلية فى أن يسـتمر فى الدراسـة أكثر مـن ذلك، فتعلم قيادة السيارات وقيادة المحراث ثم سافر إلى السعودية ليعمل فى أحد المستشفيات هناك فى وظيفة تجمع بين الحارس الليلى وسـائق سـيارة الإسعاف.. ثم جاءته الفرصة ليسـافر إلى إيطاليـا مرافقاً لمريض ذهب إلى هناك فى رحلة علاج.. بعد شـهر من وصول «أنور» إلى إيطاليا تعرف إلى مجموعة من الشـبان العرب اسـتطاعوا إقناعه بأن الشـهادة الإعدادية قيمتها كبيرة جداً فى بريطانيا؛ وأنه مادام يحمل الشهادة الإعداديـة التى تفتـح كل الأبواب فلماذا لا يذهب لدراسـة الكومبيوتر والحصول علـى (درجة علمية) فيه من إنجلترا (!!).. وأقنعوه أيضاً بأن الجالية العربية فى

بريطانيا سوف ترحب به وتنفق على دراسته للكومبيوتر (!!) وصدق «أنور» كل هذا الكلام الفاضي وجاء إلى إنجلترا وإلى برمنجهام على الفور.. لكنه فوجئ هنا بأن الدراسة فى إنجلترا باللغة الإنجليزية ولم يكن أحد قد أخبره بذلك (!!).. وفوجئ أيضاً بأن دراسة الكومبيوتر لا تبدأ بالشهادة الإعدادية!!.. وفوجئ بأن الجالية العربية هنا فى بريطانيا لا يعرف أحد عنوانها ولا مقرها بالضبط لكى يذهب إليها « أنور » ويطلب منها أن تدفع عنه نفقات دراسته للكومبيوتر كما قالوا له فى إيطاليا.. يعنى باختصار فوجئ «أنور» بأن الأعمال ليست بالنيات ولم يكن أحد قد نبهه إلى ذلك من قبل!!..

وذهب «أنور» يطرق أبواب السفارات العربية فى لندن واحدة بعد أخرى؛ لكنهم لم يبد عليهم الاقتناع بمسألة دراسته للكومبيوتر، وطلبوا منه – حتى فى سفارة وطنه اليمن – أن يعود إلى اليمن فوراً لأن البعثات والدراسة هنا لها نظم وقواعد وليست مسائل (سبهللة)، وأنه لا يكفى أن يقرر «أنور» أن يدرس الكومبيوتر لكى يهبط على إنجلترا فجأة كطرزان ويذهب إلى السفارات العربية ليقول لهم: «أنا جيت آهه، ياللا اصرفوا علىّ بأه»..

يحكى لى «أنور» كل هذه الحدوتة وهو مندهش جداً من موقف السفارات العربية من الشبان العرب الطموحين أمثاله الذين يريدون أن يدرسوا فى أوروبا فتغلق السفارات العربية أبوابها فى وجه طموحهم وترفض الإنفاق عليهم.. ويضيف أنه يبدو أن كل شىء عربى لابد وأن يحتاج إلى الـ (واو).. فلما سألته مندهشاً: «يعنى إيه (واو) يا أنور!؟» قال: «يعنى الواسطة»!!.. وحتى حين حاول أن يجد لنفسه عملاً هنا فوجئ – وهو يفاجأ كثيراً ويندهش كثيراً – فوجئ بأن أصحاب المطاعم الإنجليز يرفضون إعطاءه عملاً.. فلم يخبر أحد «أنور» – على رغم أنه موجود فى إنجلترا منذ سنة كاملة الآن – بأن إنجلترا فيها الآن ٣٫٥ ملايين عاطل «إنجليزى» يتمنون العمل الذى ذهب «أنور» ببساطة ليحصل عليه؛ واندهش وفوجئ حين لم يلبوا طلبه!!..

## كل العرب فى ليفربول..

★ ما الذى قالته «فتاة الميراج» الإسرائيلية للطلبة العرب ؟!..

★ أرض بلا شعب لشعب بلا أرض !!..

★ الكافيتيريا تتحول إلى منتدى سياسى..

★ إسرائيل: دولة قامت بسبب أكذوبة !!..

★ «سحر».. التى تخفى محطة إذاعة ليفربول فى جيبها !!..

★ أخيراً وجدوا الحل: كيف يتوحد العرب !!..

على امتداد أسبوع كامل كان هناك مهرجان عربى فى مدينة ليفربول؛ واحدة من أكبر وأهم المدن الإنجليزية فى بريطانيا، وبها أيضاً واحدة من أكبر وأشهر الجامعات فى إنجلترا.. دعيت لحضور هذا المهرجان، وكانت هذه هى أولى زياراتى إلى ليفربول، التى أصبحت بعد ذلك أكثر مدينة زرتها فى إنجلترا، حتى إننى زرتها أكثر من ٦٠ مرة فى خلال الـ ٣٠ سنة التى قضيتها فى بريطانيا حتى الآن.

* * *

المهرجان العربى كان أسبوعاً فنياً وثقافياً أقامته جمعية الطلبة العرب فى ليفربول، التى تضم كل الطلاب من كل الجنسيات العربية فى جامعة ليفربول.. تضمن برنامج هذا المهرجان معرضًا فنيًا، وسلسلة من المحاضرات والندوات عن مشاكل الوطن العربى ككل والمشكلة الفلسطينية على وجه الخصوص، كما تضمن أيضاً عروضاً سينمائية وحفلات وليالى فنية عربية..

المعرض الفنى اشتركت فى تقديم معروضاته (بعض) السفارات العربية فى بريطانيا، كما ساهم فيه أيضاً عدد كبير من الطالبات والطلبة العرب بتقديم كل ما عندهم شخصياً من أشياء تصلح للعرض، سواء كان ذلك لوحات فنية أم حليا أو إكسسوارات وأدوات زينة ومنتجات من الفولكلور القومى لكل دولة عربية.. وكان ذكاء اختيار مكان المعرض فى المهرجان هو أول خطوة أدت إلى نجاح هذا الأسبوع العربى نجاحاً كبيراً.. فقد اختارت الجمعية العربية أن تقيم مهرجانها فى مبنى اتحاد طلاب جامعة ليفربول، فأقامت الجزء الخاص بفلسطين فى مدخل مبنى الاتحاد مباشرة، بحيث يكون اسم (فلسطين) هو أول ما يصادف أى داخل إلى مبنى الاتحاد ويواجهه مباشرة.. كما وضعت فتاة فلسطينية وعدد من

الشـبان الفلسطينيين كل منهم يخـفى بداخله محطة إذاعة كاملة: «سحر الصالح» الفلسـطينية الشابة الجميلة طالبة الهندسة الإلكترونية فى جامعة ليفربول، ومعها زملاؤها «وسـيم حجيج» و «عماد المختار» و «عدنان الحاج» و «جمال جاسم» كانوا لا يكفون عن الكلام طول اليوم عن فلسطين يشرحون لزملائهم الطلبة الأجانب كل شىء عن المسألة الفلسطينية.. ولعلهم تكلموا طوال أيام هذا الأسبوع أكثر مما تكلمت إذاعات الدول العربية مجتمعة عن فلسطين على امتداد الثلاثين عاماً الماضية!!..

* * *

ثم كان المعرض نفسـه الذى احتل الممر الواسـع الكبير المؤدى من مدخل مبنى الاتحـاد إلى الكافيتيريـا الخاصـة بالطلاب.. فأى طالب أجنبـى داخل إلى مبنى الاتحاد تفرج عنه «سـحر الصالح» ومجموعة الشـبان الفلسـطينيين المتمركزين فى الجزء الخاص بفلسطين فى مدخل الاتحاد؛ يأخذ طريقه بعد ذلك إلى الكافيتيريا؛ لابد وأن يستوقفه ذلك المعرض الفنى المقام فى الممر المؤدى إلى الكافيتيريا.. هذه المرة سـوف يتوقف من تلقاء نفسه؛ إذ سـتجتذبه اللوحات الفنية والملصقات السياحية عن كل الدول العربية وقطع السجاد الأصيلة الثمينة والمشغولات النحاسية العربية المميـزة ومجموعة الحلى والتحف المحلية التى تمثـل الفولكلور القومى لكل دولة عربية.. وأيضاً سوف تسـتوقفه المجموعة الهائلة من النشرات والمطبوعات بلغات أجنبية عديدة عن مختلف دول الوطن العربى، تغرى بصورها الفنية وجمال طباعتها على أن يمد يده ليلتقط بعضاً منها يأخذها معه.. وطوال الأيام التى قضيتها أحضر هذا المهرجان العربى لم أجد مكان المعرض إلا مزدحماً فى كل وقت من أوقات اليوم بعشرات الطلبة والطالبات الإنجليز والأجانب فى جامعة ليفربول..

* * *

ثم كانت ضربة المعلم الأخيرة فى هذا المهرجان الثقافى الفنى فى ليفربول؛ حين أقيمت سلسـلة المحاضرات اليومية فى داخل صالة الكافيتيريا نفسها.. كافيتيريا مبنى اتحاد الطلاب تبدو وكأنها هُيِّئَتْ خصيصاً لهذا الغرض: مكان متسـع كبير

يصلح لإقامة الحفلات، وتقام فيه فعلاً بعض الحفلات، فيه عدد كبير من الـ (دِكَك) الخشبية لكى يجلس عليها الطلاب والطالبات أثناء تناولهم وجباتهم السريعة فى الكافيتيريا.. الجمعية العربية فى جامعة ليفربول التى تقيم الأسبوع العربى أعادت تنسيق و( رص) هذه الدكك الخشبية بحيث تحولت الكافيتيريا إلى قاعة محاضرات فعلاً.. ويدخل الطلبة والطالبات الأجانب إلى الكافيتيريا فى أى وقت ليتناولوا طعامهم أو ساندوتشاتهم أو مشروباتهم أهلاً وسهلاً؛ وهم يستمعون فى الوقت نفسه إلى المحاضرات التى كانت تقدم يومياً فى الساعة الواحدة بعد الظهر: الموعد الذى تكون فيه فترة الراحة بين المحاضرات الصباحية والمحاضرات المسائية.. موعد إستراتيجى تكتيكى تماماً لمحاضرة تلقى فتجد جمهوراً كبيراً من المستمعين الطلبة والطالبات الأجانب فى فترة راحتهم بين المحاضرات، وغالباً ما يتحولون من مجرد مستمعين يأكلون ويشربون على صوت المحاضر إلى مناقشين مجادلين مشاركين ومنغمسين حتى آذانهم مع المحاضرة والمحاضر..

اشترك فى سلسلة المحاضرات التى ألقيت عدد من المحاضرين الأجانب، طلاباً وأساتذة فى جامعة ليفربول، وعدد من الكتاب العرب الذين يعيشون فى بريطانيا فى الوقت الحالى: الكاتب العراقى «خالد قشطينى» ألقى محاضرة أعقبتها ندوة حول آخر التطورات السياسية فى الساحة العربية.. «عبد الزهرة الهاشمى» نائب رئيس الاتحاد العام للطلبة العرب فى بريطانيا ألقى محاضرة وأدار ندوة سياسية عن دور العرب فى العالم الثالث.. «ريتشارد بوردين» عضو المنظمة البريطانية المعادية للصهيونية [البازو] ألقى محاضرة موضوعها (لماذا يجب علينا أن نساند وندعم الفلسطينيين ).. الإسرائيلية الشابة «إلفى بالاس» عضو الـ [ميراج Middle East Reseach And Action Group] المناهضة للصهيونية؛ ألقت محاضرة فندت فيها أكذوبة إسرائيل الكبرى التى اتخذتها ذريعة لقيامها على أرض فلسطين بالذات.. الأكذوبة التى تقول إن فلسطين كانت صحراء مهجورة لا يعيش فيها شعب، فى الوقت الذى كان فيه يهود العالم مشردين مبعثرين فى أنحاء العالم

لا يضمهم وطن ولا تجمعهم أرض، لذا كانت حجة إسرائيل هى (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)!!.. وعرضت «إلقى بالاس» بعد المحاضرة فيلماً بعنوان [لكى نعيش أحراراً] يحكى مأساة الفلسطينيين والشعب الفلسطينى منذ بداية تفكير «تيودور هرتزل» فى الصهيونية وفى إنشاء دولة باسم [إسرائيل] تجمع شتات يهود العالم، وكان ذلك على حساب وطن آخر وشعب آخر تشرد وتحول إلى شتات!!..

وكان المفروض أن يعرض فى آخر يوم من أيام الأسبوع العربى فيلم [الفلسطينى] الذى أنتجته وقدمته الممثلة الإنجليزية الشهيرة «فانيسا ريدجريف» فسبب لها كل المتاعب التى لاقتها فى الفترة الأخيرة من عداء ومحاربة الصهيونية العالمية فى كل مكان.. لكن الذى حدث أنه بعد الإعلان فعلاً عن عرض الفيلم وتحديد موعد لعرضه أن احتجت دور السينما فى مدينة ليفربول على اعتبار أن الفيلم نفسه فى طريقه إلى العرض فى دور السينما فى المدينة، وأن عرضه فى الجامعة سوف يؤثر قطعاً على إيراداته حين يعرض فى دور السينما بالمدينة.. وإن كانت نفس الدور لم تمانع فى عرض نفس الفيلم فى نفس الجامعة أيضاً، لكن بعد انتهاء الأسبوع العربى!!..

* * *

وقد افتتح الأسبوع الثقافى والفنى العربى بحفل عشاء ظريف حفلت موائده بالأطعمة العربية المميزة التى ذَكّرت كل طالب عربى بوطنه حيثما جاء؛ ابتداءً من الطعمية والفلافل وورق العنب المصرية، إلى التبولة والكبة اللبنانية، إلى البقلاوة والبغاشة ولقمة القاضى السورية، إلى الـ(كسكس) الجزائرية المغربية.. وكان وراء هذا العشاء الحافل الجهد الكبير الذى بذلته الشابة اللبنانية الحسناء «رجاء حجيج»، حتى خرج العشاء العربى بهذه الصورة المشرفة فعلاً، الشهية فعلاً، المشبعة فعلاً.. وكان ضيوف الشرف فى هذا العشاء هم الأساتذة الإنجليز فى جامعة ليفربول مع زوجاتهم وأولادهم وبناتهم..

وكان ختام الأسبوع ليلتين فنيتين، واحدة منهما عربية عامة، والثانية فلسطينية خالصة.. قدمت فيهما ألوان من الغناء والرقص الشعبى من ألوان الفولكلور القومى لكل دولة عربية، واشترك فى إحيائها الفنان السورى الطبيب خريج جامعة ليفربول الدكتور «حسن المعصرانى»، والمطرب السورى أيضاً «فوزى بكر»، والملحن وعازف العود العراقى الفنان «ألفريد جورج»..

* * *

**ملاحظتان**، سلبيتان للأسف، شابتا هذا الأسبوع العربى الممتاز.. وإن كانت هاتان الملاحظتان لم يشعر بهما الطلبة والضيوف الأجانب؛ إلا إن الذى شعر بهما وأحس بمرارتهما وألمهما كانت اللجنة المنظمة للأسبوع من ناحية، وغالبية الطلاب العرب من ناحية أخرى!!..

**الملاحظة الأولى** أن (بعض) السفارات العربية ومكاتب الإعلام العربية تقاعست فى تقديم إمكانياتها (الأدبية)، الأدبية وليست المادية، للمساهمة فى إنجاح هذا الأسبوع العربى، حتى إنه لم يعرض فيلم عربى واحد على امتداد أيام الأسبوع كله.. وكانت الحجة اللى تغيظ وتفقع وتفرس التى سمعتها اللجنة المنظمة من مسئول الإعلام فى إحدى السفارات العربية الكبرى (!!) فى لندن هى أن هذه الأفلام (عهدة) ولا يستطيع إخراجها من المخزن لكى تعرض فى أى مكان غير السفارة!!.. تصوروا مدى مفهومية هذا المسئول «الإعلامى» العربى أن هذه الأفلام قد جاءت من القاهرة – مثلاً يعنى (!!) – لكى تدخل مخزن السفارة ولا تخرج منه لأنها (عهدة)، وعلى الذى يريد مشاهدة هذه الأفلام أن يتفضل بمشاهدتها فى مخزن السفارة فى مواعيد العمل الرسمية من ٨ لـ ٢!!..

ثم نتساءل عن «دور الإعلام العربى فى أوروبا»!؟.. ونتساءل أيضاً عن المسئول فى الوطن الذى أرسل هذا الإعلامى المخزنجى لكى يكون صورة وصوت وطنه فى أوروبا أو فى أى مكان فى العالم!!..

* * *

**الملاحظة السلبية الثانية** هى أن (بعض) الطلبة العرب الذين اشتركوا فى الندوات التى أجريت بعد المحاضرات كانوا، للأسف الشديد، دون المستوى الذى يسمح لهم بالكلام.. وهناك مثل شعبى عربى يقول (تعرف الهايف بإيه!؟.. ييجى فى الهايفة ويتصدر)!!.. وكان ذلك هو ما حدث تماماً من (بعض) الطلبة العرب الذين تركوا كل ماتغلى به الساحة العربية الآن من مشاكل ومتاعب وخلافات وموضوعات تستحق المناقشة فعلاً؛ لكى يقفوا ويخطبوا ويزعقوا بعلو حسهم: أن الوحدة العربية لن تتم بين العرب بينما اختلاف الأسماء والتسميات موجود وقائم!!.. وفى تقديرهم أن اختلاف أسماء العملات بين دينار وجنيه وروبية ومليم وفلس وقرش وليرة وريال؛ هو سبب تفكك الصف العربى (!!).. فى تصورهم أن اختلاف أسماء الرتب العسكرية بين عميد وعماد وعقيد وقائمقام ومقدم وبكباشى وصاغ ورائد؛ هو سبب الصراعات العربية (!!).. فى مفهومهم أن سبب انحدار وهبوط مستوى الإعلام العربى هو اختلاف التسميات فى الوطن العربى بين التليفزيون والتلفاز والإذاعة المرئية والبث المصور (!!).. وفى مدى تفكيرهم أن العرب كانوا شعبا له تاريخ وله ماضٍ ثم لم يعد له حاضر ولا مستقبل لمجرد اختلاف أسماء الشهور بين بلد عربى وآخر؛ بين أبريل ونيسان ويوليو وتموز وسبتمبر وأيلول ومارس وآذار.. وهكذا كان عند هؤلاء المفكرين المنظرين العباقرة الحل: أيها العرب أبشروا فإن مشاكلكم كلها سوف تحل بإذن الله لو اتفقتم على توحيد أسماء الشهور وأسماء العملات وأسماء الرتب العسكرية وأسماء الإذاعات البثية المرئية التلفازية التليفزيونية المصورة!!..

* * *

حين ذهبت إلى ليفربول لأحضر الأسبوع العربى هناك؛ لم يكن يخطر على بالى على الإطلاق أننى سوف ألتقى هناك بمفاجأة.. وحين قدموه لى على أنه: الدكتور طبيب «حسن المعصرانى» توقعت أن نتكلم فى أى شىء: طب، سياسة، أدب، تاريخ، جغرافيا.. أى شىء إلا أن يرفع عقيرته فجأة وينطلق صوته ليغنى؛ لأكتشف أننى فعلاً أمام: «أبو كلثوم»!!..

أن تذهب لتزور طبيباً فى بيته؛ خصوصاً طبيبا تخرج فى جامعات إنجلترا ويعمل ويعيش فيها منذ أواخر الخمسينيات - نصف قرن الآن - منذ كان تلميذاً فى المدرسة الثانوية؛ فإنك تتوقع أن تجد جدران بيته مزينة بالجماجم أو الهياكل العظمية، وربما بعض الجثث، أو أشياء من هذا القبيل التى تشير إلى «أمجاده» فى عالم الطب.. وأضعف الإيمان أن تجد جدران بيته مكتبة من الأرض إلى السقف مليئة بالكتب والمراجع والقواميس الطبية والعلمية.. لكن أن تجد بدلاً من هذه المكتبة العلمية مكتبة اسطوانات عربية كلها لفنانين ومطربين عرب.. أن تجد ١٠٠ اسطوانة لأم كلثوم و ١٠٠ اسطوانة لعبد الوهاب ومثلها لفريد الأطرش وأسمهان وفيروز ووديع الصافى وغيرهم؛ وولا كتاب طبى واحد؛ فإن ذلك هو الغريب فعلاً..

وقبل أن أبدى ملاحظتى هذه للدكتور «حسن المعصرانى»؛ وضع شريطاً فى جهاز التسجيل وأداره؛ فأتانى صوت « أم كلثوم » مجلجلاً يشدو بأغنية (من أجل عينيك عشقت الهوى).. وأطربنى صوت «أم كلثوم» كما يطربنى دائماً، وإن كنت قد لاحظت أن لهجة «أم كلثوم» وهى تغنى هذه الأغنية الآن وكأن بها (لكنة) عربية خفيفة لا تلحظها إلا الأذن السميعة.. وسألنى الدكتور «المعصرانى»:

- هل عرفت من الذى يغنى!؟..

قلت على الفور:

● أم كلثوم طبعاً..

قال: لأ..

● قلت: إذن هى مطربة عربية تقلد أم كلثوم، كما تفعل سعاد محمد أحياناً ونجاح سلام أحياناً وياسمين الخيام أحياناً.. ولعل هذا هو سبب اللكنة الشامية الخفيفة إلى حد ما فى هذا التسجيل..

قال:

- أبداً..

● من الذى يغنى إذن!؟..

وفوجئت بالرد:

– أنا..

● أنت شخصياً!؟..

– أنا شخصياً..

● لكن الصوت الذى يغنى صوت نسائى، وهو مطابق تماماً لصوت أم كلثوم..

– هكذا صوتى عندما أغنى..

* * *

الدكتور «حسن المعصرانى» طبيب سورى من حلب، جاء من سوريا إلى ليفربول وهو فى السادسة عشرة من عمره ليدرس الطب فى جامعتها، ثم استقر فى المدينة الإنجليزية الشهيرة بعد تخرجه وعاش هنا واحداً من أشهر أطبائها منذ أواسط الستينات حتى الآن، وتزوج من ممرضته الأيرلندية الظريفة «آنا».. ومنذ بداية تلمذته فى ليفربول وحتى الآن لم ينقطع مرة واحدة عن الغناء فى الحفلات والليالى العربية التى تقام فى الجامعة أكثر من مرة فى كل عام.. ودائماً يغنى أغنيات أم كلثوم، وأم كلثوم وحدها فقط لا غير.. الغريب أن صوته يكاد يكون مطابقاً تماماً لصوت أم كلثوم حتى إنه من الصعب التفرقة بينهما للأذن العادية أو المستمع غير الخبير.. صوت حلو حقيقة منطلق فعلاً ومن نفس طبقات صوت أم كلثوم ونفس معدنه، بالرغم من أنه هو رجل وهى امرأة..

● أليست مسألة مستغربة إلى حد ما أن تغنى أغنيات أم كلثوم وأنت رجل!؟

– ولماذا الاستغراب!؟.. طبيعى جداً أن تغنى كل الناس أغنيات أم كلثوم.. ألا تدندن بها أنت نفسك أحياناً!؟..

● أنا أدندن بها فى الحمام لكنك أنت تغنيها لجمهور مستمعين فى حفلات الجامعة، وهى حفلات عامة.. هذه الإجادة وهذا الإتقان وهذا التطابق بين صوتك وصوت أم كلثوم الذى يقترب بك من المحترفين..

– أم كلثوم لا تغنى لها النســاء فقط، لكن الرجال أيضاً.. والشــباب يستمتعون بأغانى أم كلثوم..

● يســتمتعون حاجة وأن يقلدوها بهذا الإتقان حاجة تانية.. خصوصاً الطبقة التى تقارب طبقة صوت أم كلثوم إلى هذا الحد.. المفاجأة الثانية بالنسبة لى أنك طبيب..

– هــذا صحيح.. لكــن إذا كان الطب هو التعامل مع أوجــاع الناس الصحية؛ فالغنــاء – والفنون عموماً – هو التعامل مع الناس أيضاً لكن من ناحية مشــاعرهم وأحاسيسهم وأذواقهم المرهفة.. الطب «علاقة علمية» بين الطبيب والناس، أما الفن فهو «علاقة وجدانية» وعلاقة مشاعر وأحاسيس بين الفنان والجمهور..

● كيف بدأت معك حكاية تقليد أم كلثوم!؟..

– فقــط أريد أن أصحح شــيئاً صغيراً.. أنا لا أقلــد أم كلثوم لكنى أغنى، فقط، أغانيها.. أغنيها بأسلوبى أنا وبطريقتى أنا..

● هل معنى ذلك أنك تتصرف فى اللحن أو فى الكلمات أو فى طريقة الأداء!؟..

– لأ طبعاً..

● إذن أنت تغنى اللحن كما هو دون تصرف، وتغنى الكلمات كما هى دون تصرف، وتغنى الأداء كما هو دون تصرف.. تبقى بتقلدها!!..

– وأنا صغير كنت أعجب بصوت أم كلثوم، وكان أبى وأمى يحبان الموســيقى جداً ومعجبان أيضاً بصوت أم كلثوم.. وقبل سن ذهابى إلى المدرسة وأنا طفل كنت طــوال فــترة الصباح أســتمع إلى والدتى وهى تدندن بأغنيــات أم كلثوم فى البيت وتــترنم بها طــول اليوم وأنا معها، أحــاول أن أقلدها وأفعل مثلمــا تفعل.. حتى جاء الوقت الذى صرنا فيه أنا وأمى نغنى معاً وأصبحت أمى تطرب لســماعى كما أطرب أنا لسماعها.. ولما كبرت قليلاً استمع إلىّ بعض أساتذتى فى حلب واقترحوا علىّ أن أغنى فى الإذاعة الســورية، لكن أســرتى عارضت ذلك ومنعتنى من الغناء تماماً.. لكن حين جئت هنا إلى جامعة ليفربول كطالب فى كلية الطب فى أواخر الخمسينات؛ بدأت أغنى من جديد على راحتى بعد أن بعدت عن رقابة الأسرة..

وغنيت فى كل حفلات جامعة ليفربول من وقتها حتى الآن، يعنى من أول وأنا طالب صغير وحتى بعد أن أصبحت خريجاً قديماً وبعد أن أصبحت طبيباً منذ منتصف الستينات.. أم كلثوم مطربة غير عادية وصوتها ملائكى وتعبر عن الكلمات والمعانى بشكل غير عادى، وذلك هو سر عظمتها.. وذلك هو ما أغرانى أكثر بأن أغنى أغانيها هى أكثر من أى مطرب آخر أو مطربة أخرى..

● المفترض أساساً أنه حين يهوى شاب الغناء؛ فإنه يبدأ بتقليد صوت مطرب رجل أو يغنى أغنيات مطرب رجل وليس مطربة سيدة: يقلد عبد الوهاب مثلاً أو عبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش، لكن أن يقلد صوت سيدة مطربة بما يحمله طبيعة صوت المرأة من نعومة ورقة وأحياناً دلال ودلع وأنوثة؛ فذلك هو المستغرب والصعب إلى حدٍ ما، بل إلى حدٍ كبير.. أما المستغرب جداً والأصعب كثيراً فهو أن يختار قمة الغناء العربى أم كلثوم ليقلدها، الشىء الذى فشلت فيه مطربات أخرى كبيرات، كثيرات!!..

– لكن، علمياً، حين يقلد شاب صوت مطرب رجل، كعبد الوهاب أو عبد الحليم أو فريط الأطرش مثلاً؛ فإنه يفقد مقومات صوته هو شخصياً.. ونصحنى بعض أساتذتى فى كلية الطب هنا بألا أغنى لمطرب رجل حتى لا أفقد شخصية صوتى..

● أيهما بدأ قبل الآخر: حبك للغناء أصلاً، أو حبك لأم كلثوم شخصياً!؟..

– أنا أحب الغناء جداً، وحين أحب أن أغنى فإننى أغنى لأم كلثوم وحدها فقط..

● يعنى كنت ستغنى لأم كلثوم سواء نصحك الأطباء أم لم ينصحوك!؟

– هذا صحيح.. وعلى رغم مرور كل هذه السنوات علىَّ فى إنجلترا الآن؛ إلا إننى لازلت أغنى فى كل حفلات جامعة ليفربول، وقد غنيت فى حفل ختام الأسبوع العربى الذى أقامته الجامعة فى الأسبوع الماضى.. يعنى لازلت أغنى حتى الآن، وأغنى طول الوقت.. وأسعد الأوقات عندى هى التى أستمع فيها إلى الغناء

الجيد، والأسعد منها هى التى أغنى فيها أنا شخصياً، لأننى أجد فى الغناء لذة روحية ونفسية وأستمتع جدا حين أغنى لأننى أحب الغناء جداً..

● مادمت تغنى طول الوقت ومتعلقا بالغناء كل هذا التعلق؛ فهل من الممكن أن تنقلب معك الهواية إلى احتراف، كما حدث مع الكثيرين من الأطباء قبلك: «مصطفى محمود» مثلاً ترك الطب وقفل عيادته وتفرغ للأدب والكتابة والصحافة والتصوف والتعمق فى أمور الإسلام حتى أصبح من كبار الكتاب الإسلاميين فى الوطن العربى كله، الدكتور «يوسف إدريس» فعل نفس الشىء: قفل عيادته وتفرغ للأدب حتى أصبح عميد القصة القصيرة فى الوطن العربى، الدكتور «حسين فوزى» ترك الطب وأصبح رائد أدب الرحلات الحديث وواحد من أكبر كتاب جريدة (الأهرام)، الدكتور «إبراهيم ناجى» شاعر (الأطلال) الشهير كان شاعراً عظيماً وطبيباً (نص نص)، الدكتور «سعيد عبده» صاحب باب (خدعوك فقالوا) فى الصحف المصرية طبيب سابق، الطبيب «فاروق عجرمة» ترك الطب إلى السينما ممثلاً ثم مخرجاً ممتازاً فى السينما العالمية، الطبيب «عبد العظيم عبد الحليم» ترك الطب ليصبح قائداً لفرقة موسيقية تعزف وراء كل المطربين والمطربات الكبار، الطبيب «عزت أبو عوف» طلق الطب بالثلاثة وأصبح مغنياً ثم ممثلاً ثم مقدم برامج تليفزيونية، الطبيب «يحيى الفخرانى» ترك الطب إلى التمثيل وأصبح من أشهر ممثلى مصر.. الدكتور «حسن المعصرانى»: هل من المحتمل فى وقت من الأوقات أن تتحول من طبيب إلى إلى مطرب محترف!؟.

– أنا أحب الطب جداً، لكنى أحب الغناء أكثر.. ومع ذلك فأنا لم أفكر فى هذه المسألة من قبل.. والسبب أنه كان علىَّ ضغط عائلى حتى لا أغنى قبل حضورى إلى إنجلترا.. وحينما كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرى حاول أحد أساتذتى «مجدى العقيلى» وهو معروف كموسيقى وله موشحات كثيرة تذاع من الإذاعة السورية ومن إذاعات القاهرة أيضاً؛ حاول عدة مرات أن يجعلنى أغنى الموشحات التى يؤلفها، لكن أسرتى منعتنى من ذلك حتى لا أنصرف عن

الدراسة.. وإن كان ذلك لم يمنعنى من الاستمرار فى حب الغناء والتعلق به جداً.. أسعد اللحظات فى حياتى هى حين أغنى، سواء لنفسى أم للناس..

● فإذا طرحت عليك فكرة الاحتراف الآن!؟..

– إذا أتيحت لى الفرصة لأكون مطرباً جيداً فقد أترك الطب تماماً وأتفرغ للغناء، لأن فى الحقيقة أن حبى للغناء أكثر من حبى للطب.. ولو أتيحت لى الفرصة لاحتراف الغناء فسوف أفعل..

معلومة عرفتها بالصدفة عن الدكتور «المعصرانى»؛ هو أن صافى دخله السنوى من عيادته كطبيب معروف فى مدينة ليفربول هو ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى، بمتوسط ٨٣٣٠ جنيهاً فى الشهر الواحد.. لكى نقدر ما الذى سوف يفقده إذا احترف الغناء فعلاً!!..

● دكتور حسن.. هل لديك فعلاً الاستعداد لأن تترك هذا الدخل الكبير لتتحول إلى مطرب محترف لا أحد يدرى إذا كنت سوف تستطيع أن تحقق نفس هذا الدخل مرة أخرى نتيجة الغناء!؟..

– حتماً حين يكون الواحد فى مركزى كطبيب لازم يفكر.. لكن تصورى أننى إذا حدث وغنيت كمحترف فسوف أتعامل مع أفضل الملحنين وأحسن مؤلفى الأغانى وأرقى مستوى من الموسيقيين والعازفين، لكى أستطيع أن أحقق النجاح الذى أتمناه لنفسى منذ البداية.. صحيح أن النجاح يعتمد فى النهاية على مدى تقبل الجمهور والمستمعين لى، لكنى أيضاً سوف أستعمل عقلى وتفكيرى بصورة صحيحة..

● قطعاً أنت سوف تستعمل عقلك بصورة صحيحة؛ لكن المطربين فى بلادنا يبدأون السلم الفنى عادة من أوله ثم يتدرجون بعد ذلك صعوداً حتى يصلوا لفوق.. و – بينى وبينك – ١٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى كدخل سنوى، واضرب هذا المبلغ فى ١١ بالعملة المصرية مثلاً؛ صعب جداً تحقيقه من الغناء فى سنة واحدة، خصوصاً فى سنوات البداية..

– أنا عارف ذلك لكن ربنا يوفقنى للخير.. ثم إننى لم أقرر الاحتراف بعد..

● دكتور حسن المعصرانى.. هل غنيت فى الإذاعة من قبل!؟..

– غنيت فى الإذاعة السورية مرات عديدة عندما كنت فى أجازات قضيتها فى حلب.. غنيت من أغنيات أم كلثوم (بعيد عنك حياتى عذاب).. ولم يكن لى حظ الاستماع لهذا اللقاءات عندما أذيعت لأننى كنت قد عدت إلى ليفربول قبل إذاعتها.. وغنيت فى إذاعة الشرق الأوسط فى القاهرة عدة مرات، فكلما كنت فى أجازة فى مصر قدمتنى السيدة «مديحة نجيب» مديرة الإذاعة فى برنامجها الأسبوعى (ألوان).. وهذه الأحاديث أحتفظ بنسخ منها فى مكتبتى بعد أن سجلها لى صديق مصرى وأرسلها لى من القاهرة..

● أنت تعيش فى إنجلترا الآن؛ وفى إنجلترا إذاعة بريطانية شهيرة تذيع باللغة العربية هى إذاعة الـ BBC للبلاد العربية.. هل تعاونت معها أو غنيت فى برامجها!؟..

– لم أغن فى الإذاعة البريطانية.. وذلك لسببين: السبب الأول أننى أخشى أن يستخدموا صوتى بما يسىء إلى الوطن العربى.. وأنت أدرى منى بذلك لأنك صحفى وإذاعى وعارف..

● لأ مش عارف.. عرفنى..

– قد يضعون مثلاً أغنية لى ثم يضعون بعدها خبراً أو بعض العبارات التى تسىء إلى الوطن العربى.. وذلك يحدث هنا فعلاً فى الـ BBC..

● حتى لو كان ذلك يحدث فإنه لا يسىء للمطرب؛ لأن المطرب ليس هو الذى يختار أو يحدد وقت إذاعة أغانيه وليس مسئولاً عما يذاع قبلها أو بعدها..

– الإحتياط واجب برضه..

● يعنى.. والسبب الثانى!؟..

– أنهم، أصلاً، لم يطلبوا منى أن أغنى فى الـ BBC!!..

● زوجتك الأيرلندية.. ما رأيها وهى تسمعك طول اليوم تغنى أغنيات بلغة لا تعرفها هى ولا تفهمها.. هل هى مقدرة قيمة زوجها كفنان صاحب صوت جميل لكنها لا تفهم ما يغنى أو ما يقول!؟..

– هى تقدر حبى وإعجابى بأم كلثوم لأننى أحدثها عنها كثيراً.. وهى تستمع دائماً لأم كلثوم إما من خلال تسجيلاتها التى أديرها دائماً فى البيت، وإما من خلال صوتى أنا وأنا أغنى فى البيت طول اليوم.. وهى تقول، وأنا أصدقها؛ أنها تحب أم كلثوم وصوت أم كلثوم.. وليس عند المرأة الأوروبية مايجعلها تكذب مجاملة لزوجها أو لأى حد..

● لكن يتبقى السؤال قائماً: هل هى تفهم ماذا تغنى!؟..

– لا تفهمه.. لكن صوت أم كلثوم يؤثر فى الحجر وفى أى إنسان فى الدنيا وليس فقط فى أيرلندية أو فى الأيرلنديين..

● الذى أريد أن أقوله: كون أننى أسمع كلاماً لا أفهمه، أو كون زوجتك تسمع أغانى لا تفهم ماذا تقول؛ هل ذلك كافٍ لأن يجعلها تحب الصوت فى حد ذاته!؟.. الصوت المجرد يعنى!؟..

– صوت أم كلثوم ملائكى وفيه خاصية غير عادية تجعل كل إنسان يسمعه يتأثر به حتى لو لو يكن يعرف اللغة نفسها.. وحين غنت أم كلثوم فى باريس كتبت صحف ومجلات أوروبا – التى أحتفظ بها عندى حتى الآن – أن صوت أم كلثوم هو أجمل صوت فى العالم.. فهل كل النقاد الذين كتبوا عنها ذلك يعرفون اللغة العربية أو يفهمونها!؟.. إنهم (أحسوا) و (شعروا) بصوت أم كلثوم وبمدى عظمته حتى ولو لم يفهموا ما تقول.. فأم كلثوم لم تكن صوتاً ملائكياً ونادراً فقط؛ إنما كانت هى نفسها شخصية نادرة أيضاً سواء على مستوى الشخصيات الفنية أم الشخصيات العامة الأخرى.. كانت أم كلثوم، ككل، امرأة غير عادية قل أن يجود الزمان بمثلها.. فلا عجب إذن أن أكون – وعشرات الملايين غيرى – معجباً بها إلى درجة الانبهار وإلى درجة أن أعتبرها أعظم امرأة فى العالم.. وعندى صديق مصرى عنده صديقة إنجليزية فنانة تشكيلية، رسامة وأستاذة فى كلية الفنون الجميلة، لا تعرف كلمة واحدة من اللغة العربية؛ ومع ذلك فهى تعشق صوت الشيخ محمد رفعت، وتبكى وهى تستمع إلى صوت عبد الوهاب يغنى أغنية [من غير ليه].. فبم تفسر ذلك؛ إلا إن الصوت وحده قادر أحياناً على اختراق شغاف القلب.. ذلك هو صوت أم كلثوم..

● دكتور حسن المعصراني؛ هل لك أغانٍ خاصة بك!؟..

– أكتب بعض الأشعار والأغاني، وألحنها أيضاً.. لكن الألحان، بصدق؛ ليست في مستوى الغناء.. فإنني أشعر أن موهبتي مركزة في الغناء، وأنا صادق مع نفسي..

● هل تغنى لأم كلثوم وحدها فقط، أو لأي أحد آخر غيرها أيضاً!؟..

– أم كلثوم وحدها..

● لنا يومان الآن مع بعض في ليفربول، وقد لاحظت أنك شديد الإعجاب بعبد الوهاب أيضاً.. ألا تدندن أحياناً بحاجة لعبد الوهاب!؟..

– أدندن آه، أغنى لا.. ومع ذلك فإنني حين أدندن لعبد الوهاب فإنني لا أقلده أبداً، وإنما أدندن له بطريقتي الخاصة وبشخصيتي الخاصة (!!)..

● ولو سألتك الآن، في نهاية لقائنا، عن تصوراتك لمستقبلك بين الطب والغناء!؟..

– سؤال صعب.. لكن الإنسان لابد وأن يكون لديه طموح وأمل.. إنما أنا أعتقد أن أجمل شيء في الدنيا هو أن يعمل الإنسان الشيء الذي يحبه، وأنا أحب الموسيقى والغناء أكثر من أي شيء آخر في الدنيا..

● قلت لي ذلك ٦٤٣ مرة خلال حديثنا، لكنه ليس هو الإجابة عن سؤالي المحدد: هل سيظل هذا الحب للموسيقى والغناء يسير متوازياً مع الطب: طبيب وجراح في الصباح، ومطرب ومغنواتي في المساء وفي حفلات جامعة ليفربول مرة أو مرتين في السنة؛ أو أن في ذهنك مشروعات محددة واضحة!؟..

– أملي الآن، وإن كنت لا أعرف كيف سيتحقق ذلك أو متى أو أين؛ هو أن ألتقي وأغني لجمهور عربي في الوطن العربي خارج جامعة ليفربول.. ونتيجة هذا اللقاء هي التي ستقرر الإجابة عن سؤالك..

● قول يارب..

– يارب..

## صدق أو لا تصدق
## عدد المساجد فى بريطانيا ثلث عددها فى القاهرة!!..

★ حين كان المسلمون فى بريطانيا أكثر عدداً من المسيحيين!!..

★ والآن: هل عدد المسلمين فى بريطانيا ٢ مليون كما يقول المسلمون؛ أو نصف مليون فقط كما تقول الحكومة البريطانية!؟..

★ العلاقة بين المسجد ومحطة الأوتوبيس و «ريتشارد نيكسون»!؟..

★ حتى لا يتقاضى المسلمون أمام المحاكم البريطانية ..

★ الحكومة البريطانية تبنى المساجد دون أن تعرف!!..

★ حين يختلف تفسير المذهب الواحد عند إمامين من جنسيتين مختلفتين!!..

★ حين يختلف الأئمة يتوه المسلمون..

سنوات طويلة وأنا أتردد على بريطانيا فى زيارات سريعة فى مهام صحفية؛ مرات عديدة جئت فيها إلى بريطانيا قبل أن أستقر فيها تماماً منذ أكثر من ٣٠ سنة الآن.. وفى كل مرة كنت أجىء إلى لندن كنت أزور المسجد القديم فى [ريجينتس بارك].. حتى هدم المسجد القديم وبنى فى نفس موقعه المسجد الجديد الحالى.. مئات المرات ترددت فيها على مسجد لندن القديم ثم الجديد؛ دون أن يخطر على ذهنى مرة واحدة أن هناك أية مساجد غيره فى بريطانيا كلها.. وقد أكد تصورى هذا أننى حضرت صلاة العيد فيه عدة مرات، وفى كل مرة كنت ألتقى خلال الصلاة وبعدها بمسلمين جاءوا من مختلف أنحاء بريطانيا لمجرد صلاة العيد فى مسجد لندن ثم العودة فوراً إلى مدنهم التى جاءوا منها.. حتى إن صلاة العيد كانت تقام عدة مرات فى أول أيام العيد حتى يمكن للعدد الهائل من المصلين أن يشتركوا فيها..

فلما عرفت مؤخراً، وبالصدفة تماماً؛ عدد ما فى بريطانيا من المساجد؛ لم أستطع أن أصدق الرقم: ٣٠٠ مسجد للمسلمين فى بريطانيا!!..

* * *

٣٠٠ مسجد فى بريطانيا!؟.. إنه والله لعدد كبير.. إنه يوازى ثلث ما فى القاهرة، أكبر عاصمة إسلامية فى العالم ومدينة الألف مئذنة؛ من مساجد.. ويوازى نصف ما فى دمشق وبغداد معاً من المساجد، ويوازى عدد ما فى مكة نفسها – مهبط الإسلام – من المساجد.. فهل ذلك معقول فعلاً يا مولانا!؟.. قلت لمحدثى الشيخ «جمال مناع» أحد أئمة المركز الإسلامى الكبير فى العاصمة لندن..

– بل إنه من المحتمل أن يكون ذلك أقل من العدد الحقيقى أيضاً.. لكنها ليست جميعها مساجد متكاملة بالمعنى أو بالشكل المتعارف عليه؛ إنما بعضها

مساجد بمعنى مجرد أماكن لأداء الصلوات اليومية وإقامة صلاة الجمعة وصلاة الجماعة فى المناسبات والأعياد الدينية.. أما إذا تحدثنا عن المساجد كشكل معمارى معين ومبنى مقام أساساً ليكون مسجداً حقيقياً؛ بمعنى أن له قبة ومئذنة ومحرابا ومنبرا؛ فهذه هى المعالم الرئيسية للمسجد؛ فعددها فى بريطانيا لا يتجاوز – على قدر علمى – عشرين مسجداً: مسجدنا هنا فى المركز الإسلامى فى أطراف حديقة [ريجينتس بارك] + مسجد فى ضاحية [ويمبلدون] + مسجد فى منطقة [ووكنج] + مسجد فى حى [هوايت تشابل ].. إذن ففى مدينة لندن وحدها ٤ مساجد كبيرة متكاملة.. وهناك مساجد متكاملة أخرى فى مدن [برمنجهام] و [كارديف] و [ليفربول] و[بريستول] + ٣ مساجد أخرى متكاملة فى مدينة [مانشستر ]..

وأقدم هذه المساجد جميعها – بما فيها مسجدنا الكبير هذا فى [ريجينتس بارك] – هو مسجد منطقة [ووكنج ]، الذى يزيد عمره الآن عن ١٢٠ عاماً، لأنه أقيم فى نهاية القرن الثامن عشر، وبالتحديد فى عام ١٨٨٣، وهو يستحق الزيارة لأنه مسجد له تاريخ.. ومن أحدث هذه المساجد مسجد مدينة [بريستول ]، وهو أيضاً يستحق زيارة منك، لأن وراء إنشائه قصة طريفة تستحق أن يعرفها قراؤك..

سألت الشيخ «جمال مناع»:

● هل كل هذه المساجد العشرين الرئيسية فيها أئمة معينون ومتفرغون وظيفتهم الإمامة وإقامة الصلوات فى مواقيتها والوعظ والإرشاد والدعوة للإسلام!؟..

– هذه مشكلة من المشاكل المهمة جداً فى وظيفة المسجد فى بريطانيا.. فإن مشكلة الإمام فى مساجد أوروبا والغرب عموماً، وفى بريطانيا على وجه الخصوص باعتبار أننا نعيش فيها؛ مشكلة جادة وحادة ومهمة جداً.. لأن الجالية الإسلامية فى بريطانيا جاءت وتكونت من خلفيات متعددة وجنسيات متعددة – أكثر من ٣٠ جنسية – وكل مجموعة منها تقيم مسجداً أو زاوية للصلاة تحرص على أن تحضر إماماً من نفس الوسط الثقافى والظروف الثقافية التى نشأوا فيها أو التى جاءت منها المجموعة، من نفس البيئة ونفس الجنسية.. يعنى إذا كانت المجموعة هندية

فتحرص على أن تجىء بإمام تخرج فى مدرسة إسلامية فى الهند يتحدث بنفس اللغة ونفس الأسلوب الذى درجوا وتعودوا عليه فى بلادهم.. وإذا كانت المجموعة عربية من جنسية معينة، ولنقل: يمنيون مثلاً؛ فهم يفضلون أن يكون إمامهم عربياً من اليمن، وهكذا..

وبالتالى فإن المستوى الموحد فى فكر الأئمة غير موجود.. المستوى الموحد حتى فى المعلومات الدينية غير موجود.. ومن ثم فالجالية الإسلامية العامة هنا فى بريطانيا فى حيرة فى كثير من الأحكام فيما يتعلق بالأعياد، فيما يتعلق بأوقات الصلاة، فيما يتعلق بالأطعمة، وفيما يتعلق بأشياء أخرى كثيرة..

● هل هذه الخلافات تكون متعلقة بالمذاهب الإسلامية مثلاً!؟..

– متعلقة بالمذاهب أولاً، ثم بالخلفية الثقافية الدينية التى نشأ فيها الإمام نفسه.. فمثلاً إمام تركى، والأتراك أحناف – على مذهب أبى حنيفة – والهنود أيضاً أحناف، يعنى على نفس المذهب، لكن الخلفية الثقافية فى تركيا غير الخلفية الثقافية فى الهند.. وبالتالى فعلى رغم أن كلاً منهما حنفى المذهب إلا أنه نشأ على شىء مختلف.. فالمسألة ليست مجرد اختلاف المذهب الإسلامى؛ وإنما أيضاً البيئة الثقافية التى نشأ فيها الإمام: هل هى بيئة محافظة!؟.. هل هى بيئة متحررة!؟.. هل هى بيئة تعرضت للسيطرة أو للنفوذ أو التأثير الغربى الأوروبى!؟.. هل هى بيئة تعددت فيها المذاهب الفقهية – كما هو الحال فى مصر مثلاً – فأصبح فيها قدر كبير من التسامح أو التوازن الفكرى!؟.. ذلك هو الاختلاف، وذلك هو الخلاف..

● هل نستطيع أن نتجاوز، ولو مؤقتاً فى فترة البداية، ولصالح نشر الإسلام ونشر الدعوة فى دولة كبريطانيا، أو حتى لمجرد توطيد دعائم الإسلام والحفاظ عليه حتى لا يتناقصّ تدريجيا وينكمش بحكم قلة الدعوة إليه.. هل نستطيع أن نتجاوز مؤقتاً عن هذه الخلافات، حتى تنتشر المساجد بشكلٍ كافٍ أولاً؛ وبعدها نبحث عن حل!؟..

– حاولنـا.. ولنـا أكثر من محاولة من هذا المسـجد ومن هذا المركز الإسـلامى الكبـير الذى يعد أكبر مركز إسـلامى فـى بريطانيا كلها.. ودعونـا أكثر من مرة وحاولنا أن نشـكل مجلساً يجمع أئمة المسـاجد ويعمل على تدريب من يحتاجون إلى تدريب منهم، وتنسـيق المسـاعدات المالية التى تأتى من الخارج، وإيجاد نوع من الفكر الموحد، أو أشـبه بالمحاكم العرفية الموجودة فى المسـاجد الرئيسية لحل بعض المشـاكل التـى تواجه بعض المسـلمين ولا داعى لأن نذهـب للتقاضى أمام القضاء البريطانى والمحاكم البريطانية.. حاولنا ذلك، ولم ننجح.. وبمنتهى الأمانة والصراحـة، لأن بعض العناصر فى الجالية الإسـلامية هنا فى المهجر الإنجليزى لا تريـد ذلك لأنه يعطـل مصلحتها المادية والأدبية.. وبصراحة أكثر: بعض الدول العربية والإسلامية لا تريد هذا التوحد.. كل بلد عربى يريد أن تكون له ركيزة هنا لها صلة مباشـرة به.. هذه حقيقة وليس من المفيد فىُ شـىء أن نخفيها، ونحن نظهرها ونصارح ونجاهر بها لنحاول علاجها..

● يعنى هى مصالح دنيوية وليست مصالح دينية!؟..

– لا أقولها بهذه القسوة.. وإنما أقول أن كلاً من الأطراف يتمسك بوجهة نظره ويريد أن تكون هى الوجهة السـائدة.. كل طرف يرى أنه الأحق بأن تسود وجهة نظره..

● هل للمركز الثقافى الإسـلامى فى لندن الهيمنة أو الإشـراف الرسمى على باقى المساجد الموجودة فى بريطانيا؛ على اعتبار أنه المركز الأم أو المركز الرئيسى، أو حتى المركز الأقدم!؟..

– لا، ولا يمكـن.. لا، لأن الواقع أنه لا.. ولا يمكن، لأن هذه المؤسسـة بحكم تأسيسـها وبحكم دستورها الذى أنشئت به وصرح بها على أساسه ليست مؤسسة مركزية يتبعها مؤسسـات أخرى أو فروع أخرى.. وإنما هى مؤسسة قائمة بذاتها، وإذا تحولت إلى مؤسسـة مركزية تشـرف على جهات أخرى؛ فإن ذلك يحتاج إلى تعديل فى وضعها القانونى..

● ولم لا.. لماذا لا يتم هذا التعديل إذا كان ضرورياً لصالح جموع المسلمين فى المهجر الإنجليزى !؟..

– أنا لا أقول أن ذلك مستحيل؛ لكننى أجيبك بالواقع لأنك سألتنى..

● هل هناك ما يمنع من إجراء هذا التعديل فى دستور إنشاء المركز الثقافى الإسلامى فى لندن، ليكون هو المركز الأم لكل مساجد بريطانيا؛ بحكم أنه فى الواقع هو كذلك فعلاً !؟..

– ليس هناك شىء مستحيل، إنما هو يحتاج إلى إخلاص النية والصبر والتجرد من الغرض..

● إذن لو سألتك نفس السؤال بصورة أخرى: ما هو شكل علاقة المركز الإسلامى فى لندن، العاصمة، بباقى المساجد الـ ٣٠٠ الأخرى المنتشرة فى بقية مدن وقرى بريطانيا، سواء كانت مساجد كبيرة أو مساجد صغيرة أو زوايا أو جمعيات دينية !؟..

– علاقتنا بالكثير منها علاقة تقوم على الثقة المتبادلة وعلى تبادل الرأى والنصح، لكن ليست هناك علاقة إدارية، وإنما هناك نوع من علاقة التعاون فى الحقل الواحد.. وبحكم أن مركزنا هنا فى لندن له ما يشبه الصفة الرسمية سواء لدى الحكومات العربية أو الإسلامية أو لدى الحكومة البريطانية؛ فأحيانا تطلب إلينا بعض الجهات التى تكتب إليها باقى المساجد أو الزوايا بطلب المعونة، فتحيل إلينا تلك الجهات الطلبات المقدمة إليها للتحرى عن مدى جدية هذه الطلبات.. ونتيجة لذلك فإن بعض المساجد أو الجمعيات الدينية الأخرى ترى أنه من الخير أن يكون هناك نوع من علاقة التعاون وتبادل الرأى والمشورة بينها وبيننا: يسألونا بعض النصح. يكون عندهم بعض الاحتفالات الدينية فيدعوننا للتحدث فيها، يكون عندنا مثلاً لجنة لمناقشة ثبوت رؤية الهلال فندعوهم إليها، يكون عندنا حفل بمناسبة المولد النبوى فنرسل إليهم، تكون لدينا بعض النشرات فنرسلها إليهم، وهكذا.. بمعنى أن تكون صلتنا بباقى المساجد والجمعيات الدينية

ليست صلة إدارية؛ وإنما هى أشبه بصلة التعاون بين محام كبير أصبحت له خبرة وتجربة والمحامون الناشئون يستشيرونه فيما يغمض عليهم، فقط ليس إلا..

وأحياناً يحدث أن بعض هذه المساجد تكتب إلينا إذا كانت لها مشاكل مع السلطات المحلية البريطانية.. وقد حدث أن تدخل المركز الإسلامى هنا فى لندن لدى السلطات البريطانية فى مدينة [كارديف] لتيسير بعض الأمور بالنسبة لمسجد [كارديف]، وأيضاً تدخل المركز الإسلامى فى لندن لدى (الهيئة الخيرية) أو (هيئة الأعمال الخيرية البريطانية) لمسائل تعلقت بمسجد مدينة [ساوث شيلد]، وهكذا..

● هل هناك علاقة مادية، من ناحية الفلوس، بينكم وبين باقى المساجد فى بريطانيا!؟..

– لا.. مركزنا أو مسجدنا لا يعين المساجد الأخرى مادياً.. وإنما معونتنا تكون على شكل إيفاد بعض المدرسين، أو دفع مرتبات بعض المدرسين الذين يعلمون فى بعض المساجد أو الجمعيات الدينية، على نطاق محدود..

● ماذا يعلمون!؟..

– يعلمون مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامى للصغار.. فإن سياسة مركزنا قائمة على أن الجمعيات أو المؤسسات التى تطلب وتتبدى لنا جدية حاجتها؛ فالمركز عندنا يعينها بدفع مرتبات المدرس لثلاثة أشهر ممكن أن تمتد لستة أشهر، وعلى أهل المنطقة بعد ذلك أن يهتموا بجمعيتهم أو بمؤسستهم الدينية وأن يدفعوا هم مرتب المدرس بعد هذه الشهور الستة ..

● وإذا أرادوا هم بعد هذه ستة الشهور أن يحتفظوا بالمدرس ويدفعوا هم أجره؛ هل تتركونه لهم!؟..

– نعم..

● أفهم من ذلك أن لديكم عدداً كافيا من المدرسين الذين يمكنهم تعليم اللغة العربية والدين الإسلامى، لتغطية ٣٠٠ مسجد موزعة فى أنحاء بريطانيا!؟..

– ليس بالضرورة.. ليس لدينا قائمة موجودة لأعرف منها أسماء الذين يمكن أن أجندهم لتدريس اللغة العربية والدين الإسلامى فى لندن أو [مانشستر] أو غيرها مثلاً.. لكن ذلك يحكمه الواقع.. يعنى إذا طلبت جمعية ما مدرساً، ورأينا أن هذا الطلب جادًّا؛ بحثنا لهم عمن يستطيع أن يقوم بالمهمة المطلوبة ونرسله إليهم.. ليست لدينا قوائم وليست لدينا إحصائيات، وذلك قصور نحن نعترف به ونرجو أن نتخلص منه فى مؤسستنا هذه، لكن القصور موجود نتيجة قلة الأيدى العاملة..

● ذكرت لى أن هذه المساجد المنتشرة فى أنحاء بريطانيا تطلب منكم مدرسين للغة العربية والدين الإسلامى للصغار؛ وبغض النظر عن أن هذه المساجد تصر على أن يكون (الإمام) بالذات من عندها أو من نفس بيئتها الثقافية أو خلفيتها الثقافية؛ هل بعض هذه المساجد تطلب منكم إماماً!؟..

– فى بعض المناسبات الدينية فقط، كالأعياد مثلاً؛ يطلبون إذا كان من الممكن أن ندبر لهم أحداً يذهب ليؤدى بهم صلاة العيد أو يخطب فيهم خطبة العيد.. بعض الجمعيات الطلابية مثلاً تطلب أن يذهب إليهم أحد يؤمهم لصلاة الجمعة.. لكن ذلك ليس قاعدة دائمة..

● إمام، أو قارئ للقرآن!؟..

– إمام.. يلقى خطبة الجمعة ويؤم الصلاة.. أما القراء فهم طبعاً يطلبونهم فى شهر رمضان عندما يأتى القراء من مصر أو من البلاد العربية الأخرى.. فهم يطلبون قارئاً للقرآن يذهب إليهم ليوم أو يومين، لأسبوع أو أسبوعين، حسب الظروف وحسب تعداد الجالية الإسلامية فى المنطقة التى تطلب القارئ..

● كم قارئاً للقرآن يجىء إلى بريطانيا خلال شهر رمضان كل عام!؟..

– ذلك يتوقف على ظروف مصر نفسها.. فى شهر رمضان الماضى مثلاً كان عندنا ٤ قراء من مصر؛ تنقلوا بين لندن و [شيفيلد] و [برمنجهام] و [مانشستر] و [جلاسجو] و [كارديف]، وغيرها من مدن بريطانيا..

● وهل ٤ قراء فقط يكفون لـ ٢٠ مسجداً كبيراً كما قلت لى!؟..

– لا طبعاً.. لكن لأن القارئ الواحد يذهب إلى عدة مساجد ليقرأ فى كل واحد

منها عدة أيام، وعدة أيام خير من لا شـيء طبعاً.. فإذا حسـبناها هكذا: ٤ قراء × ٣٠ ليلة فى شـهر رمضان = ١٢٠ ليلة قراءة ÷ ٢٠ مسـجداً = يكون من نصيب كل مسـجد مـن وقت القارئ ٦ ليالٍ رمضانية.. ونحن نعـد لهم برنامجاً: القارئ الفلانى يكون فى [مانشستر] لست ليالٍ، ثم ينتقل إلى [ليفربول] ليقرأ فيها ٦ ليالى أخـرى، فإلى مدينة ثالثة، وهكذا.. فى نفس الوقت الذى يكون فيه القارئ الثانى فى [كارديف] ثم ينتقل إلى [بريسـتول] فإلى مدينة ثالثة، وهكذا.. والقارئ الثالث يقـرأ فى [لندن] ثم ينتقل إلى [برمنجهام] ثم إلى [ليـدز]، وهكذا.. فيكون القارئ الواحد قد تنقل بين خمسة مساجد وخمس مدن خلال شهر رمضان، والقراء الأربعة قد تنقلوا بين ٢٠ مسجداً ومدينة..

● مـن الـذى يتحمـل أجـور القـراء الذيـن يجيئـون إلى بريطانيا فى شـهر رمضان!؟..

– القـراء الذين يجيئون من مصر تدفع لهم أجورهـم وزارة الأوقاف فى مصر.. وأتصور أن القراء الذين يجيئون من بلاد أخرى يحدث معهم نفس الشـيء.. لكننا نحن هنا لا ندفع لهم شيئاً..

● هل هناك بلاد إسلامية أخرى، غير مصر، ترسل قراءً!؟..

– نعم.. المملكة العربية السـعودية فى الفترة الأخيرة بدأت ترسل بعض القراء إلى بريطانيـا، وقـد حدث ذلك فى أكثر من عام.. لكن لم يجيء إلى مسـجدنا هنا بالذات قراء من غير مصر..

* * *

● ذكـرت لى أن عدد المساجد فى بريطانيا أكثر من ٣٠٠ مسجد؛ لنقل أنهم ٣٢٠، ونستبعد الـ ٢٠ مسجداً التى قلنا عنها إنها مساجد متكاملة بنيت خصيصاً لغرض أن تكون مساجداً.. ما هو إذن شكل الـ ٣٠٠ مسجد الأخرى الباقية!؟..

– أولاً أحب أن أوضح أننى لسـت مصراً على أن عددهم هو ٣٠٠ مسجد فقط.. فقد يكونون أكثر من ذلك بكثير.. لكن هذا هو الرقم الذى يتردد على الألسن هنا.. تماماً كما يقال: إن عـدد المسـلمين فى بريطانيا هو ٢ مليون.. من الذى عدهم ومن

الـذى أحصاهم!؟.. من الذى تحت يده إحصـاء رسمى يقول: إنهم ٢ مليون!؟.. الحكومة البريطانية تقول: إن عدد المسـلمين نصف مليون فقط، لكنْ المسـلمون هم الذين يقولون ٢ مليون..

● إذن: هذه الـ ٣٠٠ مسجد الأخرى؛ ما شكلها!؟..

– أغلبها بيوت عادية أعيد تهيئتها وتجهيزها وتأثيثها لتكون مساجد أو زوايا صغيرة، بغير (قبة) وبغير مئذنة طبعاً.. قد يكون فى البعض منها منبر، وقد يكون قد بنى فى داخل البعض منها محراب ما، لكنها بشـكل عام لم تبن أصلاً لتكون مسجداً بمواصفات المسجد المعروفة..

● إذا افترضنـا أن عدداً من هذه الـ ٣٠٠ مسـجد وزاويـة الأخرى أقامتها جاليات إسلامية غير عربية؛ هندية مثلاً أو باكستانية أو أفغانية أو سنغالية.. فهل ذلك معناه أن الصلوات تقام فيها بلغات هذه الجاليات!؟.. اللغة الأوردية مثلاً أو السواحيلية أو الأفغانية!؟..

– لأ طبعـاً.. فالصـلاة لا تقام بغير اللغة العربية، اللغـة التى نزل بها القرآن، حتـى وإن كانـوا لا يفهمونها.. وذلـك حادث فعلاً فى عدد من المسـاجد التابعة للجاليات الإسلامية غبر العربية: الصلوات تقام باللغة العربية سواء فهمها المصلون أم لم يفهموها.. ولا تجوز الصلاة بغير اللغة العربية.. وعلى المصلين من أى جنسية – حتى ولو كانوا من الروس، مثـلاً – أن يتعلموا كيف يؤدون الصلاة باللغة العربية وأن يتعلموا، على الأقل، سورة الفاتحة..

● حين يستقر الرأى هنا فى المركز الإسلامى فى لندن على أن العيد غداً مثلاً، وقد ثبتت له الرؤية؛ هذه المسـاجد والزوايا الـ ٣٢٠؛ كيف تبلغونها بذلك، أو كيف تعرف هى ذلك!؟..

– يتـم ذلك بالاتصال التليفونى، هم الذين يتصلون.. وفى الليل حين لا يكون فى المركز عندنا أحد ليرد على التليفون تكون هناك رسالة مسجلة على جهاز [الرد على التليفون Answering Machine] تقول: إن العيد غداً أو بعد غدٍ..

وعادة حين يتوقع المسلمون هنا فى بريطانيا أن يكون بداية شهر رمضان غداً أو العيد غداً؛ فإنهم يستمعون إلى الإذاعة السعودية أو إلى الإذاعات الإسلامية من بلادهم؛ ليعرفوا منها مباشرة هل رمضان أو العيد غداً أو لا.. يعنى أن المسلمين فى بريطانيا يعرفون موعد بداية رمضان أو حلول العيد بوسائل مختلفة، المركز الإسلامى هنا واحد منها.. وأنا لا أستطيع أن أدعى أننى كمركز إسلامى أقوم بإبلاغ كل المسلمين فى بريطانيا بذلك، لكننى أبذل جهدى.. وفى السنوات الأخيرة استطعنا أن نذيع ذلك فى محطة الإذاعة المحلية فى راديو الـ BBC.. أذيع كخبر..

● ذكرتنى بالمناسبة: هناك برنامج دينى يذاع فى تليفزيون لندن يوم الأحد صباحاً للجالية الهندية والباكستانية..

– هو ليس برنامجاً دينياً بالمعنى المفهوم؛ إنما هو برنامج موجه إلى الآسيويين ويتضمن بعض فقرات دينية أو أخبار دينية.. وينبغى أن يكون معروفاً أن الحكومة البريطانية أو الدولة فى بريطانيا لا تشجع أى شىء يبنى على أساس دينى صريح، وإنما هى تشجع أى شىء يبنى على أساس ثقافى أو لغوى أو عنصرى.. لا أقصد التفرقة العنصرية طبعاً؛ لكننى أقصد الجنسية: آسيوى أو عربى أو أفريقى، وهكذا.. ومع ذلك فإن تليفزيون الـ BBC القناة الأولى – وهى القناة الرسمية التابعة للدولة هنا – بدأت منذ سنوات تقدم خلال شهر رمضان من كل عام برنامجاً أسبوعياً يتكلم فيه علماء الإسلام الذين يعيشون فى المهجر هنا عن الإسلام وعن شهر رمضان فى بريطانيا وفى العالم الإسلامى.. والبرنامج يلقى ترحيباً كبيراً من مسلمى المهجر هنا..

● قرأت فى نشرة صدرت عن المركز الإسلامى بلندن، أن عدد المسلمين فى بريطانيا فى بداية هذا القرن كان أكبر من عدد المسيحيين فيها!!.. فهل ذلك صحيح فعلاً .. هل كان المسلمون فى بريطانيا فى أى وقت أكثر من عدد الإنجليز أنفسهم مثلاً!؟.. على قدر معلوماتى التاريخية أن المسلمين لم يغزوا بريطانيا فى أى وقت من الأوقات ولا فى أى عصر من عصور التاريخ الإسلامى!!..

– اصـبر قليـلاً يا أخى، وعد إلى النص المنشـور فى هـذا الكتيب تجده يقول بالضبط: [رعايا بريطانيا من المسـلمين].. والمقصود بذلك رعاياها فى الوقت الذى كانت بريطانيا فيه تحكم مصر وتحكم العراق وتحكم الهند والسودان ودول الخليج والأردن واليمن الجنوبية وغيرها وغيرها.. ونحن ذكرنا ذلك فى تلك النشرة رجوعاً إلى الوسـيلة التى لجأ إليها السـفير المصرى فى بريطانيا فـى الأربعينات المرحوم «حسن باشا نشأت» لإقناع الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت، كحجة أو كذريعة لكى يحصل على موافقتها على إنشـاء هذا المسـجد الذى نجلس فيه الآن فى قلب العاصمة البريطانية: «كيف ورعاياكم من المسلمين أكثر من المسيحيين؛ لا يوجد فى عاصمتكم مسـجد واحد!؟».. وقد كان؛ وأعطت الحكومة البريطانية لمصر، أكرر: لمصر، هذه الأرض لإنشـاء مسـجد عليها.. وكان مقاماً عليها فى ذلك الوقت قصر صغـير تحول إلى مسـجد مؤقت، وظل كذلك لأكثر من ثلاثـين عاماً حتى توفرت الإمكانيات فتم هدمه وأنشئ فى نفس مكانه هذا المركز الإسلامى الذى نجلس فيه أنا وأنت الآن.. إن نشـأة هذا المركز نشأة مصرية ومبادرة مصرية.. وليس فى ذلك إنكار لجهود غير المصريين، وإنما هى من باب (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)، وذلك معروف وغير منكور..

● أنت تقودنى إلى نقطة كنت سأسألك فيها وأستوضحك إياها: الحكومة البريطانية أو الدولة البريطانية؛ هل تعارض أو تعترض حين تشرعون، أو حين يشرع المسلمون فى بريطانيا، فى بناء مسجد جديد!؟..

– كلا على الإطلاق، طالما أن ذلك يحدث فى نطاق القانون البريطانى.. بمعنى أننـى لا أذهـب إلى منطقة خاضعـة للتطوير العمرانى وأصر على أن أنشـئ فيها مسجداً..

● والله يا شيخ «جمال مناع» بما أننا ضيوف على هذا البلد؛ حتى لو كنا مهاجرين إليه وسـنقضى باقى عمرنا فيه؛ فليس من حقنا أن نصر على شـىء؛ خصوصاً إذا كان هذا الشىء يخالف قوانينهم وهم أحرار فيها.. فنحن لا نهاجر إلى بلد ما لكى نحكمه و( نمشيه على مزاجنا)..

– لكن البعض يصر، وذلك يحدث.. واحد يشترى بيتاً، أى بيت فى أى مكان، ويبدأ فى تحويله إلى مسجد دون الرجوع إلى السلطات المختصة ودون أن يحصل على تصريح بذلك من الحكومة البريطانية.. وحين تكتشف الأجهزة البريطانية أن ذلك مخالف لبند أو لآخر فى نظمها وقوانينها فهى تحاول أن تغلقه كمكان غير مصرح به، سواء كان مسجداً أم (سوبرماركت)، حتى لو كان أصحابه إنجليزا.. وهنا يبدأ الصراخ والعويل: إلحقونا، الحكومة البريطانية تضطهد المسلمين.. ولا يكون ذلك صحيحاً طبعاً..

● هل حدث ذلك على هذه الصورة فعلاً!؟..

– كثيراً.. أكثر من مرة خلال الأعوام الماضية، وفى أكثر من مكان: فى برمنجهام، وفى لندن نفسها حدث ذلك..

● هل كان اعتراض السلطات البريطانية فقط على (جغرافية الموقع)!؟..

– الحكومة البريطانية لا تعترض إطلاقاً على إقامة مسجد؛ بدليل الـ ٣٢٠ مسجداً الموجودة فعلاً.. إنما لكى تقيم مسجداً أو أى دار للعبادة؛ فذلك سوف يستتبعه كثافة معينة للزائرين المترددين على هذا المسجد؛ وبالتالى على المنطقة نفسها.. لو أنه كان بيتاً عادياً تسكنه أسرة عادية فكم سيكون عدد زوار هذه الأسرة كل أسبوع!؟ عشرة!؟ عشرين!؟ ثلاثين!؟ وعلى امتداد أيام الأسبوع السبعة، وفى أوقات مختلفة من اليوم.. لكن لأنه مسجد فسيكون عدد رواده عدة مئات يومياً، وعدة آلاف أحياناً فى المناسبات الدينية.. ونحن هنا نعيش فى بلد مستواه الاقتصادى مرتفع وأغلب الناس – حتى الفقراء منهم – يمتلكون سيارات.. فينبغى أن يكون حول المكان الذى سيقام فيه المسجد مكان كافٍ لانتظار سيارات كثيرة وليس سيارة واحدة أو عدة سيارات.. أيضاً موافقة سكان المنطقة مسألة هامة جداً عند السلطات البريطانية.. هنا لا يضعون محطات الأوتوبيس كيفما اتفق كما يحدث فى بلادنا.. إنهم إذا أرادوا وضع محطة أوتوبيس جديدة، فقط محطة أوتوبيس: مجرد عمود مكتوب عليه [محطة أوتوبيس] يقف عنده الأوتوبيس ليركبه

النـاس أو ينزلـوا منه.. هنا لا يضعون هذا العمود فى أى مكان على كيف شـركة الأوتوبيس ولا على مزاج رئيس الحى؛ إنما هم يسـألون أهل المنطقة: أين تفضلون أن توضع هذه المحطة الجديدة!؟.. وبناءً على رأى أغلبية سـكان المنطقة يتحدد موضـع المحطة الجديدة.. يا أخـى فى الولايات المتحدة الأمريكية رفض سـكان عمارة فى نيويورك أن يشـترى رئيس الجمهورية السـابق «ريتشارد نيكسون» شقة فى هذه العمارة ليسـكن فيها هو وزوجته، على اعتبار أن ذلك سـوف يقلق راحة سـكان العمارة ويحد من حريتهم نتيجة دواعى الحراسة الأمنية التى ستكون على الرئيس السابق!!..

موافقة سكان المنطقة إذن توضع فى اعتبار النظام الإنجليزى والقانون الإنجليزى.. سـيولة المواصلات فى المنطقة توضع فى الاعتبار: هل سـيؤدى إقامة هذا المسجد إلى تعطيل المرور فى هذه المنطقة بصورة ما فى بعض الأوقات.. أيضاً مسـألة التطور أو التوسـع العمرانى فى المنطقة التى سـيقام فيها المسـجد.. هل تتركنا الحكومة البريطانية نقيم مسـجداً فى منطقة ما ثم تطالبنا بهدمه وإزالته بعد سـنة أو سنتين أو ثلاثة أو خمسـة لأن تخطيط التوسـع العمرانى لهذه المنطقة يتطلب ذلك.. لكن بعضنا – مدفوعاً بالحماس ومدفوعاً بالحاجة إلى مكان للعبادة يؤدى فيه المسـلمون الصلوات والمناسـبات الدينيـة ويتعلم فيه أطفالهـم اللغة العربيـة ومبادئ الدين الإسلامى – بعضنا يأخذ المبادرة ويبدأ يستخدم المكان كمسجد دون أن يستأذن فى ذلك من الأجهزة البريطانية المختصة؛ آملاً أن يضع السلطات البريطانية أمام الأمر الواقع فتتجاوز أو تغض الطرف.. والذى يحدث فعلاً هو أن السـلطات البريطانية أحياناً تتجاوز وتغض الطرف، وأحياناً لا تسـتطيع أن تفعل.. فإذا تجاوزت فإن علينا أن نشكرها، أما إذا لم تتجاوز فليس لنا عليها من لوم أو عتاب..

● هل تقدم الدولة البريطانية مساعدات لإنشاء المساجد بشكل أو بآخر!؟..

– لأ.. لا تقدم الدولة ولا الأجهزة فى بريطانيا مساعدات مباشرة لإنشاء المساجد.. ومرة أخرى أؤكد على أن مسلك الحكومة البريطانية هى أنها لا تقدم شيئاً لمساعدة

الأديان الأخرى غير المسيحية، كأديان؛ وإنما تقدم مساعداتها للجاليات كجاليات فقط.. لنفترض أن جالية باكستانية، مثلاً، لها حاجة لإنشاء مسجد فى منطقة ما من لندن؛ لا تقدم لها الحكومة البريطانية شيئاً لإنشاء هذا المسجد؛ وإنما تقدم لها معونات كجالية لمواجهة احتياجاتها الاجتماعية أو الروحية، وهكذا.. وتتحاشى دائماً الخوض فى المسائل الدينية.. ليس لأن بريطانيا ضد الأديان؛ لكن لأنها تحب دائماً ألا تتدخل فى مسألة الأديان باعتبار أن كل واحد حر فى دينه، ولأنها تحب أن يكون كلُّ المجتمع البريطانى متوائماً ومتناسقاً بقدر الإمكان.. هذا هو أسلوب الدولة البريطانية التى نعيش فيها الآن كمهاجرين، سواء وافقناها عليه أم لا..

● ما هو إذن نوع المساعدات التى تقدمها الدولة البريطانية للجاليات!؟..

– مساعدات مالية.. كأن تعطى للجالية أرضاً بثمن رمزى، لإنشاء ما يسمى (مركز الجالية الفلانية).. وكون أن الجالية تنشئ ضمن هذا (المركز) مسجداً أوكنيسة أو معبداً أو أى مكان آخر للعبادة؛ فذلك لا يهم الدولة البريطانية وليس لها أى دخل به وليس موضوعاً فى اعتبارها.. حدث ذلك كثيراً فى لندن وفى غير لندن..

● المعونات التى تقدمها الحكومة البريطانية؛ هل هى معونات رمزية، أم كافية لتنفيذ الغرض الذى تطلبها الجالية من أجله!؟..

– ذلك أولاً يتوقف على كثافة الجالية فى المنطقة، فجالية ما فى منطقة ما لا تتكون من فردين أو ثلاثة ويقولون «إحنا جالية»؛ لكنها تحتاج إلى عدة مئات.. وثانياً على مقدار الإعتمادات المالية المتاحة لدى الأجهزة البريطانية وقت طلب المعونة.. وغير ذلك من أمور تختلف من منطقة إلى أخرى فى بريطانيا..

● فضيلة الشيخ «جمال مناع» شيخ (المركز الثقافى الإسلامى فى لندن)، شكراً جزيلاً، أفادكم الله..

– وإياكم..

## أقدم مسجد فى بريطانيا.. ووكنج..

* مسجد مغلق للتحسينات.
* قاضيانى يدعى أنه نبى المسلمين ..

مسجد صغير الحجم جداً؛ تراه عن بعد من أول الطريق فتظنه (ماكيت) أو نموذجاً مصغراً لمسجد .. لكنه فعلاً مسجد حقيقى بـ(قبة) صغيرة وأربعة مآذن دقيقة الحجم حتى لكأنها مآذن رمزية.. فإذا رأيت ساحته من الداخل فهى أقرب إلى غرفة متوسطة الحجم، إذا نودى للصلاة فهى تتسع – بالكاد – لخمسين مصلياً متلاحمى الأكتاف متلاصقين.. والمنبر مجرد كرسى عادى بمساند عليه مفرش ليدارى أنه كرسى.. ومع ذلك فإن مسجد [ووكنج] هذا هو أقدم مسجد بنى فى بريطانيا، لأن عمره تجاوز مائة العام الآن.. وإن كان فى الحقيقة لم يستخدم كمسجد إلا، فقط، فى أعوامه الـ ١٣ الأولى، وأعوامه الـ٣٥ الماضية!!..

قصة طريفة للغاية مسجد [ووكنج] الصغير هذا.. تعالوا نعرفها معاً..

* * *

على بعد أقل من نصف ساعة بالقطار السريع من لندن تقع مدينة [ووكنج].. أظلمها إذا قلت إنها مدينة؛ فهى شىء وسط بين (قرية كبيرة) و (بلدة صغيرة).. شارعها الرئيسى اسمه [أورينتال رود Oriental Road] أو [الشارع الشرقى ].. ولست أدرى إن كان لوجود المسجد فيه علاقة بتسميته أم لا.. حين سألت فى مكتب الاستعلامات فى محطة القطار فى [ووكنج] عن مكان المسجد قالت لى فتاة الاستعلامات إنه فى هذا الشارع نفسه [أورينتال رود ].. سألتها: «ما رقمه!؟».. قالت: «لا تشغل بالك بالرقم.. فقط سر فى الشارع حتى تجد المسجد».. سرت أخوض فى الثلوج نحو ١٠ دقائق حتى رأيت لافتة تقول: إن المسجد فى هذا المكان، لكننى لم أجد المسجد ولا أى شىء يدل على أن هناك مسجداً.. تلفتت حولى يميناً ويساراً فلم أجد غير بيوت إنجليزية عادية جداً.. انتظرت نحو ١٠ دقائق

أخرى – فى يوم شتاءٍ مثلج قارس البرودة – حتى مر بى شاب استوقفته وسألته عن مكان المسجد فوصف لى أن أدخل فى ممر ضيق بين بيتين، سرت فيه عدة دقائق أخرى حتى ظهر المسجد فجأة أمامى صغيراً دقيقاً محندقاً كأنه (عينة مسجد) أو (صورة كارت بوستال لمسجد).. أخضر اللون على الطراز المعمارى الهندى، لا يزيد ارتفاعه عن بيت عادى من طابقين، وسط مساحة كبيرة جداً خالية يكسوها الثلج ناصع البياض وتحيط به أشجار باسقة تساهم فى زيادة إخفاء المسجد الصغير عن الشارع الخارجى..

اليوم يوم جمعة، والساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف ظهراً، يعنى أن موعد صلاة الجمعة قد أزف؛ ومع ذلك فباب المسجد مقفول ولا أحد على الإطلاق حول المسجد ولا قريب منه.. درت حول المسجد الصغير لعل له باباً آخر فلم أجد.. زعقت بأعلى صوتى أنادى فلم يرد أحد.. قلت لنفسى لعل المسجد مغلق هذه الأيام لسببٍ ما.. وقلت على الأقل أصور المسجد نفسه، دليلاً على أننى جئت فلم أجد أحداً، ثم أعود إلى بيتى الدافئ فى لندن فى أول قطار يغادر هذه المدينة الصغيرة المثلجة.. درت حول المسجد لكى أصوره من كل جوانبه.. اكتشفت أن هناك بيتاً على مقربة من المسجد فيه غسيل منشور.. مادام هناك غسيل منشور إذن فالبيت مأهول وفيه ناس وفيه حياة.. دققت الباب ففتح لى طفل صغير فى نحو الثامنة ملامحه شرق أوسطية.. سألته باللغة العربية: «هل تعرف أين أجد إمام المسجد!؟».. نظر إلىّ فى دهشة ولم يرد.. عاودت سؤاله بالإنجليزية فأجاب على الفور: «هل تريد أبى!؟».. قلت: «لأ.. أريد إمام المسجد».. قال: «إنه أبى.. وهو يتوضأ الآن استعداداً للصلاة.. هل تحب أن تنتظره!؟».. قلت: «أحب»..

أخيراً؛ وجدت أحداً يحكى لى قصة مسجد [ووكنج] الصغير..

* * *

– يحكى لى الإمام الباكستانى الشيخ «بشير أحمد» وهو يكمل ارتداء ملابسه، قصة مسجد [ووكنج] من بدايتها:

– أولاً فإن اسمه الرسمى ليس [مسجد ووكنج]؛ وإنما هو مسجد [ساها جيهان] منسوباً لاسم صاحبة الفضل فى إنشائه: البيجوم «ساها جيهان» ملكة [بوبال] إحدى مقاطعات الهند القديمة؛ التى تبرعت فى أواخر القرن التاسع عشر بعشرة آلاف جنيه لبناء مسجد للمسلمين فى بريطانيا.. عشرة آلاف من جنيهات ذلك الزمن القديم.. وعهدت البيجوم «جيهان» بإنشاء المسجد إلى الدكتور «دبليو . إن . لايتنر» الذى كان أستاذاً بجامعة البنجاب قبل تلك الفترة، فلما تقاعد جاء إلى بريطانيا وهو يحمل تكليف البيجوم «جيهان»؛ وبنى هذا المسجد الذى نجلس فيه الآن وافتتحه للمسلمين فى عام ١٨٨٩.. لا أحد يعرف الآن لماذا أختير هذا المكان بالذات، قرية [ووكنج]؛ لإنشاء المسجد؛ لكن من المحتمل أن يكون ذلك لأن الدكتور «لايتنر» نفسه كان يعيش فيها.. ويبدو أن عدد المسلمين فى هذه المنطقة فى ذلك الوقت كان قليلاً جداً ولم يكن دكتور «لايتنر» يتوقع أن يزيدوا كثيراً فى المستقبل القريب أو البعيد من ذلك الوقت عام ١٨٨٩؛ فبنى المسجد صغيراً جداً جداً كما تراه الآن؛ لا يكاد يتسع لخمسين مصلياً فى وقت واحد.. وفى الوقت نفسه ترك باقى مساحة الأرض حول المسجد شاسعة جداً تتسع لإقامة عشرة مساجد أخرى بنفس الحجم.. وواضح أن عشرة آلاف جنيه فى ذلك الزمن القديم كانت كافية لشراء كل هذه المساحة الهائلة من الأرض بالإضافة إلى تكاليف بناء المسجد نفسه..

وإذا تصورنا أن دكتور «لايتنر» قد بنى المسجد فى ذلك الوقت وفى ذهنه أنه يستوعب عدد المسلمين فى المنطقة؛ لاستنتجنا على الفور أن عدد المسلمين فى المنطقة لم يكن يزيد كثيراً فى ذلك الوقت عن عشرين أو على الأكثر ثلاثين مسلماً.. ولم يكن فى تقدير دكتور «لايتنر» أن عدد المسلمين فى منطقة [ووكنج] وضواحيها سوف يصل فى يوم من الأيام – كما وصل اليوم – إلى ثلاثة آلاف مسلم من مختلف الجنسيات الإسلامية؛ ابتداءً من الهنود والباكستانيين والآسيويين إلى المسلمين العرب بمختلف جنسياتهم.. حتى إننا فى شهور الصيف حين يتحسن الطقس فى

بريطانيا ويصبح عدد المترددين على المسجد هنا كبيراً، خصوصاً فى صلوات الجمعة وفى المناسبات والأعياد الدينية؛ فإننا نضطر إلى فرش الحصير خارج المسجد على نجيل الأرض الخضراء أمامه لكى يشترك المصلون جميعاً فى الصلاة!!..

* * *

يستطرد محدثى الشيخ «بشير أحمد» إمام مسجد [ووكنج ]:

– وكان الدكتور «لايتنر» بطبيعة الحال هو أول إمام لمسجد [ساها جيهان].. وظل يؤدى مهمته لمدة ١٣ عاماً حتى توفاه الله فى عام ١٩٠٢.. وبعد وفاته حلت بالمسجد كارثة استمرت ٦٥ عاماً، حتى عام ١٩٦٧!!..

فقد احتل المسجد رجل اسمه «غلام أحمد قاضيانى» وأتباعه، وادعى أنه نبى المسلمين الجديد وأن على المسلمين أن يؤمنوا به هو وليس بالنبى «محمد» عليه الصلاة والسلام، على اعتبار أنه النبى المرسل بعد «محمد»!!.. وذلك كله إفك باطل طبعاً لأن الرجل كان دجالاً وهو وأتباعه ليسوا بمسلمين فى الحقيقة، لأن الإسلام يقول: إنه لا نبى بعد «محمد» خاتم الأنبياء والمرسلين..

ولما كان عدد المسلمين الحقيقيين فى ذلك الوقت قليلاً جداً كما ذكرت؛ فمن المحتمل أن يكونوا قد حاولوا مقاومة ذلك الدجال وإبعاده عن المسجد فلم ينجحوا؛ فابتعدوا عن المسجد وتركوه له وآثروا السلامة.. المهم أن ذلك الدجال «غلام أحمد قاضيانى» وأتباعه قد أفلحوا فى الاستيلاء على المسجد، وحولوه إلى إدارة مجلة كانوا يصدرونها باسم [إسلاميك ريفيو Islamic Review] لينشروا فيها أكاذيبهم وإفكهم وضلالهم وآراءهم الخاطئة البعيدة عن الإسلام كما يتصورها نبيهم المزعوم..

واستمر المسجد على ذلك الحال لمدة ٦٥ عاما لا يدخله أصحابه الأصليون المسلمون الحقيقيون؛ حتى عام ١٩٦٧ حين جاء إلى بريطانيا مجموعة من العلماء وأوضحوا للمسلمين كذب وادعاء ذلك الرجل «غلام أحمد قاضيانى» وأنه يدعى النبوة وهو ليس بنبى، فليس هناك أنبياء بعد «محمد» عليه الصلاة والسلام وذلك ما تؤمن به الأمة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أدناها.. وفى الوقت نفسه كان عدد

المسلمين فى المنطقة هنا قد ازداد كثيراً حتى أصبحوا قوة مؤثرة، وكان الإسلام فى بريطانيا يزداد انتشاراً واتساعاً؛ فاستطاع المسلمون أن يطردوا أتباع ذلك الرجل «قاضيانى»، ويعود المسجد إلى أصحابه الأصليين بعد ٦٥ عاماً..

* * *

سألت محدثى الشيخ «بشير أحمد» إمام مسجد [ووكنج ]:

● وكيف وصلت إليكم أنتم، الجيل الحالى من مسلمى المنطقة، هذه القصة كلها!؟..

– طبعاً نقلاً عن الأجداد الذين عاصروا ماحدث، ثم الآباء، ثم إلينا.. وقد عاصر الجيل الحالى من مسلمى المنطقة فى [ووكنج] وضواحيها؛ عاصروا طرد أولئك المسلمين المزيفين من مبنى المسجد فى عام ١٩٦٧.. وللأسف فإن هؤلاء الذين احتلوا المسجد ٦٥ عاماً كاملة قد أعدموا وبددوا كل وثائقه وسجلاته التاريخية القديمة عند بدء إنشائه، وليست لدينا الآن ولا حتى مجرد صورة للملكة «جيهان» ولا للدكتور «لايتنر».. وإن كنت أتصور أن تكون صحف ذلك العهد فى عام ١٨٨٩، البريطانية والهندية، من المحتمل أن تكون قد نشرت عن افتتاح هذا المسجد فى بريطانيا.. لكن للأسف ليست لدينا سجلات عن ذلك..

● من المؤكد أنك لم تتول مهام الإمامة فى مسجد [ووكنج] فى عام ١٩٦٧ عند عودته للمسلمين؛ فإنك قطعاً كنت صغيراً جداً فى ذلك الوقت..

– هذا صحيح.. فقد تولى إمامة المسجد قبلى اثنان من الأئمة، أولهما الشيخ «خوجة قمر الدين»، ثم جاء بعده الشيخ «حافظ قاسم صديقى»، ثم جئت أنا من باكستان منذ عدة سنوات، وكانت تلك هى أول مرة أجىء فيها إلى بريطانيا.. والحقيقة أننى حين جئت إلى بريطانيا كنت معيناً لمسجد آخر، لكن إدارة مسجد [ساها جيهان] اختارتنى لأباشر شئون المسلمين وأمورهم هنا فى هذا المسجد وهذه المنطقة..

● ومن الذى يتولى الإنفاق على مسجد [ووكنج ]، أو مسجد [ساها جيهان] الآن!؟..

– الباكستان، وتبرعات الجالية الإسلامية فى هذه المنطقة التى تنمو وتتزايد باستمرار.. والجالية الإسلامية هنا تضم مسلمين هنود ومسلمين باكستانيين ومسلمين عرب.. صحيح أن المسلمين العرب قليلون جداً فى المنطقة؛ لكنهم يأتون إلى المسجد بشكل منتظم ودائم..

وقد تكلف بناء هذا المسجد عند إنشائه منذ أكثر من ١٠٠ سنة، بما فى ذلك ثمن الأرض؛ تكلف عشرة آلاف جنيه من جنيهات ذلك الزمن القديم.. ولو أنه قد بنى الآن لتكلف أكثر من مليون جنيه.. ونحن نفكر فى استغلال تلك المساحة الشاسعة الهائلة من الأرض الفضاء التى تحيط بالمسجد؛ فى بناء ملحق كبير له يتسع لمركز إسلامى ثقافى كبير يستوعب العدد المتزايد من المسلمين فى المنطقة، كما يتيح لنا مكاناً أوسع وأرحب لفتح فصول أكثر لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى لأطفال المسلمين فى المنطقة.. وبإذن الله حين تتاح لنا سيولة مادية كافية فإننا سوف نشرع فى ذلك فوراً بإذن الله..

● أعرف أن لديكم الآن فصلاً لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى..

– هذا صحيح.. فإن لدينا الآن ما يقرب من ١٥٠ تلميذاً وتلميذة يتعلمون اللغة العربية والدين الإسلامى، معظمهم دون سن السادسة عشرة، إلا عدداً قليلاً من الفتيات فوق سن السادسة عشرة.. وحين بدأنا تعليم اللغة العربية والدين فى عام ١٩٧٨ كان عدد التلاميذ ١٨٠ تلميذاً وتلميذة، لكن الذين يكبرون منهم ويتجاوزون مرحلة الدراسة فيتركونها يزيد عددهم كثيراً عن عدد الأطفال الجدد الذين ينضمون إلى الفصول.. ويقوم بالتدريس للأولاد مستر «صابر حسين» أمين مكتبة المسجد، وتقوم زوجتى «مسز بشير» بالتدريس للبنات..

كما أننى أقوم بتدريس اللغة العربية والدين والقرآن ومبادئ الإسلام فى مدرستين أخريين فى بلدتين قريبتين من [ووكنج]، مرتين فى الأسبوع فى كل مدرسة منهما.. فأنا أجيد اللغة العربية التى تعلمتها فى الباكستان، وإن كنت لا أتحدثها بطلاقة كما لعلك قد لاحظت.. وذلك بالإضافة إلى دروس شرح وتفسير القرآن الكريم التى أقوم بها فى المسجد هنا ساعتين يومياً خمسة أيام فى الأسبوع..

● إذا كانت الغالبية العظمى من الجالية الإسلامية هنا فى المنطقة – كما ذكرت لى – من المسلمين الهنود والباكستانيين؛ فلماذا يريدون أن يعلموا أطفالهم اللغة العربية!؟.. هل هى مفيدة لهم بشكل أو بآخر فى المستقبل عندما يكبرون ويعملون!؟..

– لست أظن أن ذلك الغرض وارد فى أذهانهم وهم يقبلون على تعلم اللغة العربية؛ وإنما هم يتعلمونها لأنها لغة الإسلام ولغة للقرآن، اللغة التى نزل بها كتاب الله.. فمن واجب المسلمين أن يتعلموها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. فتعلم اللغة العربية ومعرفتها وفهمها يتيح لهم فهماً أفضل لمعانى القرآن العظيمة.. كما أن المسلم حين يذهب إلى الحج وهو يعرف اللغة العربية فإن ذلك يسهل عليه الأمور كثيراً..

وبهذه المناسبة؛ فإننا ننظم فى كل عام رحلة إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج.. وقد ذهبت إلى الحج فى العام الماضى ومعى عشرة من المسلمين المترددين على مسجدنا هذا..

• هل هناك علاقة بين مسجد [ساها جيهان] فى [ووكنج] وبين المركز الثقافى الإسلامى الكبير فى لندن!؟..

– طبعاً.. العلاقة بيننا قوية جداً ومتينة جداً.. ومدير المركز الثقافى الإسلامى الكبير فى لندن يعتبر – بحكم وظيفته – عضواً فى مجلس إدارة مسجدنا فى [ووكنج].. والاتصالات بيننا وبين المركز الإسلامى فى لندن دائمة ومتصلة ومباشرة، خصوصاً عندما نحتاج إلى مشورتهم وطلب رأيهم فيما يغمض علينا من أمور الإسلام.. فإن معظم الأئمة فيه تعلموا فى الأزهر الشريف، جامعة الإسلام الكبرى عند كل مسلمى العالم..

* * *

حضرت صلاة الجمعة فى مسجد [ووكنج] الصغير – أقدم مسجد فى بريطانيا – قبل عودتى إلى لندن.. ترك إمام المسجد الشيخ «بشير أحمد» مكانه لأستاذ

جليل كبير السن والمقام، ليؤم المصلين فى الصلاة ويلقى فيهم خطبة الجمعة باللغة الأوردية، لغة باكستان والهند: الشيخ «عبد الحكيم ولى محمد» مدير (جامعة الفرقانية) المدنية فى [إسلام أباد] فى باكستان.. وهى جامعة إسلامية تعتبر قديمة إلى حد ما، فقد أنشئت منذ نحو خمسين عاماً لتقوم بتعليم اللغة العربية والعلوم الإسلامية بنفس مستوى الدراسات فى الأزهر الشريف فى مصر وفى الجامعات الإسلامية الأخرى فى باقى عواصم العالم الإسلامى.. ويقوم بالتدريس فيها مبعوثون من الأزهر ومن جامعة الدعوة الإسلامية بطرابلس.. عدد الطلاب فيها ٩٥٠ طالباً تتولى الجامعة النفقات الكاملة لـ ٧٠٠ طالب منهم، من مسكن ومأكل ومشرب وملبس وكتب ودواء ومصروف شخصى.. والشيخ «عبد الحكيم ولى محمد» هو ثانى مدير لهذه الجامعة منذ إنشائها.. وهو فى زيارة لبريطانيا لمدة ٤ شهور بدعوة من مسجد [ساها جيهان] فى [ووكنج] للدعوة إلى الإسلام وتعليمه باللغات الثلاث التى يجيدها: الأوردية والفارسية والباشتو، ويقوم بإلقاء خطبة الجمعة كل أسبوع فى المسجد طوال فترة زيارته..

* * *

حين بنى مسجد [ووكنج] أو مسجد [ساها جيهان] فى أواخر القرن التاسع عشر كان عدد المسلمين فى هذه المنطقة بضع عشرات تعد على أصابع اليد الواحدة، وفى بريطانيا كلها عدة مئات قليلة.. الآن بلغ عدد المسلمين فى المنطقة ثلاثة آلاف، وعددهم فى بريطانيا يتجاوز المليونين.. اللهم زد وبارك..

* * *

## أحدث مسجد فى بريطانيا.. كنيسة !!

★ لماذا تغلق الكنائس أبوابها وتتحول إلى مراقص و (ديسكو) و (سوبرماركت)!؟..

★ الأفراح والليالى الملاح.. فى المساجد!!..

★ رئيس الجمعية الإسلامية: مهندس!!..

★ سجادة خاصة لكل مصلى داخل المسجد!!..

★ المنبر.. وصل فى طرد (من الباب للباب )!!..

★ ماذا فعلت مصلحة الجمارك الإنجليزية مع المنبر المستورد!؟

★ حكاية البرتقالة الموضوعة فوق سطح المسجد!؟..

★ لماذا حاولوا إحراق مئذنة مسجد بريستول!؟

فى الشـــارع الرئيسى فى مدينة [بريســـتول] الإنجليزية، مدينة النسيج الشهيرة فى بريطانيا، التى تماثل مدينة (المحلة الكبرى) عندنا فى مصر؛ توقفت فجأة عن السير، وقلت لمحدثى مشدوهاً: «لم أسمعك جيداً.. هل تسمح بأن تعيد ما قلته مرة أخـــرى!؟».. وأعاد محدثى الجملة التى قالها قبلاً.. كانت هى تماماً كما سمعتها فى المرة السابقة.. لا خطأ إذن فى أجهزة الاستقبال عندى.. قلت لمحدثى: «عد بنا إذن حيث كنا.. فإننى أريد أن أرى المكان مرة أخرى برؤية جديدة .

قلت: «تقصد أنه كان فى مكانه كنيســـة هدمت وبنى المسجد مكانها!؟».. قال ببســـاطة: «لم أقصد ذلك.. لكنه كان كنيســـة، اشـــتريناها وهى كنيسة، وحولناها إلى مسجد ياجراء بعض التعديلات فيها»!!.. قلت ودهشتى تزداد: «ذلك المسجد العظيم الفاخر الذى زرته أنا منذ لحظات؛ كان كنيسة!؟.. لقد تصورت فى لحظة مـــن اللحظات وأنا بداخلـــه أن كل أحجاره وطوبه وأسمنتـــه وأبوابه ونوافـذه قـد جاءت من الحجاز أو من مصر»!!.. قال مرة أخرى ببساطة: «الحمد لله.. كلامك هذا وسام على صدرى»..

ومن المهندس المعمارى المصرى الشـــاب «أحمد سعيد عليوة» سمعت قصة مسجد مدينة [بريستول] من بدايتها..

* * *

لأن مدينـــة [بريســـتول]، وهى واحدة من أكبر المـــدن الإنجليزية؛ تعتبر مدينة صناعيـــة تمامـــاً؛ فإن إقبال الإنجليـــز فيها على الكنائس ظـــل يتناقص وينخفض باســـتمرار، شـــأن كل المدن الصناعية التى تمتص كل قوى العمال فيها فى العمل؛

بحيث تصبح أيام الأجازات الأسبوعية والعطلات هى فترة الراحة الوحيدة التى تعوض تعب وعناء الأسبوع كله.. فإما هى ساعات نوم أكثر، وإمَّا ترويح وتسلية وترفيه وكرة قدم.. والذهاب إلى الكنيسة لا يندرج تحت أى بند من هذه البنود!!..

وكان نتيجة انخفاض تردد الناس على الكنائس فى [بريستول] أن أغلق عدد كبير من هذه الكنائس أبوابه، وتحول بعض منها إلى نوادٍ ومكتبات ثقافية ومشروعات أخرى، وعرض البعض الآخر للبيع العام.. البيع لأى مشترٍ ولأى غرض.. فكان ما سمعناه من تحول بعض الكنائس فى كثير من المدن الأوروبية والأمريكية إلى صالات (ديسكو) أو مراقص أو حتى (سوبرماركت)!!..

وكان فى [بريستول] جمعية إسلامية، لكن لم يكن فى المدينة مسجد يضم المسلمين ويجمعهم ويقيمون فيه شعائر الصلاة والاحتفالات الدينية.. فتقدمت الجمعية الإسلامية فى عام ١٩٦٦ لشراء كنيسة كانت معروضة للبيع فى شارع [جرين ستريت Green Street] فى حى [تتر داون] الشعبى فى المدينة.. وجمع أعضاء الجمعية من أنفسهم المبلغ المطلوب لثمن الكنيسة.. وكان الثمن بسيطاً وضئيلاً إلى حد لا يتصوره العقل الآن، فهو لا يكاد يشترى غرفة واحدة فى بيت متواضع: ألفين فقط من الجنيهات كان ثمن كنيسة [جرين ستريت] التى اشترتها الجالية الإسلامية!!..

* * *

ولم تكن الإمكانيات المادية للجالية الإسلامية فى [بريستول] فى ذلك الوقت تسمح بأكثر من رفع اللافتة التى تحمل اسم الكنيسة ووضع لافتة أخرى فى مكانها مكتوب عليها اسم المسجد باللغة الإنجليزية [The Bristol Mosque].. وبدأت تستخدم الكنيسة بنفس حالتها تماماً كما هى؛ كمسجد!!.. وكان على المسلم الذى يأتى للصلاة فى المسجد – الكنيسة سابقاً – أن يتوضأ فى بيته.. فلم يكن بالكنيسة، طبعاً، أماكن مخصصة للوضوء..

وبعد فترة تيسرت إمكانيات مادية قليلة سمحت بإضافة دورات مياه كافية ومكان خصص للوضوء.. لكن الكنيسة من الخارج ومن الداخل ظلت على ما كانت عليه: كنيسة كنيسة.. والذى يمر من أمامها فى الشارع لا يراها إلا كنيسة، بالرغم من اللوحة الموضوعة فوق بابها التى تقول أن هذه الكنيسة هى الآن فى الحقيقة، مسجد!!.. واستمرت الأمور على هذا الحال ١٦ عاماً كاملة، زاد خلالها عدد المسلمين والجالية الإسلامية فى مدينة [بريستول] والمناطق المحيطة بها فى جنوب غرب بريطانيا، حتى وصل عددهم إلى نحو ستة آلاف أسرة مسلمة.. وبالتالى أيضاً زادت إمكانياتهم المادية وزادت تبرعاتهم لجمعيتهم الإسلامية.. وحين تيسرت، إلى حدٍ ما، الإمكانيات المادية المتاحة؛ بدأ التفكير فى ضرورة تحويل الكنيسة إلى مسجد حقيقى على الطراز المعمارى الإسلامى من الخارج ومن الداخل، بما يؤكد الشعور الدينى عند المسلم فى أنه (ذاهب إلى المسجد) وأنه (يصلى فى مسجد حقيقى) وليس فى مسجد يرتدى ثوب كنيسة..

وبدأت حملة لجمع تبرعات لتحويل الكنيسة إلى مسجد حقيقى..

* * *

وكان المطلوب هو إضفاء طابع العمارة الإسلامية على شكل الكنيسة من الخارج، بحيث إنها حين ترى من الشارع يبدو واضحاً أنها مسجد.. مع إجراء التعديلات المعمارية اللازمة للمبنى نفسه من الداخل لتهيئة أكبر مساحة ممكنة لتكون رحبة المسجد تتسع لأكبر عدد من المصلين، وفى الوقت نفسه تخصيص مكان للنساء المسلمات القادمات للصلاة فى المسجد، مع عمل مدخل خاص بهن وركن خاص مستقل لوضوئهن بعيداً عن مكان وضوء الرجال طبعاً..

ولما كان اتساع الكنيسة من الداخل كبيراً؛ فقد تضمن المشروع المطروح للتنفيذ تخصيص مكان مناسب للقاءات والاجتماعات والمحاضرات الثقافية والاحتفالات الدينية الخاصة، بما فى ذلك احتفالات أو حفلات الزواج.. فإن للمسلمين الباكستانيين والبنجلاديشيين الذين تتكون منهم غالبية الجالية الإسلامية فى

[بريستول]؛ لهم تقاليدهم وعاداتهم الخاصة فى احتفالات الزواج.. فبعد أن تتم مراسم الزواج تنصب الموائد ليأكلوا ويشربوا ويمرحوا ويرقصوا وينشدوا أغانيهم وأهازيجهم.. لذا كان من الضرورى أن يتسع المسجد الجديد لاحتفالاتهم أيضاً..

* * *

وطرح المشروع للتنفيذ، وتقدمت شركات المقاولات الإنجليزية بعطاءاتها، وكانت أقل ميزانية طلبتها شركة من الشركات هى مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه – (كان ذلك فى عام ١٩٨١) – من بينها ٢٥ ألف جنيه فى مقابل التصميمات المعمارية والرسومات الهندسية وحدها.. وكان ذلك المبلغ بعيداً تماماً عن إمكانيات الجمعية الإسلامية والجالية الإسلامية فى المدينة..

وعرضت الجمعية الإسلامية عطاءات شركات المقاولات الإنجليزية على المستشار الهندسى للجمعية، المهندس المعمارى المسلم المصرى «أحمد سعيد عليوة» المدرس بكلية الهندسة بجامعة أسيوط، والذى كان يعد – وقتها – لدرجة الدكتوراة فى العمارة من جامعة [بريستول]، فى موضوع (المحافظة على المبانى الأثرية والتاريخية )..

ودرس المهندس «عليوة» التصميمات التى قدمتها شركات المقاولات الإنجليزية لكى يبدى رأيه فيها كمستشار هندسى للجمعية الإسلامية.. فوجد أنه من الممكن جداً ضغط الميزانية التنفيذية التى تطلبها الشركات الإنجليزية، باستخدام مواد أرخص كثيراً من التى اقترحتها الشركة، وتؤدى نفس الغرض تماماً.. فعكف على وضع التعديلات التى يرى إدخالها على المشروع الإنجليزى.. ولما كانت هذه التعديلات كثيرة؛ فقد وجد أنه من الأسهل أن يقوم هو بنفسه، وهو متخصص فى العمارة الإسلامية والتاريخية؛ بوضع مشروع جديد متكامل بكل التصورات للمسجد الجديد، وفى الوقت نفسه لتخفيض التكاليف المطلوبة إلى أقصى حد ممكن.. فإن كل توفير فى النفقات يساوى فى الوقت نفسه إسراع فى إنشاء المسجد الجديد أولاً، وتعجيلاً بتقديم خدماته للمسلمين فى مدينة [بريستول] وفى منطقة جنوب

غرب إنجلترا ثانياً، ثم – ثالثاً؛ وهو الأهم – توفيراً لأموال المسلمين لاستخدامها فى أغراض أخرى، قد يكون من بينها إنشاء مساجد أخرى جديدة فى مدينة [بريستول] وضواحيها.. وفى الوقت نفسه وضع فى تقديره وهو يضع تصميمات المشروع الجديد إمكانية أن يتم تحويل الكنيسة إلى مسجد على مراحل.. بحيث أنه كلما تيسر للجمعية الإسلامية مبلغ جديد من التبرعات أمكن إضافة مرحلة جديدة فى إنشاء المسجد، حتى يستكمل تماماً..

* * *

وبالرغم من أن المشروع الجديد للمهندس المصرى كان أكبر من ناحية الإتساع والإمكانيات من المشروع الإنجليزى؛ فهو أيضاً كان يتكلف أقل من نصف التكاليف أو الميزانية التى طلبتها الشركات الإنجليزية.. ولم تصدق الجمعية الإسلامية ذلك فى البداية، لكنها رحبت بالمشروع الجديد، بل وطلبت من مستشارها الهندسى أن يقوم هو نفسه بتنفيذ المشروع!!..

ولم يكن ذلك موضوعاً فى اعتباره، فقد صمم المشروع على أساس أن يخفض التكاليف فقط أمام شركة المقاولات الإنجليزية؛ لكن الجمعية الإسلامية ألحت فى أن يقوم المهندس المصرى المسلم بتنفيذ مشروعه بنفسه.. فوافق فى النهاية على ذلك، على شرطٍ واحد، شرط بسيط جداً: هو أن يعتبر تنفيذه للمشروع تطوعاً ومساهمة منه ولا يتقاضى أى أجر عنه، لا عن وضع تصميمات ورسومات المشروع، ولا عن مباشرته لتنفيذه حتى يتم البناء!!..

وقبل أعضاء الجمعية شرط المهندس المصرى، أو بمعنى أصح تطوعه.. لكنهم فيما يبدو كانوا يضمرون أمراً.. فعندما أجريت أول انتخابات بعد ذلك لمجلس الإدارة الجديد للجمعية؛ أصر أعضاء الجمعية – وكلهم من الباكستان وبنجلاديش، وليس من بينهم ولا واحد من نفس جنسية المهندس – أصروا على أن يكون هو رئيس مجلس إدارة الجمعية، ولم يرشحوا اسماً غير اسمه؛ فكان انتخابه بالاجماع!!.. وهكذا أصبح رئيس الجمعية الإسلامية فى [بريستول] مهندساً وليس رجل دين، ومصرياً بالرغم من أن الجالية معظمها من الباكستان والهند وبنجلاديش!!..

وكانت التغييرات والتعديلات التى أجريت على مبنى الكنيسة القديم لتحويلها إلى مسجد هى:

● هدم السقف المخروطى القديم وتحويله إلى سقف مسجد على طراز العمارة الإسلامى، وفوقه (قبة) وإلى جوارها مئذنة..

● تغيير شكل أبواب ونوافذ المبنى القديم لتأخذ شكل الأبواب والنوافذ فى العمارة الإسلامية بطابعها المميز..

● تغيير تصميم المبنى من الداخل، بهدم حوائط وإقامة حوائط جديدة، حتى يصبح هناك رحبتان للصلاة: الرحبة الأولى تعتبر الرحبة الرئيسية للمسجد على الرغم من أنها الأصغر مساحة؛ تتسع لـ ٣٠٠ مصلى فى وقتٍ واحد؛ وهى لإقامة شعائر الصلوات اليومية الخمس لأهالى حى [تتر داون] الذى يقع فيه المسجد، وأيضاً لصلاة الجمعة حين يأتى المسلمون من مختلف أنحاء مدينة [بريستول] للصلاة فى المسجد.. وتتسع الرحبة الثانية للمسجد، وهى الأكبر، لحوالى ٥٠٠ مصلى آخرين فى حالة صلاة العيدين والمناسبات والأعياد الدينية، حين يأتى المسلمون من جميع أنحاء المنطقة المحيطة بمدينة [بريستول] من جنوب غرب بريطانيا..

● وفى الوقت نفسه أيضاً تخصيص مكان خاص لصلاة السيدات المسلمات يتسع لـ ٨٠ مصلية فى وقتٍ واحد، مع تهيئة مكان خاص لوضوئهن ومدخل خاص بهن من الشارع الجانبى بعيداً عن مدخل الرجال..

● إنشاء قاعة كبيرة تستخدم كنادٍ للشباب المسلم.. وتستخدم أيضاً فى المناسبات والاحتفالات الدينية واحتفالات الزواج والأفراح، والمآتم والعزاء أيضاً، تستوعب بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ فرد فى وقتٍ واحد.. وتستخدم أيضاً كساحة إضافية للصلاة وقت اللزوم حين يزيد عدد المصلين عن ساحات المسجد الرئيسية.. أى إن أماكن الصلاة فى المسجد يمكن أن تتسع لأكثر من ١٠٠٠ مصلٍ ومصلية فى وقتٍ واحد..

● تغيير جميع الأرضيات القديمة، وإعادة دهان المسجد كله من الخارج ومن الداخل..

● فرش ساحات الصلاة بالسجاد ذو الطابع الإسلامى..

● إضافة شقتين كاملتين مؤثثتين فى داخل المسجد، بمدخلين منفصلين عن المداخل الرئيسية للمسجد التى يدخل منها المصلون والمصليات.. واحدة من هاتين الشقتين تخصص لإمام المسجد وأسرته، والثانية لاستقبال الضيوف الذين يحلون على المسجد أو على الجمعية الإسلامية فى مناسبات مختلفة، كأن يستضيف المسجد قارئاً للقرآن الكريم خلال شهر رمضان، أو محاضراً يحاضر المسلمين فى أمور الإسلام لفترة تطول أو تقصر، فيقيم فى هذه الشقة المعدة الجاهزة دائماً، دون حاجة إلى أن يتحمل المسجد أو الجمعية الإسلامية نفقات إقامته فى فندق تكلف كثيراً، كما يوفر ذلك للضيف الراحة والخصوصية والجو الإسلامى الذى لن يتوفر له قطعاً فى فندق إنجليزى لن يراعى ولن يفكر فى متطلبات الشيخ المسلم الضيف..

* * *

وكما قدر المهندس المصرى «أحمد سعيد عليوة»؛ فقد بلغت تكاليف التعديلات التى أجريت لكى تصبح الكنيسة مسجداً حقيقياً؛ بلغت أقل من نصف التكاليف التى طلبتها شركة المقاولات الإنجليزية.. تكلفت ١٧٠ ألفاً من الجنيهات فقط، وكانت الشركة تطلب ٣٥٠ ألفاً.. أى إن المشروع العربى قد وفر للجمعية الإسلامية ١٨٠ ألف جنيه كاملة!!..

وجمع المبلغ كله من التبرعات التى جمعتها الجالية الإسلامية فى المنطقة، بالإضافة إلى التبرعات التى جاءت من مصر ومن السعودية ومن دول إسلامية أخرى، حتى تم تدبير المبلغ المطلوب..

* * *

وافتتح المسجد، مسجد مدينة [بريستول] بشكله الجديد، بقبته ومئذنته، فى احتفال كبير جاء ليشهده ١٠٠٠ مسلم من مختلف الجنسيات الإسلامية ومن مختلف أنحاء بريطانيا.. جاءوا جميعاً ليشهدوا افتتاح مسجد جديد للمسلمين

يعـد الآن واحـداً من أكبر المسـاجد فى بريطانيا كلها.. وجـاء أيضاً حاكم المدينة الإنجليزى وأعضاء مجلسـى العموم واللوردات الإنجليز عن منطقة [بريسـتول ]، وكبار رجال الدين والمال والأعمال فى المدينة.. ولم يصدق معظمهم أن هذا المسـجد كان كنيسـة.. فقـد اختفت معالم الكنيسـة تماماً وكأنه لم تكـن هنا فى نفس هذا المكان كنيسة يوماً ما!!..

* * *

لفت نظرى فى المسجد الجديد، بعد أن عرفت قصته، أربعة أشياء تثير الانتباه ولابد وأن تثير التساؤل أيضاً: السجاد، المنبر، القبة، المئذنة..

• الذى يدخل رحبة مسـجد [بريسـتول] الجديد يخيل إليـه للوهلة الأولى أن أرضه مفروشة بمئات من سجاجيد الصلاة الصغيرة التى نستخدمها فى بيوتنا لكى يصلى عليها فرد واحد..

– ذلـك صحيـح، وأيضاً غير صحيـح.. فهى فعلاً عدة مئات من السـجاجيد الصغيرة.. لكنها فعلاً، أيضاً، سجادة واحدة كبيرة وحدة النقش أو الرسم فيها هى نموذج السـجادة الصغيرة!!.. ومسجد [بريستول] هو أول مسجد فى العالم يصنع سـجادة بهذا التصميم لحسـابه وبتكليف منه.. فقد أخذنا سـجادة صلاة صغيرة عادية من تلك التى نشـتريها من المحلات فى مصر أو السـعودية أو سوريا أو أى وطن عربى إسـلامى؛ وطلبنا من إحدى شـركات السـجاد فى بريطانيا أن تصنع لنا سـجادة كبيرة بمساحة رحبة المسـجد كلها، تكون هذه السجادة الصغيرة هى وحدة النقوش فى السـجادة الكبيرة.. فكأن السـجادة الصغيرة منقوشة أو مطبوعة مئات المرات على مساحة السجادة الكبيرة التى تغطى رحبة المسجد كلها، وكأنها سجاجيد صغيرة مرصوصة إلى جوار بعضها، وبحيث تتسع الوحدة الواحدة لمصلى واحد كأنه يقف على سجادته الصغيرة الخاصة.. ليس ذلك فقط؛ بل أن السجادة الكبيرة نفسها مثبتة على أرضية رحبة المسجد بشكل خاص أو بزاوية خاصة تجعل المصلى واقفاً فى اتجاه القبلة بشكل تلقائى بمجرد وقوفه على السجادة..

ولأن أصحاب مصنع السجاد هذا – الذى يعتبر واحداً من أكبر ٣ مصانع للسجاد فى بريطانيا كلها – لأن أصحابه مسلمون سعوديون؛ فحين عرفوا أن هذه السجادة مطلوبة لمسجد جديد؛ فإنهم لم يتقاضوا غير ثمن الخامات فقط، دون مصاريف تشغيل ولا أجور عمال ولا أرباح.. ولوكانت نفس السجادة بنفس المواصفات والمقاسات قد صنعت فى مصنع سجاد آخر إنجليزى لبلغ ثمنها أربعة أضعاف الثمن الذى دفع فيها فعلاً.. وليس ذلك فقط؛ بل إن مدير مصنع السجاد، وهو عربى مسلم؛ قام بنفسه بجمع تبرعات لإنشاء المسجد الجديد بلغت ٩٠ ألف جنيه إسترلينى!!..

* * *

منبر مسجد [بريستول] أيضاً لفت نظرى وأثار انتباهى.. لم أستطع أن أصدق أنه يوجد فى [بريستول]، ولا فى بريطانيا كلها، هذا المستوى من النجارين (الأويمجية) المهرة (الدقيين) و ( النمكيين) – بتعبيرات أهل المهنة – الذين يستطيعون إخراج مثل هذا المنبر رائع التصميم والتنفيذ.. فلا يمكن أن يكون هذا المنبر إلا من صنع أيدٍ عربية ومسلمة، لم تصنع شيئاً طول عمرها إلا منابر فقط!!..

– ذلك صحيح أيضاً.. فإن هذا المنبر لم يصنع فى إنجلترا كلها.. وكان وراءه قصة طريفة تستحق أن تروى.. فقد زار المسجد أثناء عملية تحويله صديق مسلم اسمه «عزت عارف»، رجل أعمال مصرى صاحب مصنع أقفال وكوالين وما إلى ذلك.. يعنى ليس له أى علاقة لا بالمنابر ولا حتى بمجرد الأخشاب ذاتها.. لكننا سألناه من باب أنه يعيش فى مصر، ونجارو مصر مشهورون فى صناعة المنابر؛ سألناه إن كان يعرف نجاراً متخصصاً يصنع لنا منبراً للمسجد الجديد، وندفع له تكاليفه وأتعابه.. فوعد بانه سوف يبحث هذا الموضوع حين يعود إلى مصر ثم يخطرنا بالنتيجة.. وسافر عائداً إلى مصر فعلاً وانقطعت أخباره ولم يصلنا منه أى شىء، فتصورنا أنه فى زحمة أعماله ومشغولياته قد نسى الموضوع كله.. حتى

فوجئنا بعودته هو بنفسه ليقول لنا إن المنبر قد تم صنعه فعلاً، وأنه قد شحن من مصر ووصل إلى إنجلترا فعلاً!!.. فلما سألناه عن تكاليف ذلك كله قال أنه هدية منه إلى مسجد [بريستول]!!.. ليس ذلك فقط؛ بل إنه أصر على أن تكون تكاليف نقل المنبر من الميناء الإنجليزى الذى وصل إليه حتى داخل مسجد [بريستول] على نفقته أيضاً.. أى إن تبرعه بالمنبر جاء كاملاً وشاملاً و (من الباب للباب) دون أن يتحمل المسجد أية تكاليف على الإطلاق، حتى إنه دفع قيمة الرسوم الجمركية عنه أيضاً..

وكلمة حق يجب أن تقال هنا.. وهى أن إدارة الجمارك الإنجليزية حين عرفت أن هذا المنبر لمسجد إسلامى ولإقامة شعائر الصلاة للمسلمين؛ فإنها لم تتقاض عنه جمركاً، إلا فقط الرسوم الإدارية التى بلغت نحو ١٧٠ جنيهاً.. ورفض المتبرع المسلم «عزت عارف» أن يذكر لنا - حتى من باب العلم بالشىء - تكاليف صنع المنبر حتى لا يعتبر ذلك نوعاً من الـ «مَنْ».. لكن الخبراء الذين شاهدوا المنبر وفحصوه قالوا إن تكاليفه تصل ما بين ٥ آلاف و٦ آلاف جنيه إسترلينى، أى ما بين ٥٥ إلى ٦٥ ألف جنيه مصرى!!.. وكان ذكاء التصميم الهندسى للمنبر أنه صمم بحيث يمكن تركيبه وإقامته فى مدى نصف ساعة فقط. فقد جاء المنبر مفكوكاً ومعه خريطة تشرح خطوات تركيبه.. وفعلاً قمنا بتركيبه فى أقل من نصف ساعة..

* * *

قبة مسجد [بريستول]؛ أيضاً فيها شىء يستوقف النظر.. فبالرغم من أن فيها كل سمات ومواصفات أى قبة مسجد عادية؛ إلا إننى قد خيل إلىّ أنها تشبه برتقالة ضخمة، أو بمعنى أدق: فصوص برتقالة ضخمة!!..

- ذلك أيضاً صحيح.. فالقبة هى أيضاً لها قصة.. فحين فكرنا فى إضافة قبة ومئذنة إلى الشكل الجديد للمسجد؛ اعترض البعض، على اعتبار أن ذلك سوف يكلف كثيراً و (العين بصيرة والإيد قصيرة).. يعنى أن الإمكانيات المتاحة قليلة ولن تحتمل إقامة قبة ولا مئذنة.. وفى الوقت نفسه فإن البعض الآخر كانت وجهة نظرهم أن المسجد لا يكون مسجداً إلا إذا كان له قبة ومئذنة..

ولما طرحنا عطاء تنفيذ القبة والمئذنة على شركات المقاولات الإنجليزية كان أقل مبلغ طلبته هذه الشركات هو ٨٥ ألف جنيه.. وكان ذلك كافياً لأن نعدل عن الفكرة من أساسها.. لكننا بدأنا نجتمع بممثلي شركات المقاولات الإنجليزية لنحاول تخفيض ذلك المبلغ بقدر الإمكان.. وأثناء المناقشات قفز اقتراح بألا نصنع القبة من الصلب ثم نكسوها بالأسمنت كما كنا نفكر؛ لكن أن نصنعها من مادة جديدة اسمها [G.R.P]، وهي عبارة عن طبقات من الألياف الزجاجية معجونة مع أصماغ، فتعطي مادة في نفس قوة الصلب، وأخف من الخراسانة كثيراً..

وبدأنا نجري تجارب ومحاولات مع هذه المادة الجديدة، ونخفض التكاليف، ثم نجري تجارب ومحاولات أخرى، ونخفض التكاليف مرة أخرى، وهكذا.. فهبطت التكاليف من ٨٥ ألف جنيه إلى ٦٥ ألفاً، ثم إلى ٤٠ ألفاً، ثم ٣٥ ألف جنيه.. وقالوا لنا إن ذلك هو أقصى تخفيض ممكن لتكاليف تنفيذ القبة بشكلها الحالي.. فمن هذه النقطة، نقطة (شكلها الحالي)؛ بدأنا نناقشهم من جديد: فإذا غيرنا في (شكلها الحالي) بصورة أو بأخرى، على أن تظل محتفظة في النهاية بكونها قبة طبعاً؛ هل هناك إمكانية الوصول إلى تخفيضات أخرى!؟.. فكان الاقتراح الذي لفت نظرك نتيجته: ألا تكون القبة جزءاً واحداً أو (صبة واحدة)؛ وإنما عبارة عن مجموعة وحدات هندسية تشبه فعلاً فصوص البرتقالة، تجميعها إلى جوار بعضها يعطينا شكل القبة كاملاً.. لكن لأن (القالب) نفسه سيكون صغيراً مما يسهل عملية الصب، وبالتالي تنخفض التكاليف بنسبة كبيرة..

ونفذنا هذه الفكرة فعلاً؛ فانخفضت التكاليف من ٨٥ ألف جنيه للقبة وحدها؛ إلى ١٥ ألف جنيه للقبة والمئذنة معاً، بما في ذلك التركيب والدهانات وكل شيء!!..

* * *

● السلطات البريطانية في [بريستول]؛ ألم تعترض على إقامة قبة ومئذنة للمسجد!؟.. بل ألم تعترض أصلاً على إقامة المسجد ذاته!؟..

– علـى الإطلاق لم يكن هناك أى اعتراض.. بل إن حاكم المدينة الإنجليزى قد جاء ليشـارك فى الاحتفال بافتتاح المسـجد الجديد كما ذكرت قبلاً.. إنما التحفظ الوحيـد كان هـو ألا تكون هناك مكبرات صوت يـذاع من خلالها الآذان للصلاة.. لأنه غير مسـموح فى بريطانيا – ولعله فى أوروبا كلها – بأى شـىء يزعج الناس، ولا حتى التراتيل المسـيحية مسموح بإذاعتها من الكنائس بمكبرات صوت.. يعنى أن الاعتراض لم يكن على المئذنة فى حد ذاتها؛ وإنما الآذان فقط هو الذى أعترض عليـه حتى لا يوقظ النائمين الآخرين غير المسـلمين مـن نومهم فى الفجر.. وقبلنا طبعاً ذلك الاعتراض لأنه من الأصل فى بلد كبريطانيا عسـير وصعب جداً أن تقام صلاة الفجر فيه.. بل وحتى باقى الصلوات الأخرى إذا تعارضت مع مواعيد العمل الرسمية هنا..

وقد حدث شـىء غريب جداً عندما كنا نقوم بتركيب مئذنة المسجد فى مكانها فـوق المسـجد.. فعندما تم تجهيز المئذنـة ووصلت من المكان الـذى صنعت فيه؛ أسـندناها على جدار المسـجد حتى يتم تركيبها بعد يومين.. وفى أثناء الليل جاء بعض الشـبان المتشـردين المتصعلكين الإنجليز من الذين يسمونهم هنا الـ [بانكس] أو الـ [إسكينرز] الذين يكرهون كل شىء وكل الناس ويرفضون أى شىء وكل شىء، وهـم الذين خربوا وحرقوا المدن الإنجليزية فى العام السـابق.. جاءوا ليلاً وحاولوا إحراق المئذنة المتروكة خارج المسـجد بأن سكبوا عليها بنزيناً ووضعوا تحتها خرقاً مشـتعلة.. واشتعلت الخرق فعلاً وسببت ناراً كبيرة.. لكن بعد إطفاء النيران اتضح أنها لم تستطع أن تحرق المئذنة ولم تؤثر فيها على الإطلاق ولا بخدش بسيط!!.. فإمـا أن المـادة المصنوعة منها المئذنة غير قابلة للحريـق؛ وإما إنها قدرة الله تعالى التى أرادت أن تحمى مئذنة بيت الله!!..

* * *

● فى مسـجد [بريسـتول] خمسـة أئمة معينون متفرغون لهذه المهمة، تدفع لهم مرتباتهـم مـن حصيلـة التبرعات التى تصل إلى الجمعية الإسـلامية من مسـلمى المنطقة..

● مسجد [بريستول] يتبعه وملحق به ٣ مدارس لتعليم اللغة العربية وأمور الدين وتحفيظ القرآن.. يتلقى فيها ٦٠٠ تلميذ وتلميذة الدروس الدينية والقرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامى.. واحدة من المدارس الثلاث فى مبنى المسجد نفسه، والأخريان تابعتان للمسجد أيضاً لكنهما فى أماكن أخرى فى أحياء المدينة تيسيراً على التلاميذ الذين يسكنون فى هذه الأحياء.. والمدارس الثلاث مفتوحة طوال أيام الأسبوع، يأتى إليها التلاميذ والتلميذات فى الساعة الرابعة عصراً بعد انتهاء اليوم الدراسى العادى فى مدارسهم الإنجليزية، ليدرسوا فيها لمدة ساعتين حتى السادسة مساءً..

● فى مدينة [ميدنهيد] القريبة من مدينة لندن؛ أراد المسلمون أن يبنوا مسجداً؛ فطلب مهندس التصميمات الإنجليزى ٣١ ألف جنيه إسترلينى لكى يضع الرسومات والتصميمات فقط.. فلجأوا إلى الجمعية الإسلامية فى [بريستول] يطلبون معونتها.. فتطوع، مرة أخرى، المهندس المصرى المسلم «أحمد سعيد عليوة» لوضع تصميمات مشروع مسجد مدينة [ميدنهيد] وقدمها هدية بلا مقابل.. وكان تعليقه على ذلك: «إننى كمسلم لم أقدم شيئاً ليس له مقابل.. لكننى أشترى الآخرة»!!..

* * *

## وهل هناك أشهر من شكسبير ؟!

★ أشهر مدينة فى بريطانيا بعد لندن هى ستراتفورد.

★ تذكرة واحدة تتيح لك زيارة كل بيوت شكسبير.

ليست العواصم وحدها هى التى تنتج النجوم والعباقرة والأدباء والفنانين الكبار.. القرى أيضاً تصدر للعواصم مواهبها التى ربما لو ظلت فى هذه القرى لعاشت وماتت دون أن يشـعر بها أحد.. القرى تصنع المواهب وتصدرها للعواصم تصقلها وتلمعها وتعطيها الفرصة لتتألق وتزدهر وتصبح نجوماً..

- جمال عبد الناصر من قرية (بنى مر) فى أسيوط..
- أم كلثوم من قرية (طماى الزهايرة) بالسنبلاوين بالدقهلية..
- الزعيم أحمد عرابى من قرية (هرية رزنة) فى محافظة الشرقية..
- عميد الأدب العربى دكتور طه حسين من قرية (عزبة الكيلو) بالمنيا..
- عباس محمود العقاد عملاق الأدب العربى من أسوان..
- مصطفى لطفى المنفلوطى من منفلوط..
- رفاعة رافع الطهطاوى من طهطا..
- عبد الحليم حافظ من قرية (الحلوات) فى الشرقية..
- الشيخ محمد متولى الشعراوى من قرية (دقادوس) مركز ميت غمر..
- أنور السادات من قرية (ميت أبو الكوم) فى المنوفية..
- حسنى مبارك من قرية (كفر المصيلحة) فى المنوفية أيضاً..

لا غرابة إذن فى أن يكون أشهر شعراء إنجلترا «ويليام شكسبير» أيضاً قد جاء من قرية إنجليزية صغيرة اسمها [ستراتفورد – أبون – إيفون STRATFORD – UPON AVON –] فى مقاطعة [ووريكشـاير WARWICKSHIRE] فى وسـط إنجلترا.. ومعناها [سـتراتفورد التى تقع على نهر إيفون].قرية صغيرة لعلها لازالت كذلك

بالمقاييس الإنجليزية.. لكن مولد «ويليام شكسبير» فيها جعلها أشهر قرية فى العالم، وربما يمكن أن تسمى الآن [قرية شكسبير] أو [مدينة شكسبير].. فالقرية الآن أصبحت ليست فقط مدينة صغيرة؛ بل إن كل شىء فيها أصبح شكسبيرياً: مؤسسة شكسبير للمسرح، مسرح - بل مسارح - شكسبير، مكتبة شكسبير، معرض شكسبير، فندق شكسبير، شارع شكسبير، المدرسة التى تعلم فيها الصبى ويليام شكسبير، البيت الذى ولد فيه شكسبير (بيت أمه)، بيت شكسبير نفسه الذى اشتراه بفلوسه بعد أن أصبح شكسبير وعاش فيه سنواته الأخيرة، ومات فيه، بيت ابنة شكسبير الوحيدة، بيت حفيدة شكسبير الوحيدة أيضاً، حتى بيت حماة شكسبير أم زوجته.. كلها أصبحت مزارات سياحية هامة.. ولا يجىء أديب أو مثقف من أى أنحاء العالم إلا وكانت [ستراتفورد - أبون - إيفون] فى أولويات زيارته لإنجلترا..

* * *

لكن تعالوا أولاً نطل إطلالة سريعة على الإقليم نفسه الذى تقع فيه ستراتفورد، إقليم أو مقاطعة [ووريكشاير].. ينقسم هذا الإقليم إلى قسمين: غابة [آردن ARDEN] فى الشمال، ومنطقة العصور الوسطى فى الشرق وفى الجنوب.. واستقر الشكل العام الآن بأن منطقة الغابات قد تحولت إلى مجموعة من القرى الصغيرة تزرع أهم وأفضل المحاصيل الزراعية فى إنجلترا، وأصبحت مكاناً هادئاً مريحاً لسكانه من أهل الريف الإنجليزى.. ويمر بالمنطقة كلها نهر [إيفون AVON] الذى يبدأ من الشمال الشرقى حتى يصل إلى وادى [إيفشام THE VALLY OF EVESHAM]..

وقرية [ستراتفورد - إبون - إيفون] الصغيرة أصبحت مدينة الآن بعد أن كانت مجرد قرية صغيرة.. فى شوارعها الممتدة الطويلة تتجاور المبانى مختلفة الطرازات من العصور الإنجليزية الوسطى - وعندما نقول العصور الوسطى فإن المقصود بها ما بين القرن الخامس الميلادى والقرن السادس عشر - إلى جوار المبانى التى على طراز الـ[جورجيان] والـ [ستيورات].. وليس من رأى كمن سمع، فإذا كنت لم

تر المدن الإنجليزية القديمة فلن تستطيع أن تتخيل هذه الطرازات كلها.. أنا لم أكن أعرفها ولم أكن أعرف الفرق بين الـ [جورجيان] والـ[ستيوارت] إلا بعد أن رأيتها بعينى وشرحوا لى الفرق بين هذا وذاك.. البيوت المبنية بالحجر وليس بالخراسانة وحديد التسليح.. ذلك لا يمنع أن بعض مدن الإقليم مبنية على الطرز المعمارية الحديثة لأنها أصلاً بنيت كلها فى العصور الحديثة..

* * *

وقد شهدت هذه المنطقة جانباً من الحرب الأهلية الإنجليزية التى قادها عضو البرلمان الإنجليزى الثائر «أوليفر كروميل» ضد الملك «تشارلز الأول»، والتى انتهت بانتصار «كروميل» وقطع رأس الملك وإقامة جمهورية فى إنجلترا لسنوات قليلة، نحو ١١ سنة، من ١٦٤٩ إلى ١٦٦٠، يعنى بعد وفاة شكسبير بأكثر من ٣٠ سنة، حتى مات كروميل فعادت الملكية إلى إنجلترا وتولى الملك «تشارلز الثانى» ابن «تشارلز الأول» الذى أعدمه «كروميل»، العرش الإنجليزى مرة أخرَى..

* * *

أشهر مدينة فى بريطانيا بعد لندن العاصمة، هى ستراتفورد.. لكن ذلك بسبب شكسبير فقط.. فهى ليست مدينة عظيمة ولا حتى مدينة كبيرة، لكن تظل قيمة ستراتفورد الكبيرة أنها مسقط رأس أشهر شعراء إنجلترا التى ولد فيها وعاش فيها طفولته كلها وصباه ومطلع شبابه، فإنه لم يغادرها إلى لندن العاصمة إلا بعد أن تجاوز العشرين من عمره.. ولم يكن فى ذهنه وقتها ولا خطر على باله أن يكون شاعراً ولا كاتباً مسرحياً؛ لكن كل الذى كان يشغله ويفكر فيه هو أن يصبح ممثلاً مسرحياً – فلم تكن السينما قد ظهرت بعد فى العالم – وفعلاً فى البداية ولعدة سنوات كان ممثلاً، وممثلاً لأدوار صغيرة ولم يكن له أبداً اسم كبير فى عالم التمثيل المسرحى.. ولم يبدأ اسمه فى الظهور واللمعان والتألق إلا بعد أن بدأ يكتب الشعر، ثم بعده يكتب للمسرح.. وحتى فى البداية لم يكن يكتب وحده بل بالاشتراك أو بالتعاون مع كتاب مسرح آخرين، لكنه حين كتب وحده لمع وتألق وأصبح أهم شاعر إنجليزى فى عصره، وفى كل العصور بعد ذلك، حتى الآن..

وقـد يكون (كلام شـعراء)؛ لكن واحداً من الشـعراء المهمين فـى تاريخ الأدب الإنجليـزى: [تومـاس فـولار THOMAS FULLER] وصف سـتراتفورد والمنطقة المحيطة بها بأنها (صورة مصغرة للجنة)!!.. أنا شـخصياً - يمكن لأننى لسـت شـاعراً - لا أرى أنها صورة مصغرة للجنة ولا حاجة.. أولاً لأن أحداً لم ير الجنة نفسـها حتى يحكم بأن هذا المكان أو ذاك يشـبه الجنة.. وثانياً أننى عندما زرت ستراتفورد وجدتها مجرد قرية إنجليزية كبيرة عادية جميلة ككل القرى الإنجليزية.. لكن يبدو أنه عندما كتب الشاعر الإنجليزى هذا الوصف فى ستراتفورد لم يكن قد رأى قـرى إنجليزيـة غيرها، أو أنه كان مدلهاً فى حب شكسـبير إلى حد القعقعة فى الوصف..

* * *

ستراتفورد لازالت تحتفظ بطابعها القديم حين بدأت تظهر على خريطة إنجلترا فى القرن السابع الميلادى، وكانت معظم مبانيها تبنى من خشب البلوط والأحجار وجذوع الأشـجار مما يجعلها ذات طابع مميز جداً ومتفرد جداً.. ربما لأن الغابات ذات الأشجار القوية الضخمة كانت منتشرة جداً فى المنطقة المحيطة بها..

وكان بدء ظهور اسـم سـتراتفورد كقرية فى التاريخ الإنجليزى فى أواخر القرن السابع، عام ٦٩١، حين أقيم دير للرهبان فى أرض خلاء، فهكذا الأديرة دائماً تقام فـى الصحراء أو فى الأماكن المتطرفة بعيداً عن الناس وعن العمران.. لكن سـرعان ما نشأ وتكون حول وبالقرب من هذا الدير مجتمع زراعى صغير ظل يكبر وينمو مع الوقت حتى أصبح قرية صغيرة هى ستراتفورد، ثم قرية كبيرة، ثم مدينة صغيرة، وبين كل مرحلة وأخرى عدة مئات من السنين.. وفى القرن الثانى عشر سمح الملك الإنجليزى بإقامة سـوق فى قرية سـتراتفورد.. فقد كانت الأسواق فى ذلك الوقت لا تقام إلا بإذن خاص من الملك شـخصياً!!.. كان الملوك زمان فاضيين وماوراهمش حاجة ينشـغلوا بيها فكانوا هم المسيطرين على كل الأمور وأصغر الأمور، بما فيها التصريح بإقامة الأسـواق فى القرى.. ولازالت سـتراتفورد تحتفل بهذا التاريخ فى

١٢ أكتوبر من كل عام وكأنه عيدها القومى.. «ناس رايقة..» وكان الراعى الرسمى – كما يقال الآن – لسوق ستراتفورد وكل أنشطتها «سير هيو كلوبتون HUGH CLOPTON» أحد كبار أعيان المنطقة، الذى أصبح فيما بعد عمدة مدينة لندن، العاصمة، نفسها..

وبدأت ستراتفورد تصبح منطقة سياحية يجيئها الزوار من كل مكان فى العالم لكى يشاهدوا مسقط رأس الشاعر ويليام شكسبير من عام ١٦٢٣، بعد وفاته عام ١٦١٦ بسبع سنوات.. وأصبحت بيوت شكسبير الخمسة: بيوت أمه وحماته وابنته ثم حفيدته، وبيته هو شخصياً، ثم المدرسة التى تعلم فيها؛ مزارات سياحية هامة.. وحتى التاريخ الإنجليزى يقول عن هذه المدرسة: [المدرسة التى لابد وأن يكون شكسبير قد تعلم فيها].. بمعنى أنه ليس من المؤكد أن يكون شكسبير قد تعلم فى هذه المدرسة، وبالتالى ولا فى أى مدرسة غيرها، لأنه لم يكن فى ذلك الوقت فى ستراتفورد غير مدرسة واحدة هى هذه المدرسة، وكانت مدرسة دينية تبشيرية لأن مدرسيها الأربعة (!!) جميعاً كانوا من الكاثوليك تخرجوا فى جامعة أوكسفورد، التى كانت فى بدايتها جامعة دينية لتدريس علوم الدين، المسيحى طبعاً، مثل جامعة الأزهر عندنا فى مصر زمان قبل تحولها إلى جامعة عادية تدرس طب وهندسة وزراعة.. وشكسبير، بالمناسبة، لم يدخل الجامعة ولا كان له أى علاقة بها، مع أن أشعاره ومسرحياته تدرس فى جامعات العالم كله الآن.. الموهوب لا يحتاج إلى شهادة جامعية مختومة بختم النسر، وملايين تخرجوا فى الجامعات وعاشوا وماتوا دون أن يشعر بهم أحد..

* * *

وأخذتنى «جيليان هال»، دليلتى فى ستراتفورد، وهى أستاذة جامعية، إلى هذه المدرسة، مدرسة [الملك إدوارد KING EDWARD]، فى الشارع الرئيسى فى ستراتفورد، وأدخلتنى فصلاً قالت لى إنه الفصل الذى كان فيه التلميذ الصغير «ويليام جون شكسبير»، وأجلستنى إلى (تختة) معينة – كنا نسميها هكذا أيام

دراستنا الابتدائية والثانوية فى مصر ولا أعرف ماذا يسمونها الآن، (قمطر) يمكن – وقالت لى إن هذه التختة بالذات هى التى كان يجلس عليها التلميذ ويليام شكسبير.. ولابد أنها (تختة) متينة الصنع جداً، ربما من الصلب، حتى تعيش نحو ٤٠٠ سنة حتى الآن وتظل تنتظرنى لأجلس إليها أنا الذى ولدت بعد وفاة شكسبير بـ ٣١٨ سنة!!..

الشىء الطريف الذى حدث فى ستراتفورد وكان ممكناً أن يحدث فى أى مكان فى مصر؛ فعلى رغم أننى كنت مدعواً لزيارة ستراتفورد من هيئة السياحة البريطانية ومرافقتى أستاذة جامعية هى الدكتورة «جيليان هال»؛ إلا إن الست ناظرة المدرسة رفضت أن أصور فى المدرسة بحجة أن أحداً لم يخطرها بزيارتى!!.. لكن بمجرد أن أعطتنا الست الناظرة ظهرها سمح لى معاون المدرسة بأن أصور كل ما أريده وحتى لو أردت أن آخذ معى وأنا خارج التختة التى كان يجلس عليها شكسبير فاتفضل، ماتغلاش عليك..

* * *

لكن الشارع الذى فيه مدرسة شكسبير أصبح الآن الشارع الرئيسى التجارى HIGH STREET فى المدينة الصغيرة.. وهو شارع تتجاور فيه المبانى القديمة جداً التى ربما عاصرت ويليام شكسبير، إلى جانب المبانى الحديثة جداً وكل فروع المحلات الكبيرة فى لندن العاصمة..

والآن؛ قبل أن نغرق فى تاريخ شكسبير وحكايات شكسبير وبيوت آل شكسبير؛ تعالوا أولاً نتجول قليلاً ونستطلع ستراتفورد نفسها وما يمكن أن نراه فيها بالإضافة إلى شكسبير..

* * *

● أهم معالم ستراتفورد الآن هو الـ[RSC] أو [الشركة الملكية لشكسبير THE ROYAL SHAKESPEARE COMPANY] التى أنشأها فى عام ١٩٦٠ الممثل والمخرج المسرحى الإنجليزى الكبير «بيتر هول» PETER HALL تضم ٣ مسارح كلها

فى ستراتفورد، وكلها تعمل وتقدم عروضها على مدار السنة.. أكبرها وأوسعها وأهمها الذى يطلق عليه [مسرح شكسبير الملكى THE ROYAL SHAKESPEARE THEATRE]، ويطلق عليه اختصاراً [الملكى THE ROYAL]، الذى بنى عام ١٩٣٢ وبه أكبر خشبة مسرح فى العالم، وهو أكبر مسرح لتقديم الكلاسيكيات فى العالم، ليس فقط مسرحيات شكسبير لكن أيضاً كبار كتاب المسرح فى عصره أوالذين عاصروه، وحتى الجيل الحالى من الكتاب المسرحيين.. وهو يضم أيضاً معرضاً أو متحفاً للأزياء والملابس التى استخدمت على مر العصور فى مسرحيات شكسبير الشهيرة + معرض للرسومات التى رسمها رسامون من كل أنحاء العالم لشكسبير فى مختلف العصور.. ثم [مسرح البجعة THE SWAN THEATRE] وهو مسرح شبه مكشوف بنى على الطراز الإليزابيثى الذى كان موجوداً أيام كان ويليام شكسبير نفسه موجوداً.. المسرح الثالث يسمى [المكان الآخر THE OTHER PLACE] وهو مسرح صغير يقدم العروض المسرحية الصغيرة الحديثة..

● مكتبة شكسبير أو مركز شكسبير فى [هينلى ستريت HENLEY STREET] فى وسط مدينة ستراتفورد وتطل على نهر AVON مباشرة.. وهى ليست المكتبة التى كانت فى بيت شكسبير ولا حتى المكتبة العامة فى القرية التى كان يقرأ فيها هو؛ لكنها مكتبة حديثة تبيع كل مسرحيات شكسبير التى طبعت بمعظم لغات العالم، ومن بينها اللغة العربية، وأشعاره، وكل الكتب التى تتحدث عن شكسبير وتاريخ شكسبير، مدحاً أو نقداً، وتعرض كل الوثائق والمخطوطات والأوراق المتعلقة بشكسبير + أيضاً تسجيلات بالصوت وبالصورة لكل مسرحيات شكسبير.. اشتريت مجموعتين من الأعمال الكاملة التى تضم كل مسرحيات شكسبير الـ ٣٨: مجموعة لمكتبتى فى بيتى اللندنى والثانية لمكتبتى فى بيتى القاهرى، فقد أحتاجها يوماً ما، هنا أوهناك..

● تستطيع أن تستمتع برحلة نهرية فى نهر AVON فى مراكب وبواخر نهرية نزلت إلى هذا النهر لأول مرة فى عام ١٨٩٨، يعنى من نحو ١١٠ سنوات، ولازالت

تعمل حتى الآن.. اطمئن فلن تغرق أى واحدة منها بعد، لأنك فى إنجلترا ولست فى مصر وليس اسمها عبارات السلام..

● أو تستطيع أن تركب الأوتوبيس السياحى الذى لا سقف له، المفتوح من أعلاه إلى السماء.. تذكرته صالحة لمدة ٢٤ ساعة، وتستطيع أن تنزل منه وتعود إليه فى ١٤ محطة يقف فيها – من بينها كل البيوت الخمسة التى تنتمى إلى شكسبير – لكى تتمكن من مشاهدة كل معالم ستراتفورد على راحتك، وتستطيع أن تتركه فى أى محطة لكى تستريح قليلاً أو تتفرج على المكان بغير استعجال أو لكى تدخل أى بيت من بيوت شكسبير، أو حتى لكى تتناول غداءك فى أى مطعم من عشرات المطاعم المتناثرة فى كل مكان وأيضاً تلبى كل الأذواق: هندى صينى مصرى لبنانى عربى تركى أمريكى يابانى، وكل مطعم منها يعلق على واجهته الزجاجية من الخارج أسعار الوجبات فيه لكى تحسبها وتراجع ميزانيتك قبل أن تدخله.. أما إذا رأيت ألا تغادر الأوتوبيس فى أى من هذه المحطات الـ ١٤ فإن الرحلة كلها سوف تستغرق ساعة واحدة..

● وإذا كنت حضرتك قلبك جامد وتحب المغامرة وأعصابك تتحمل أن تركب (منطاد) – ويسمونه هنا (بالون) – لمدة ٣ أو ٤ ساعات، وكانت ميزانيتك تتحمل أن تدفع ١٤٩ جنيهاً – إسترلينياً – زيادة، وكانت زيارتك لستراتفورد فى الفترة بين أول أبريل وآخر أكتوبر، ودفعت آخر قسط فى بوليصة التأمين على حياتك التى سوف تقبضها زوجتك إذا حدث لا قدر الله حاجة كده والا كده من الفصول البايخة التى تحدث أحياناً؛ فإنك تستطيع أن تركب هذا المنطاد، أو البالون، لكى تتفرج من ارتفاع شاهق على كل معالم المنطقة والمناطق المحيطة بها.. وسوف يقدمون لسعادتك شمبانيا على المنطاد احتفالاً بتشريفك – أو ربما لافاقتك – وسوف تنزل من المنطاد بعد هذه الجولة وفى يدك شهادة مطبوعة بأنك قد (ارتكبت) هذه الجولة، التى فعلتها أنا وظللت طوال وقتها وأنا أشعر أننى قد ألقيت بنفسى إلى التهلكة وأن رحلة هذا المنطاد أو البالون لن تنتهى على خير.. ولم أكن لأفعلها

أو أقوم بها أصلاً لو كنت سأدفع من جيبى الشخصى ١٤٩ جنيهاً إسترلينياً = نحو ١٦٠٠ جنيه مصرى؛ لولا أننى كنت مدعواً من هيئة السياحة البريطانية ومش غرمان حاجة..

* * *

● حان الآن موعد الغداء.. أهم المطاعم والكافيتيريات والبارات فى ستراتفورد فى شارع اسمه [SHEEP STREET] أو شارع - لا مؤاخذة - الغنم!!.. أخذتنى «جيليان هال» إلى كافيه اسمه [THE DIRTY DUCK] أو [البطة القذرة]!!!.. الناس هنا بيسموا أسماء غريبة ليه!؟.. الغنم، والبطة القذرة.. طيب بطة ومعلهش؛ لكن قذرة ليه!؟.. إيه الجمال أو الظرف فى أنها تكون قذرة!؟.. لكن الغداء كان رائعاً.. وعرفت أن هذا الكافيه بالذات، لقربه من مسرح شكسبير الملكى؛ فإن معظم الممثلين الذين يشتركون فى تقديم عروض مسرحيات شكسبير على المسرح الملكى؛ يهرعون بملابس التمثيل خلال فترات الاستراحات بين الفصول لكى يستريحوا قليلاً فى [البطة القذرة] ويأخذوا لهم ساندوتشين - أو ربما كأسين - قبل أن يعودوا إلى خشبة المسرح.. لذا فقد تكون سعادتك محظوظاً إذا فوجئت بأن الجالس على المائدة المجاورة لك هو الملك لير أو هاملت أو عطيل، ويا سلام لو كانت أوفيليا أو ديدمونة أو جولييت..

● انتهى الغداء دون أن أرى أوفيليا أو ديدمونة أو جولييت، يبدو أنهن لا يجئن ظهراً.. نكمل جولتنا فى ستراتفورد.. أيضاً فى شارع اسمه [شارع شكسبير] معرض للدراجات والموتوسيكلات من مختلف العصور منذ ظهورها فى الشارع الإنجليزى حتى الآن.. لم أستطع أن أعرف لماذا اختاروا ستراتفورد بالذات مقراً لهذا المعرض بالذات.. ربما لأن أول من اخترع الدراجة ثم الموتوسيكل كان من نفس المنطقة.. ربما..

● وأيضاً [متحف الأسلحة والدروع] فى شارع SHEEP STREET.. الذى يضم أشكالاً وألواناً من الأسلحة والدروع التى استخدمت فى الحروب الإنجليزية منذ

٦٠٠ سنة.. وكانوا فى أوقات الحروب يلبسون دروعاً معدنية تغطى الجسم كله من الرأس إلى القدم والوجه أيضاً.. كيف كانوا يتحركون بهذه الأثقال الحديدية بل ويحاربون بها!؟.. لكنهم كانوا يفعلون على أى حال..

● وأيضاً متحف للسيارات منذ بدايتها حتى الآن.. لكن السيارة اختراع إنجليزى غالباً بدأه الخواجة «فورد» الكبير، الذى لازالت السيارة الـ (فورد) تحمل اسمه حتى الآن.. الطريف أن كلمة [FORD] فى اللغة الإنجليزية تعنى شيئاً ظريفاً جداً: المنطقة الضحلة من النهر، أى نهر، التى يستطيع الإنسان أن يعبر من خلالها النهر من ضفة إلى الأخرى سائراً على قدميه أو راكباً (ركوبة ): حصان حمار أى حاجة ممكن تمشى على أربع، أو حتى راكباً سيارة لن تغرق منه فى هذه المنطقة الضحلة من النهر!!..

● من الآثار الهامة أيضاً فى ستراتفورد [بيت هارفارد HARVARD HOUSE] الذى بناه فى عام ١٥٩٦ – فى حياة شكسبير، وكان شكسبير نفسه عمره ٣٢ سنة وقتها – الجد الأكبر لـ«جون هارفارد».. هذا البيت كان ملكاً للسيدة «كاترين روجرز» والدة «جون هارفارد» الذى كانت المنحة المالية التى تبرع بها كافية لإنشاء الجامعة التى تحمل اسمه فى بوسطون فى أمريكا، [جامعة هارفارد]، التى أصبحت بعد ذلك أهم وأشهر جامعة فى أمريكا كلها وواحدة من أشهر جامعات العالم، مع جامعتى أوكسفورد وكمبريدج الإنجليزيتين.. ورداً على هذا الكرم الإنجليزى من «جون هارفارد» قام المليونير الأمريكى، من شيكاجو، «إدوارد موريس» بشراء بيت [هارفارد هاوس] فى ستراتفورد حين عرض للبيع بعد وفاة صاحبته «كاترين روجرز» وأهداه إلى جامعة هارفارد.. ولما كانت الجامعة لا تستطيع نقل البيت المتبرع به من ستراتفورد فى إنجلترا إلى بوسطون فى أمريكا؛ فقد أبقت البيت فى مكانه فى ستراتفورد لكى ينضم إلى قائمة مزارات مدينة ستراتفورد الهامة، وتديره المؤسسة التى ترعى وتدير كل متعلقات شكسبير فى ستراتفورد..

● ومادمنا قد وصلنا إلى سيرة أمريكا، فإن أمريكا لها أيضاً شيئان آخران فى ستراتفورد.. الأول: الفسقية الأمريكية فى شارع [روبرت ستريت]، و[برج الساعة

THE CLOCK TOWER] الـذى كان هديـة من الشـعب الأمريكـى لإنجلترا فى عام ١٨٦٦ بمناسـبة اليوبيل الفضى لتـولى الملكة «فيكتوريا» عرش إنجلترا.. الملكة «فيكتوريا» هى صاحبة أطول مدة حكم لملك أو ملكة فى تاريخ إنجلترا.. فقد تولت العرش لمدة ٦٠ سـنة حتى ماتت سنة ١٩٠١.. وحفيدتها الملكة الحالية «إليزابيث الثانية» موشكة الآن أن تلحـق بجـدتها فى أطـول مدة حكم، فهى قد تولت عرش بريطانيا بعد وفاة أبيها الملك «جورج السـادس» فى عام ١٩٥٢ يعنى منذ ٥٦ عاماً حتى الآن، ولسه..

● وفـى حديقـة [بانكروفـت BANCROFT] سـوف تـرى تماثيـل ليس فقط لـ«ويليام شكسـبير» وحده؛ لكن أيضاً تماثيل أخرى لأبطال مسـرحياته الشعرية: ليـدى ماكبث، هاملت أمير الدانمرك، الأمير هال، الملك لير، فولسـتاف، روميو وجولييت، عطيل وديدمونة، وغيرهم..

● كنيسـة [هولى ترينيتى HOLY TRINITY CHURCH] فى [ترينيتى ستريت] التى عمرها ٧٠٠ سنة الآن.. وهى الكنيسة التى تم فيها تعميد الطفل « ويليام جون شكسـبير » عند مولده فـى ٢٣ أبريل عام ١٥٦٤، ومن قبله، ومن بعده، أسـرته كلها: آل شكسبير كلهم.. يعنى كانت الكنيسة التى تذهب إليها الأسرة كلها كل يوم أحد وفى الأعياد الدينية المسـيحية وفى المناسـبات الأخرى المختلفة: زواج، وفاة، ميلاد.. ففيها أيضاً تـزوج الشاب الذى لم يكن مستقبله قد تبين بعد «ويليام جون شكسبير» من عروسه «آن هاثاواى».. وأقول إن مستقبله لم يكن قد تبين بعد لأنـه كان عمـره عندما تزوج ١٨ سـنة ولم يكن قد بدأ أى شـىء فى حياته بعد، لا كان قد مثل للمسـرح، وهو فعلاً مثل للمسـرح بعد ذلك، ولا كان قد كتب شعراً ولا مسـرحيات بعد، كل هذه أشـياء جاءت متأخرة كثيراً فـى حياته.. وفى هذه الكنيسة أيضاً دفن الشاعر المسرحى الأشهر فى ٢٣ أبريل، أيضاً، عام ١٦١٦، بعد زواجه بـ ٣٣ سـنة، وبعد أن أصبح نجم النجوم فى المسرح الشعرى الإنجليزى، ودفنـت فيها أيضـاً زوجـته «آن هاثاواى»، ثم ابنـته «سـوزانا» وزوجها الطبيب

«جـون هول»، ثم حفيدته «إليزابيث» وزوجـها «تومـاس ناش».. وهى واحدة من أجمـل الكنائس فى إنجلترا.. وسـوف تزور الكنيسـة مجاناً دون أن تدفع رسـم دخول.. أما إذا أردت أن ترى بعينيك مدفن شكسـبير نفسـه فسوف تدفع جنيهاً واحداً..

وبما أننى كنت ضيفاً على هيئة السـياحة البريطانية فإننى رأيت قبر شكسـبير دون أن أدفع شـيئاً، بـل وجعلتنى مرافقتى «جيليان هـال» أرى أيضاً الصفحة، المفتوحة دائماً، فى سجلات الكنيسة التى فيها اسم الطفل «ويليام جون شكسبير» يوم تعميده!!.. وبالمناسـبة: فإن اليوم القومى أو العيد القومى لمدينة سـتراتفورد هـو يوم ذكرى ميلاد، ووفاة، مجدها وفخرها وعزها الشـاعر ويليام شكسـبير فى ٢٣ إبريل من كل عام.. المثير للدهشـة، مش أوى، هو أن شكسـبير ولد ومات فى نفـس التاريخ: ٢٣ أبريـل!!.. ولد فى ٢٣ أبريل عام ١٥٦٤ ومات فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦..

بالمناسـبة أيضاً والشـىء بالشـىء يذكر.. فقد كنت أظن أن مرافقتى أسـتاذة الجامعة تفعل ذلك وتكون دليلتى فى جولتى فى سـتراتفورد التى اسـتمرت ثلاثة أيـام؛ متطوعة حباً فى أدب وعظمة ابن بلدها ومجد بلدها شكسـبير؛ لكن اتضح لى فى نهاية الزيارة أنها تعمل فى أوقات فراغها مرشـدة سـياحية ثقافية بالأجر، وتتقاضى أجراً بالسـاعة عن مرافقتى، أنا أو غيرى من الضيوف المهمين عند هيئة السياحة البريطانية!!..

وبالمناسـبة كذلك: يستقبل السـياح المهمين المهتمين بالآداب والثقافة والفنون «بول رينجار»، وهو نفسـه كاتب وأديب ومخرج مسـرحى مهم، ليس ذلك فقط؛ بل كان رئيسـاً لقسـم الدراما فى كلية [كنـج ألفريد كولـدج KING ALFRED'S COLLEGE]..

● الحديقة التى كان يجلس فيها الشـاب «ويليام شكسـبير» بالساعات يستجدى الوحـى والإلهـام قبل أن يرحـل إلى لندن العاصمـة.. اسمها [تشـارلكوت بارك CHARLECOTE PARK] وتمرح فيها الغزلان حرة طليقة تجرى هنا وهناك..

● تستطيع أيضاً أن تزور [قلعة ووريك WARWICK CASTLE] التى حين عرضت للبيع اشـتراها متحف ما ودفع فيها مليونى جنيه، ثم أنفق على تجديدها مليونى جنيه أخرى.. عظيمـة ورائعة وقطعة من التاريخ الحقيقى فعلاً وكأنك ركبت (آلة الزمن) وعدت بها عدة مئات من السنين فى التاريخ الإنجليزى إلى الوراء..

● أقمـت الأيـام الثلاثة التى قضيتها فى سـتراتفورد فى الغرفة رقم ١٠٣ فى فندق [شكسـبير هوتيل SHAKSPEARE HOTEL].. وهـو فندق قديم وعتيق، لكن ذلك لا يـبرر أبداً أن يكون اسـم شكسـبير الضخم المكتوب على بـاب الفندق به خطأ إملائى: ينقص حرف [E] فى منتصف الإسم!!.. لكن كل شىء هنا مرتبط ومتصل بشكسبير.. وعندهم حق طبعاً..

وإذا كنت سـعادتك تنوى أن تقضى ليلة أو عدة أيام فى سـتراتفورد وميزانيتك تسمح بذلك؛ فإن ٢٤٧ فندقاً وموتيلاً وبنسيوناً من مختلف المستويات التى تناسب جيبك ستكون فى إنتظارك، ابتداءً من فنادق الـ ٥ نجوم نزولاً لغاية نجمة واحدة، وبعضها أيضاً بدون نجوم وبدون رتب على الإطلاق..

* * *

لماذا أكرر دائماً، عندما تجىء سيرة شكسبير، أسماء إنجلترا ولا أقول بريطانيا، وأقـول إنجليـزى وإنجليزية ولا أقول بريطانى وبريطانيـة!؟.. لأنه لم تكن هناك بريطانيا أيام شكسبير.. كانت هناك إنجلترا وأسكتلندا وويلز، ٣ ممالك مستقلة فى جزيرة واحدة، كل واحدة منها لها ملك أو ملكة، اتحـدت كلها تحت إسم [المملكة المتحـدة UNITED KINGDOM] فى يناير عام ١٧٠٧، يعنى بعد وفاة شكسـبير بأكثر من ٩٠ سنة، ثم انضمت إليها أيرلنـدا الشمالية بعد ذلك لتصبح بريطانيـا.

وبالمناسـبة أيضاً؛ فإن اسـم [GREAT BRITAIN] لا يعـنى [بريطانيا العظمى] كمـا نترجـمها نحـن؛ وإنمـا يعنى [بريطانيا الكبرى] كما يقال الآن عن مدينة لندن [GREATER LONDON] بمعنـى [لندن الكبرى] لأن أجـزاء من الأقاليم المتاخمة للنـدن العاصمة قد ضمت إليها فأصبحت كبيرة أو كبرى، وكما نقول فى مصر عن

القاهـرة [القاهـرة الكبرى] لأنها الآن بعد توسـعها وامتدادها أصبحت تضم مدينة الجيـزة والدقى وإمبابة والمهندسـين وبولاق الدكرور من محافظة الجيزة، وشـبرا الخيمة من محافظة القليوبية..

* * *

الآن، موعدنا لزيارة بيوت شكسـبير الخمسـة فى سـتراتفورد.. وهذه البيوت الخمسة هى: بيت أسرته الذى ولد فيه شكسبير – بيت أسرة زوجته الذى ولدت فيه «آن هاثاواى» – بيت شكسـبير نفسـه الذى عاش فيه سـنواته الأخيرة ومات فيه – بيت ابنته الوحيدة « سـوزانا » – بيت حفيدته «إليزابيث».. وهذه البيوت الخمسـة الآن تمتلكها وتديرها كمزارات سياحية هيئة اسمها [شكسبير بيرثبليس ترسـت SHAKESPEARE BIRTHPLACE TRUST]، بعد أن آلت إليها من ورثة شكسـبير أنفسهم أو اشترتها من الذين تملكوها بعد وفاة أصحابها الشكسبيريين.. ومهمة هذه الجمعية أن ترعى تراث الشاعر الإنجليزى العظيم.. وتمول هذه الجمعية من الأموال المتحصلة نتيجة رسـوم الدخول لمشاهدة هذه البيوت من الداخل، وهى ليسـت رسوماً قليلة قياساً على أن معظم المتاحف والمزارات الإنجليزية – والعالمية عمومـاً – زيارتهـا بالمجـان؛ لكنها – الجمعيـة – على أى حـال فتحت باب الاشتراك فيها والانضمام إلى عضويتها فى مقابل ٢٥ جنيهاً إسترلينياً تسمح للعضو بالتردد وزيارة هذه البيوت الخمسة فى أى وقت ولأى عدد من المرات على امتداد عام كامل.. والبيوت الخمسة تقع كلها إما فى داخل ستراتفورد نفسها وإما حولها قريباً منها.. الجمعية أيضاً تقدم منحاً دراسـية للدارسين من أنحاء العالم المهتمين بشكسبير وأدب شكسبير وأشعار شكسبير ومسرح شكسبير..

* * *

تعالوا الآن نزور بيوت آل شكسبير الخمسة..

أولها: بيت [مارى آردن MARY ARDEN'S HOUSE].. بيت والدته.. ولست متأكداً بالضبط من الذى سمى بيت أسـرته باسـم والدته وليس باسـم أبيه، وأيضاً

من الذى سمى بيت أسرة زوجته باسم أمها وليس باسم أبيها!؟.. هل هو شكسبير نفسه الذى سمى هذين البيتين هكذا أو الذين أرخوا لحياة شكسبير هم الذين سموها هكذا!؟.. فى الوقت الذى سمى فيه بيت ابنته باسم زوجها وبيت حفيدته باسم زوجها!؟.. لم أجد فى مئات الصفحات التى قرأتها عن سيرة حياة شكسبير تبريراً واحداً لذلك.. لكن ربما لأن للإنجليز تقاليدهم التى لا نستطيع نحن أن نستوعبها بسهولة..

المهم: بيت والدة شكسبير اسمه [بيت مارى آردن] أو [تيودور فارم هاوس TUDOR FARM HOUSE] فى شارع [هينلى HENLEY STREET] فى قرية [ويلمكوت WILMCOTE] على بعد ٣ أميال أو أكثر قليلاً من ٥ كيلومترات فى شمال غرب ستراتفورد.. والإنجليز يقولون [FARM HOUSE] كما نقول نحن فى مصر [العزبة] أوكما يقول الشوام [الضيعة ].. وهو بيت عظيم وفاخر جداً بمقاييس تلك الأيام، مبنى من الطوب وخشب البلوط وجذوع الأشجار كعادة البيوت الكبيرة فى ذلك العهد.. الأب مستر [روبرت آردن ROBERT ARDEN]، جد «ويليام شكسبير» لأمه؛ بالإضافة إلى أنه كان من كبار الأعيان المزارعين؛ فهو أيضاً كان رجلاً نشيطاً جداً ومثابرا جداً وصحته مساعداه؛ حتى إن « مارى آردن » والدة شكسبير كانت الابنة رقم ٨ له!!..

تدخل هذا البيت فتشعر أنك قد ركبت (آلة الزمن) مرة أخرى وعادت بك ٤٠٠ سنة إلى الوراء ودخلت بيتاً بقى على ما كان عليه عندما ولد ونشأ وتربى الطفل الصغير ثم الصبى ثم الفتى «ويليام جون شكسبير».. فترى الغرفة التى كان ينام فيها وكأنه يادوب لسه خارج منها منذ لحظات ليذهب إلى مدرسته، وترى غرفة المائدة التى كان، والأسرة، يتناولون طعامهم فيها وكأنهم لسه مخلصين الغداء أو العشاء فيها الآن حالاً.. كل الأثاث الذى ستراه فى البيت إما هو فعلاً الأثاث الأصلى نفسه الذى كان موجوداً أيام طفولة وصبا شكسبير وإمَّا هو صورة طبق الأصل أعيد صنعها لتكون مطابقة للأثاث الذى كان يناسب حياة أسرة من الطبقة المتوسطة

من ٤٠٠ سنة.. الملابس المعلقة فى الدواليب وعلى الجدران قد لبسها الولد الصغير ثم الصبى اليافع «ويليام» فى أيامه.. الورشة الصغيرة التى كان والده الخواجة شكسبير الكبير «جون شكسبير» يصنع فيها القفازات (الجوانتيات)، الملحقة بحديقة البيت الجميلة التى طالما وصفها شكسبير وتغزل فيها فى مسرحياته الشعرية.. وسوف تجد فى البيت أيضاً على مائدة صغيرة نسخة من الطبعة الأولى لأعماله المسرحية الكاملة، التى نشرت فى عام ١٦٢٣، أى بعد وفاة شكسبير نفسه بسبع سنوات كاملة.. والبيت وحديقته والمنطقة الخضراء من حوله تجعلك تستطيع، أنت وأسرتك وأطفالك، أن تقضى يوماً كاملاً فى نزهة خلوية وكأنك فى القناطر الخيرية مثلاً.. وهذه العزبة أو الضيعة التى يتوسطها هذا البيت، تضم أيضاً حظائر للخيول، وأخرى للأبقار، وطاحونة كبيرة لطحن القمح اللازم لعمل الخبز، فقد كان الخبز يعمل في البيوت، حتى فى مصر، حتى عهد قريب، وكان فى كل بيت فرن كبير أو صغير حسب احتياجات وحجم البيت، ومعصرة كبرى للزيوت وغيرها، صوامع لحفظ الغلال و (خزين البيت).. وخارج نطاق الضيعة ورشة حدادة كانت تخدم احتياجات الضيعة، ومعسكر – إذا استطعنا تسميته هكذا – للغجر أو الـGYPSY.. وقد آلت هذه الضيعة كلها وهذا البيت الفخم الضخم الذى ولدت فيه «مارى آردن» والدة شكسبير ثم ولد فيه شكسبير نفسه وأخوته السبعة؛ إلى المؤسسة أو الهيئة التى تضم وترعى كل بيوت آل شكسبير فى عام ١٩٣٠، لكى يصبح أهم المزارات السياحية فى إنجلترا كلها.. وإن كان هذا البيت الشكسبيرى لم يعتبر رسمياً من الآثار إلا فى عام ١٨٤٧.. يعنى بعد نحو ٢٥٠ سنة على وفاة شكسبير! !..

وبالمناسبة: البيت الذى ولد فيه شكسبير غير البيت الذى مات فيه.. البيت الذى ولد فيه، كما رأينا، كان ملكاً لأسرة والدته ثم ملكاً لأبيه بعد ذلك، وظلت أسرة شكسبير تتوارثه أكثر من قرنين من الزمان حتى أوائل القرن التاسع عشر، ثم آل بعد ذلك فى عام ١٨٤٧ إلى مؤسسة شكسبير، التى اشترته بحصيلة تبرعات من

المواطنين الإنجليز، وأعيد ترميمه وصيانته حتى عاد إلى حالته الأصلية التى كان عليها أيام أن ولد وعاش فيه الطفل والصبى والفتى الذى أصبح فخر إنجلترا كلها «ويليام شكسبير».. لكن البيت الذى مات فيه اشتراه الشاعر شخصياً من حر ماله ومكاسبه من كتابة مسرحياته الشهيرة فى الأدب الإنجليزى والمسرح الإنجليزى، ودفع فيه مبلغاً لا يستهان به فى عملة تلك الأيام: ٦٠ جنيها كاملة!!.. وكان ثانى أكبر وأهم بيت فى القرية الصغيرة كلها!!

وسوف تجد، كالمعتاد فى كل الأماكن والمزارات السياحية، عدداً من المطاعم الصغيرة ومحلات بيع الهدايا التذكارية منتشرة حول البيت الذى شهد مولد وطفولة وصبا أشهر كاتب مسرحى فى العالم؛ فلا تعود من زيارتك لبيت مولد شكسبير و(إيدك فاضية)، فلابد من عدد من التذكارات تضعها فى بيتك أنت شخصياً فى القاهرة أو فى أى مكان؛ تذكاراً ودليلاً على أنك قد زرت بيت شكسبير ودخلت غرفة نومه وغرفة الجلوس والحديقة والمطبخ، ويمكن الحمام أيضاً..

ملحوظة سريعة: من اللائق وأنت ذاهب لتزور بيت ناس لأول مرة أن تدخل عليهم وأنت تحمل لهم شيئاً فى يدك.. فـ، وأنت داخل لزيارة بيت آل آردن [MARY ARDEN'S HOUSE] اخرج محفظتك من جيبك لتشترى تذكرة دخول بخمسة جنيهات و ٧٠ بنساً إذا كنت ذاهباً وحدك، ولو معك زوجتك ستدفع ١١ جنيهاً و٤٠ بنساً، ولو معكما أطفال، أياً كان عددهم ستدفع ١٣ جنيهاً ونصف ثمن تذكرة عائلية، أما إذا ذهب أطفالك وحدهم فسوف يدفع كلٌ منهم جنيهين ونصف فقط..

* * *

«مارى آردن» والدة شكسبير، اسم أسرتها [آردن] على اسم نهر [ARDEN] كما نسمى عندنا فى مصر أحداً أو أسرة على اسم نهر قريب من موطن الأسرة، كاسم زميلنا الصحفى الكبير «زكريا نيل» أو اسم «فريدة الزمر» على اسم (ترعة الزمر).. لماذا سمى بيت أسرة شكسبير بإسم والدته [بيت مارى آردن]!؟.. لأنه بيت

أسـرتها أصلاً الذى ولدت فيه «مارى» نفسـها وعاشت ونشأت وترعرعت وكبرت فيـه حتـى تزوجت فيه «جون شكسـبير» الأب وأنجبت فيـه أبناءهما الثمانية.. وواضح من نسـب الأسـرتين: آردن وشكسـبير، أنهما كانتا من الطبقة المتوسطة أو ربمـا دون المتوسـطة، حتى تتزوج «مـارى» من (صانع قفـازات)، يعنى يعتبر إلى حـدٍ ما عامل يشـتغل بيده.. على رغم أنه قـد أصبح بعد ذلك (باشمحضر) قد الدنيا فى بلدية سـتراتفورد» ثم من كبار تجار ستراتفورد وعضواً بالمجلس المحلى بهـا ومـا يمائل (العمدة) لقريته، لكـنه أفلس تماماً قبل أن يموت فى عام ١٦٠١، قبل وفاة ابنه الشـاعر الكبير «ويليام شكسـبير» بـ ١٥ سـنة.. والمكتوب فى تاريخ أو سـيرة شكسبير أن الأب «جون شكسـبير» جاء من ضاحية قريبة من ستراتفورد اسمها [سـنيترفيلد SNITERFIELD] ليتزوج «مارى آردن» فى عام ١٥٢٩ واستقرا فى هذا البيت فى عـام ١٥٥٢ حـيث أنجبـا أولادهما الـ ٨.. الطـفل «ويليام جون شكسـبير» كان الثالث فى الترتيب، بعد بنتين: «جوان» و «مارجريت» ماتتا قبل أن يولد فى عام ١٥٦٤ (!!).. التواريخ واسعة شوية أو ربما واسعة كتير: شكسبير الأب ومـارى آردن الأم تزوجـا فى عام ١٥٢٩ وظلا بلا إنجاب حتى تذكرا، فبدآ فى الإنجاب بعد زواجهما بنحو ٣٥ سنة.. ده إيه الصبر ده كله.. كانوا مستنيين إيه!؟.. ثم إذا عرفنا أن السيدة والدة شكسبير قد تزوجت من السيد والده وهى فى السـابعة والعشرين من عمـرها؛ إذن هل كـان عمرها ٦٢ سنة حين أنجبت ثالث أطفالهـا الثمانية «ويليام شكسـبير»، ثم أنجبت بعـده ٥ أطفال آخرين: جيلبرت – جوان أخرى (بدل فاقد) – آن – ريتشارد – إدموند!؟.. فإذا عرفنا أنه كان بين الابن الأكبر «ويليام» والابن الأصغر «إدموند» ١٦ سـنة كاملة؛ إذن فالسيدة «مارى آردن» ظلت تنتج أطفالاً حتى كان عمرها ٧٨ سنة!؟.. أشياء كثيرة ليست واضحة ولا مفهومة، ولا حتى منطقية، فى سيرة وتاريخ أعظم شعراء إنجلترا!!..

ومـن بين هذه التواريخ الغريبة أيضـاً أن تكون «مارى آردن» قد تزوجت «جون شكسـبير» الأب وعمرهـا ٢٧ سـنة وهو عمره ١٩ سـنة، يعنى أصغـر منها بـ ٨

سنوات.. ثم تتزوج «آن هاثاوى» من «ويليام شكسبير» الابن وعمرها ٢٦ سنة وهو عمره ١٨ سنة، يعنى أن الزوج فى الحالتين أصغر من الزوجة بـ ٨ سنوات!!.. ولست أعرف – الآن – ما إذا كان سن الـ ٢٦ أو الـ ٢٧ للبنت فى ذلك العصر يعتبر كبيراً «وفاتها سن الزواج، يعنى بالعربى المصرى أو بالمقاييس المصرية أصبحت عانساً فيزوجونها لمن هو أصغر منها بهذا القدر الكبير من السنين!؟، وأيضاً أقل منها كثيراً فى المستوى الاجتماعى.. فشكسبير الأب كان مجرد (صانع قفازات) فى التاسعة عشرة من عمره؛ بينما كانت أسرة «آردن» ليست فقط أغنى كثيراً بل أيضاً أعرق كثيراً يرجع تاريخها إلى عصر الـ [أنجلو ساكسون ]..

أيضاً مسألة مثيرة للاستغراب، قليلاً، أن تكون «مارى آردن» أصغر ٨ أخوات، وأن يكون «ويليام شكسبير»، ابنها، واحداً من ٨ إخوة!؟.. هل كان ٨ أبناء فى ذلك العهد البعيد رقماً عادياً!؟.. ثم هل كان الصبيان فى عصر شكسبير يتزوجون وهم فى مرحلة المراهقة هكذا بينما تتزوج البنات فى سن متأخرة، نسبياً، هكذا!؟..

سطر سريع قبل أن أنتقل من هذه الفقرة: كل إخوة شكسبير، صبيان وبنات، ماتوا فى حياته هو، ماعدا أخته «جوان / ٢» كانت هى الوحيدة التى عاشت بعده..

* * *

عودة إلى «ويليام شكسبير» نفسه قبل أن نترك بيت الأسرة الذى ولد فيه: تاريخه المنشور والمعروف حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ليس فيه أى شىء يذكر.. قال عنه صديقه وزميله الكاتب المسرحى أيضاً «بن جونسون BEN JONSON»: إن ويليام شكسبير قد تعلم فى مدرسة ستراتفورد الحكومية، وإنه كان بليداً فى اللغة اللاتينية، وأبلد فى اللغة اليونانية!!.. على الأقل فقد عرفنا الآن أن التلميذ فى المدرسة الابتدائية الإنجليزية فى ذلك العصر، من ٤٥٠ سنة، كان يدرس ٣ لغات على الأقل: الإنجليزية، لغة وطنه، واللاتينية واليونانية.. لكن: ألم يكن جيلنا

نحن أيضاً يفعل نفس الشـيء بين المدرسـة الابتدائية والمدرسة الثانوية – فلم يكن علـى أيامنا توجد المدرسـة الإعدادية التى لم تظهر على سـاحة التعليم فى مصر إلا بعد أن تخرج جيلنا فى الجامعات – فكنا ندرس فى المدرسـة الابتدائية اللغة العربية، طبعاً، واللغة الإنجليزية بقدر كافٍ جداً يجعلنا نقرأ ونكتب بها ونمتحن فيها امتحاناً عسيراً، ثم حين نبدأ مرحلة الثانوى تضاف إلينا اللغة الفرنسية كلغة أجنبية ثانية.. كنا أيضاً فى مصر ندرس ٣ لغات.. وذلك للعلم وشكراً..

لكن يبدو أن القليل الذى تعلمه شكسـبير فى المدرسـة كان كافياً لأن يشـتغل (كاتب محامى) فى سـتراتفورد بعد أن ترك الدراسة، وفى أعمال أخرى ربما أقل من ذلك..

عودة إلى شكسبير.. قال عنه «بن جونسون» أيضاً: إنه عندما كان الصبى ويليام شكسـبير فى الحادية عشـرة من عمره فـى عام ١٥٧٥ حدث نوع مـن الوباء فى مدينـة لندن العاصمة، جعل الملكة «إليزابيث الأولى» تهرب من العاصمة إلى الريف الإنجليزى إلى قلعة [كينلوورث KENILWORTH CASTLE] بالقرب من ستراتفورد لتقضى بضعة أيام فى ضيافة صاحب القلعة [لورد ليسـتر LORD LEICESTER]، بحجة أن تحضر الاحتفالات التى أقيمت فى المنطقة بمناسـبة زيارتها لها.. وأن هذه الزيارة الملكية هى التى حركت خيال الصبى «ويليام شكسـبير» ليبدأ مشـوار الشعر والمسرح الشعرى.. فما أن بلغ سن ٢٣ سنة – بعد خمس سنوات من زواجه وإنجابـه ٣ أطفال – حتى ترك قريته سـتراتفورد ليذهـب إلى لندن العاصمة ويبدأ مشـواره الطويل فيها: حارسـاً للخيول التى يتركها أصحابها على باب المسـرح قبل أن يدخلوا لمشـاهدة المسـرحيات المعروضة، ثم فى وظيفة تشبه الساعى الذى يعمـل فى خدمة الممثلين، ثم ممثلاً فى البداية لسـنوات عديدة لأدوار صغيرة فى عدة مسـرحيات تحت اسم مسـتعار هو [شيكشافت SHAKESHAFT].. يعنى لم يكـن ممثـلاً كبيراً ولا حتى مهمـاً ولم يقم ببطولة ولا حتـى أدوار ثانيـة فى تلك المسـرحيات، فى العصر الذى كان ممثلو المسرح يصنفون مع المجرمين والصعاليك

والعواطلية، مثلما كان ممثلو المسرح فى بداية عهده فى مصر يسمون (المشخصاتية) وكانوا محتقرين ومنبوذين لا تزوجهم العائلات المحترمة بناتها ولا تقبل شهادتهم فى المحاكم!!.. وبدأ ظهور شكسبير كشاعر فى عام ١٥٩٣ وعمره ٢٩ سنة، يعنى بعد ٦ سنوات من وجوده فى لندن، بقصيدته الشهيرة [فينوس وأدونيس VENUS AND ADONIS] ثم فى السنة التالية [اغتصاب لوكريس THE RAPE OF LUCRECE]..

وحين أنشأ [جيمس بوربيج JAMES BURBAGE] مسرح الـ[جلوب THE GLOBE] فى لندن لكى يمثل عليه ابنه «ريتشارد» الذى كان أكبر وأهم ممثل مسرحى فى عصره، وكان «ريتشارد» صديقاً لشكسبير فضمه إلى المسرح الجديد ثم ما لبث أن أصبح شريكاً فيه.. وبدأ يكتب مسرحياته الـ ٣٨ وعمره ٣٦ سنة، ثم حين اشترى مسرح الـ [جلوب] فى عام ١٦٠٨ مسرح [بلاك فرايرز BLACKFRIARS THEATER] المسمى على اسم الحى القريب من وسط مدينة لندن الذى يوجد به المسرح، كما نسمى عندنا فى مصر (مسرح الأزبكية) على اسم المنطقة التى بها المسرح، أو (مسرح محمد فريد) على اسم الشارع الموجود به المسرح.. وكان مسرح [بلاك فرايرز] هو مسرح الطبقة الراقية الأرستقراطية وأولاد الذوات والنبلاء فى لندن العاصمة فأصبح للشعب كله مثل مسرح الـ [جلوب].. وكتب شكسبير مسرحياته الـ٣٨ كلها فى خلال ١٦ سنة فقط، ليصبح بعدها أول وأكبر وأهم ٣ شخصيات فى الأدب الإنجليزى مع تشارلز ديكنز (بورنموث ١٨١٢) وأوسكار وايلد (لندن ١٨٥٤).. وقد نشرت ١٨ من هذه المسرحيات فى كتب فى حياة شكسبير، ثم نشرت كلها فى مجلد واحد فى عام ١٦٢٣ بعد وفاته بـ ٧ سنوات، ثم نشرت بعد ذلك مئات المرات فى معظم لغات العالم وحتى وقتنا هذا..

لكن بعد وفاة الملكة «إليزابيث الأولى» فى عام ١٦٠٣ وتولى العرش بعدها الملك «جيمس الأول»، الذى يبدو أنه كان من عشاق المسرح ومن المعجبين بشكسبير؛ تغير وضع ممثلى المسرح فى إنجلترا، فقد وضع الملك مسرح الـ [جلوب] تحت الرعاية

الملكيــة، ليــس ذلك فقط؛ بل عين كل فنانى المســرح فى بــلاط جلالة الملك!!..
وبدأت مسرحيات شكسبير تعرض فى القصور الملكية وقصور الأمراء والنبلاء.. يعنى بدلاً من أن يذهب الملك والأمراء والنبلاء إلى المسرح، يذهب المسرح إليهم!!..

* * *

«شــبعتم من ســيرة آل شكسبير وأســرة شكســبير!؟..» تعالوا ننتقل إلى الضفة الأخرى فى الموضوع: بيت أسرة زوجة شكسبير..

بيــت [آن هاثــاواى ANNE HATHAWAY'S COTTAGE] يوجــد على بعد أقل من ميلين غرب ســتراتفورد فى قرية أخرى اسمها [شــوترى SHOTTERY].. وعلى رغم أنه يســمى [COTTAGE] بما قد يعنى أنه مجرد (شــاليه) أو بيت ريفى صغير جداً من طابق واحد وربما غرفة واحدة؛ إلا أن بيت «آن هاثاواى» فى الحقيقة لم يكن «شــاليه» على الإطلاق؛ إنما كان بيتاً كبيراً مكوناً من ١٢ غرفة وملحق به حديقة كبيرة أو مزرعة مساحتها ٩٠ هكتاراً (الهكتار أكبر من الفدان).. وفى ذلك الزمــان لم تكن الحدائق الملحقة بالبيوت تزدان فقط بالورود والرياحين والأشــجار الظليلــة؛ إنما كانوا أيضاً يزرعون فيها الفواكه والخضراوات والتوابل والبقول التى يحتاجها البيت.. وقد بنى هذا البيت قبل القرن الخامس عشر، وكان اسمه عندما تزوج شكســبير من «آن» [مزرعة نيو لاند NEWLAND FARM].. ولم تدخل عليه بعض التعديلات البســيطة غير بعد وفاة شكسبير ثم زوجته «آن هاثاواى» نفسها.. غرف النوم فى الطابق العلوى، والسراير مصنوعة من خشب البلوط وذات ٤ أعمدة فى كل الجوانب – سرير جدتى كان كده – واحد من هذه السراير ولدت عليه «آن هاثاواى» نفسها، فلم تكن مستشفيات الولادة قد ظهرت بعد.. كل النساء فى ذلك العصر، وبعده بعصور كثيرة، كن يلدن فى بيوتهن، وكان ممكناً أن يشــهد السرير الواحد أجيالاً متعاقبة من الولادات..

هذا هو البيت الذى ولدت فيه «آن هاثاواى» ونشأت وترعرعت وكبرت وتزوجت من «ويليام شكســبير» وعمره ١٨ ســنة فقط بينما كانت هى عمرها ٢٦ سنة.. قصة

زواج أبيه وأمه تتكرر مرة أخرى بنفس التفاصيل، فقد تزوج أبو شكسبير من أم شكسبير وعمره ١٩ سنة وعمرها هى ٢٧ سنة!!

* * *

ويليام شكسبير وآن هاثاواى تزوجا فى نوفمبر عام ١٥٨٢.. واسمع ما يقوله المؤرخون النمامون الخبثاء الذين بحثوا ونقبوا ونكشوا فى أسرار شكسبير العائلية جداً: ليس هناك أى دليل أو وثيقة رسمية، ولا حتى فى كنيسة ستراتفورد، بأن زواج شكسبير وآن هاثاواى قد تم فعلاً!!.. لم يجد المؤرخون الذين بحثوا فى سجلات كنيسة ووريستر [WORCESTER غير سجل زواج باسم WILLIAM SHAXPERE و ANN WHATELEY (!!).. والمؤرخون غير مقتنعين على الإطلاق بأن هذا الزواج المسجل فى سجلات الكنيسة باسمين مختلفين عن SHAKESPEARE و HATHAWAY وإن كان الاسمان يشبهان لهما.. يعنى نعود فنقول: إن زواج شكسبير وآن هاثاواى ليس مسجلاً فى الكنيسة، إن كانا قد تزوجا فعلاً أصلاً.. «أمال أنجبا هؤلاء الأبناء الثلاث إزاى» منذ نحو ٤٠٠ سنة فى عصر لم تكن فيه التقاليد مطاطة وكاوتش كما هو الحال الآن فى إنجلترا وفى كل أوروبا وربما فى العالم كله.. الآن ممكن أن يعيش رجل وامرأة شاب وشابة معا لمدة ١٠٠٠ سنة دون زواج ودون كنيسة ودون مكتب تسجيل، وينجبا ٦٠٠٠ طفل يستخرجان لهم جميعاً شهادات ميلاد حكومية مختومة وموثقة فيها اسم الأب واسم الأم، دون أن يهتز رمش البابا فى روما ودون أن يقلق منام شيخ الأزهر أو يتصدى لهما الشيخ القرضاوى ويرفع عليهما قضية حسبة ويفرق بينهما.. يفرق بينهما إزاى إذا كانا غير متزوجين أصلاً.. العمارة التى أسكن فيها فى لندن فيها ٨٠ شقة يعيش فى كل شقة رجل وامرأة وممكن أطفال.. شقتان فقط تزوجا فى الكنيسة، ٤ شقق تزوجا فى مكتب التسجيل فقط، الـ ٧٤ شقة الباقية لا راحوا كنيسة ولا شافوا مكتب تسجيل، يعنى جدعنة كده!!..

وعلى رغم ذلك؛ فإن المؤرخين الرذلين لم يسكتوا.. فأيضاً فشلوا فى العثور على، أو تتبع، زواج هذين المدعوين SHAXPERE و WHATELEY وأين راحا بعد

أن تزوجا فى الكنيسة، فلم يعثروا لهما على أثر فى المنطقة كلها التى لم يكن فيها أصلاً عائلات بهذين الاسمين.. مما زاد الأمر غموضاً والعودة إلى نقطة البداية: إذا كان اللذين تزوجا فى الكنيسة بأسماء SHAXPERE و WHATELEY هما بالفعل WILLIAM SHAKESPEARE و ANNE HATHAWAY فلماذا تزوجا بأسماء مستعارة؛ ولم يكن ويليام شكسبير قد أصبح مشهوراً بعد حتى يحتاج إلى أن يخفى زواجه؛ بل كان يادوب ولد عمره ١٨ سنة يتزوج بنت عمرها ٢٦ سنة، وكلاهما من أسرة معروفة ومشهورة فى المنطقة، حتى لو قيل - برضه من بعض المؤرخين الفضوليين النكاشين - أن «آن» وقت زواجهما كانت حاملاً فى شهرها الثالث؛ فكيف قبلت الكنيسة الإنجليزية فى زمن التقاليد المتشددة فى إنجلترا؛ أن تسجل زواجاً كهذا والعروس بطنها قدامها قاد كده.. ثم ماذا عن الأبناء الثلاثة الذين حملوا اسم الأب «ويليام شكسبير» بعد ذلك دون أن يكون أبوهم وأمهم متزوجين فعلاً!؟.. حاجة تبغبغ اللخبطان، ولسه بتبغبغه حتى بعد نحو ٤٠٠ سنة من وفاة شكسبير وهاثاواى وبعد نحو ٣٠٠ سنة من انقراض الأسرة كلها واختفاء اسم عائلة شكسبير من كل السجلات..

وقد ظل هذا البيت تتوارثه أسرة «هاثاواى» أكثر من ٣٠٠ سنة، حتى عام ١٨٩٢ حين انقرضوا تماماً بعد نحو ٣٠٠ سنة من وفاة شكسبير، فاشترته كاملاً، البيت والأثاث، مؤسسة شكسبير لتضمه إلى سلسلة بيوت شكسبير الخمسة، وتعيده إلى ما كان عليه أيام «آن هاثاواى» وزوجها «ويليام شكسبير»، وأخرجت منه كل ما كان ورثة «هاثاواى» قد أضافوه إلى البيت عندما آل إليهم.. لكن فى عام ١٩٥٩، يعنى من نحو ٥٠ سنة فقط؛ شب فى البيت حريق مدمر كاد أن يقضى عليه.. لكن بعد ذلك أعادت مؤسسة شكسبير البيت إلى ما كان عليه تماماً وفتحته مرة أخرى للزوار.. وأنت تتجول فى بيت [آن هاثاواى] سوف تستمع إلى تسجيلات لأشعار شكسبير بأصوات كبار الفنانين المعاصرين الآن..

أيضاً لا يليق أن تزور بيت السيدة «هاثاواى» دون أن تأخذ لها شيئاً فى يدك: تذكرة دخول ثمنها أكثر قليلاً من خمسة جنيهات، إلا إذا كنت لا مؤاخذة

عيل فسوف تدفع جنيهين فقط، ولو كنت من أصحاب المعاشات أو كبار السن فسوف تدفع ٤ جنيهات.. أما إذا كنت واخد الأسرة كلها مع سعادتك فسوف تدفع ١٥ جنيهاً عن الجميع، أنت والسيدة حرمكم وكل الأولاد، والشغالة كمان إن كانت مثقفة وغاوية شكسبير وراحت معاكم..

* * *

بيت [هَولز كروفت HALL'S CROFT] يقع فى منطقة [أولد تاون OLD TOWN] فى ستراتفورد على بعد خطوات من كنيسة [هولى ترينيتى HOLY TRINITY CHURCH] التى دفن فيها شكسبير وأسرته كلها: أبوه وأمه وزوجته وكل أولاده الثلاثة وزوج ابنته وزوج حفيدته.. هذا البيت يخص، أو كان يخص، ابنة شكسبير الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة حتى كبرت وتزوجت وأنجبت: سوزانا (٢٦ مايو ١٥٨٣ ).. كان ثانى إنتاج لشكسبير بعد سوزانا توأم (٢ فبراير ١٥٨٥) ولد وبنت، الولد أسماه [هامنت HAMNET مات وعمره ١١ سنة فى عام ١٥٩٦، ثم مالبثت البنت [جوديث JUDITH] أن لحقت به طفلة هى أيضاً.. لكن ابنته «سوزانا» عاشت وتزوجت من الطبيب المرموق المهم فى سترتفورد الدكتور [جون هول JOHN HALL] وأنجبت ابنة واحدة هى [إليزابيث ELIZABETH] الحفيدة الوحيدة لشكسبير.. «سوزانا» تزوجت دكتور «جون هول» فى عام ١٦٠٧ وكان عمرها ٢٤ سنة، فى حياة أبيها وقبل وفاته بـ ٩ سنوات، وعاشت فى البيت المسمى باسم زوجها.. وكان البيت فى بدايته بيتاً صغيراً، عندما كانت البيوت الصغيرة فى ذلك العهد تبنى لها (دورة مياه) صغيرة أيضاً فى حديقة البيت.. يعنى عندما تحتاج أن تذهب إلى دورة المياه فعليك أن تخرج من البيت وتجرى مسافة فى الحديقة حتى تصل إلى دورة المياه. «ويالحقت ياملحقتش!!..» لكن ثراء الدكتور «جون هول» مكنه من أن يوسع البيت ويبنى له ملحقاً كبيراً مجهزاً تماماً وكأنه بيت آخر.. حاشد بالأثاثات والمقتنيات واللوحات الفنية من القرنين السادس عشر والسابع عشر.. وكان الدكتور «هول» يزرع فى حديقة البيت

بعض النباتات والأعشـــاب الطبية التى يصفها لمرضاه ويكتبها فى (روشتاته) لهم، فقد كان من أشـــهر أطباء المنطقة كلها وليس فى ســـتراتفورد فقط.. وقد نشـــر هذه الوصفات الطبية من الأعشاب والنباتات فى كتاب أصدره فى عام ١٦٥٧ بعد وفاة حماه شكســـبير بـ ٤١ عـاماً.. ويضم البيت أيضاً فى الطابق العلوى معرضاً للأدوات والأجهزة الطبية التى كانت مســـتخدمة فى عيادة الدكتور «هول» فى حياته، التى لا شـــك تعتبر تحفاً أثرية الآن وقطعاً لم يعد أى منها يســـتخدم الآن فى أى شىء، لكنها تحف قديمة تمثل عصرها: القرن السادس عشر.. ومع ذلك فإن البيت يمثل بيوت الطبقة الإنجليزية المتوســـطة فى ذلك الحين.. فلم يكن ويليام شكسبير على رغم شهرته، ولا زوج ابنته دكتور «هول» على رغم ثرائه وثراء أسرته؛ يعتبران من الطبقة الأرستقراطية

وكانت البيوت فى القرى الإنجليزية فى ذلك الزمان تبنى من شرائح من الخشب التى نسميها فى مصر (الخشب البغدادلى) الذى تبنى منه (التكعيبات)، ثم تغطى هذه الشـــرائح الخشـــبية الرفيعة بطبقة من الأسمنت المخلوط بشـــعر الخيل أو شعر الأبقار لكى تزيده تماســـكاً وقوة.. وكانت البيوت الأقوى للطبقة الأكثر ثراء تضاف إليها أعمدة خشبية متينة لكى تزيدها صلابة وقوة وتطيل فى عمرها أكثر..

أيضا «برضه» قبل أن تدخل بيت سوزانا ودكتور جون هول [HALL'S CROFT] عليك أن تدفع ثمن تذكرة الدخول..

وبعـد وفاة شكســـبير، ومن بعده زوجته «آن هاثاواى»؛ تركت ابنته «ســـوزانا» وزوجها دكتور «جون هول» بيتهما ليعيشا فى البيت الذى مات فيه أبوها شكسبير، المســـمى الآن [نيو بليـــس NEW PLACE].. فلم يكن هناك وريث لشكســـبير غير زوجته وابنته الوحيدة سوزانا..

* * *

«ســـوزانا» ابنة شكســـبير الوحيدة كان لها هى أيضاً ابنـــة وحيدة: «إليزابيث» الحفيـــدة الوحيدة لـ «ويليام شكســـبير».. التى تقول ســـيرة شكســـبير: إن زوجها

(الأول)، ابـن الجـيران فـى البيت المجاور لبيـت أسـرتها، كان «توماس ناش THOMAS NASH» دون أن تذكر شـيئاً عن زوجهـا الثانى إن كانت قد تزوجت مرة أخرى، أو ماذا حـدث لزوجـها (الأول)، هل مات أم طلقا.. لكن المهم هنا هو أنها عاشـت هى وزوجها (الأول) فى البيت الذى سمى باسم زوجها [ناش هاوس NASH'S HOUSE] ويقع فى [تشابل ستريت CHAPLE STREET] على مقربة من [نيو بليس NEW PLACE] آخر بيت سكن فيه شكسبير ومات فيه.. لكن شكسبير لم يعـش ليحضر زواج حفيدته من زوجها (الأول) لأن ابنته نفسـها «سـوزانا» قد تزوجت قبل وفاة أبيها بـ٩ سـنوات فقط، وبذا فإن حفيدته «إليزابيث» كانت طفلة جداً حين مات شكسـبير.. [ناش هاوس] أيضاً أحد البيوت الخمسة المنسوبة لشكسـبير والتـى تعتبر الآن متاحف وآثـارًا إنجليزية مشـاهدتها لابد وأن تكون بتذاكر ورسـم دخول.. ديكـورات البيت من الداخل وأثاثاتـه قديمة جداً وفاخرة جداً تعكس مدى ثراء الزوج «ناش».. وتستطيع أن تدخل إلى حديقة البيت الكبيرة الجميلة، مجاناً، لتشـاهدها بل وممكن أن تقضى فيها يوماً كاملاً أنت وأسـرتك وأطفالك دون أن تدفع شـيئاً.. لكن لكى تدخل البيت نفسه فعليك أن تدفع ثلاثة جنيهات ونصف إذا كنت وحدك، أو تسعة جنيهات للأسرة كلها أياً كان عددها، أو ١٧٠ بنساً فقط إذا كنت – لا مؤاخذة – طفلاً..

* * *

آخر بيوت شكسـبير الخمسة كان هو البيت الوحيد الذى اشتراه شكسبير نفسه ودفـع ثمنه من جيبه الخـاص.. فالبيوت الأربعة الأخرى كانت إما بيت أمه وإمَّا بيت أسـرة زوجته أو بيت ابنته وإمَّا بيت حفيدته، بل إن واحداً من هذه البيوت الخمسـة لم يره فى حياتـه لأن حفيدته «إليزابيث» لم تتـزوج إلا بعد وفاة جدها شكسبير بسنوات عديدة..

بعـد أن لمع اسـم شكسـبير جداً فـى لندن وكتـب مسـرحياته الرائعة الـ٣٨ فى ١٦ سـنة فقط؛ أصبح ثرياً جداً بالفعل نتيجة، أيضاً، مشـاركته فى مسـرح

الـ[جلـوب]؛ ففى عام ١٥٩٧ اشـترى لنفسـه بيتاً فاخراً جـداً فى منطقة [بلاك فرايرز] فى لندن بالقرب من المسـرح، كما اشترى أيضاً بيتاً فى قريته ستراتفورد.. كان ثانى أكبر وأغلى بيت فى سـتراتفورد كلها، ودفع فيه ٦٠ جنيهاً كاملة!!.. لكـن ربما كان هذا البيت غاليًا جداً هكذا، بأسـعار تلـك الأيام، لأنه كان البيت الوحيد فى القرية كلها المبنى من الطوب والحجر وليس من الأخشاب كالمعتاد فى بيوت ذلك العصر.. ولأن شكسبير كان وقتها لازال يعيش فى لندن العاصمة يكتب مسرحياته الرائعة ويباشر تمثيلها وعرضها على مسارح لندن؛ فقد كان يتردد على هـذا البيـت بين حين وآخر.. البيت اسمه [نيو بليس NEW PLACE] فى شـارع [تشـيرش سـتريت CHURCE STREET]، كان قد بناه رجل الأعمال الثرى «هيو كلوبتون» – عمدة لندن فيما بعد – فى عام ١٥٤٠، يعنى قبل مولد شكسبير نفسه بربع قرن، وكان عمر البيت حين اشـتراه شكسـبير ٥٧ سـنة، لذا فقطعاً لم يكن شكسبير أول من سكن فيه..

فى عام ١٦٠٧ أصيب شكسـبير بوعكة صحية شـديدة، ربما بسبب وفاة أخيه الأصغـر [إدموند EDMUND] الذى كان ممثلاً مسـرحياً أيضاً ومات فجأة وعمره ٢٧ سنة.. وحزن شكسبير عليه حزناً شديداً حتى إنه بدأ يفكر فى الاعتزال، وربما يفكر فى الموت.. وحتى قرر فى النهاية أن يتقاعد عن الكتابة فى عام ١٦١٠ وعمره ٤٦ سـنة فقط، فترك لندن وعاد إلى قريته وبيته فى سـتراتفورد الذى اشـتراه قبل ١٣ سـنة.. لكن تقاعده كان عن الكتابة فقط، فخلال السـنوات الست بين تقاعده ووفاته راجع وأعد عدداً من مسرحياته القديمة للنشر فى مجلدات، لكنها لم تنشر بالفعل إلا بعد وفاته بسبع سنوات، فى عام ١٦٢٣..

* * *

فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦ احتفل ويليام شكسـبير بعيد ميلاده الـ ٥٢ فى سـهرة مع صديقيه المقربين [بِـن جونسون BEN JONSON] و[مايكل درايتون MICHAEL DRAYTON] وكلاهما كاتب مسـرحى أيضاً.. وقيل: إنه قد (تَـقَّـل فى الشـرب)

ليلتهـا فمـات فى نفس يوم عيـد ميلاده.. ولد فى ٢٣ أبريـل ١٥٦٤ ومات فى ٢٣ أبريل ١٦١٦!!..

ودفن شاعر إنجلترا العظيم فى نفس الكنيسة التى تم تعميده طفلاً فيها.. وحفر على شـاهد قبره ٤ أبيات من الشـعر كتبها بنفسه – قبل وفاته طبعاً – كانت هذه الأبيات تقول:

GOOD FREND FOR JESUS SAKE FOREBEARS
TO DIGG THE DUST ENCLOSED HEARE
BLESTE BE YE MAN SPARES THES STONES
AND CRUST BE HE YT MOVES MY BONES

ويبـدو لى هنا شـيئان: الأول أن اللغـة الإنجليزية قد تغيرت كثـيراً الآن عما كانت أيام شكسبير.. وأنا أتصور ذلك فعلاً.. فإن هناك عدداً من الكلمات فى هذه الأبيات الشعرية الأربعة لم أفهمها، ولم أجد لها أى معانى فى القاموس إنجليزى/إنجليزى الحديث جداً الذى أتعامل معه.. ثانياً: هل كان شكسبير لسببٍ أو لآخر يعلـم بدنـو أجله وأنه قد يموت عاجلاً فى لحظة ما قد تأتى فجأة؛ حتى إنه أعد هذه الأبيات فى حياته وجهزها وأوصى بأن تحفر على شاهد قبره!؟..

ولم أستسلم لفكرة أن أقرأ شيئاً بالإنجليزية لا أفهمه، حتى لوكان الذى كتبه هو شكسبير نفسه، فلجأت إلى صديقى أستاذ الأدب الإنجليزى الدكتور «تيسير محمد كاملـة»، وله كتاب ضخم عن ٤٨ شـاعراً من الشـعراء الإنجليز بين عامى ١٥٥٠ – ١٩٥٠، ترجم فيه ٢٠٠ قصيدة من أشـعارهم إلى اللغة العربية، يعنى بمتوسـط ٤ قصائد لكل شاعر منهم، لكن شكسبير وحده كان له ٢٤ قصيدة.. الذى أكد لى أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت كثيراً بالفعل عن أيام شكسبير.. وترجم لى هذه الأبيات الأربعة المحفورة على شاهد قبر شكسبير بأنها تقول ما معناه:

حلفتك، يا صاحبى، بالمسيح
ألا تنبش التراب المدفون فى هذا الضريح
بوركت يا من حفظت هذه الحجارة فى حفرتها هذه

ولتحل اللعنة على كل من ينقل عظامى من تحت هذه الحجارة

وقد تهدم هذا الشاهد - شاهد القبر - تماماً فى عام ١٨٣٠، يعنى بعد وفاة شكسبير بـ ٣١٤ سنة، وأعيد إقامة شاهد جديد فى نفس المكان - طبعاً - فى نفس العام.. وأيضاً أقيم على مقربة تمثال نصفى لشكسبير قيل: إنه يمثل الصورة الوحيدة الحقيقية لشكل شكسبير، فلم يكن التصوير الفوتوجرافى قد اخترع بعد.. وهى نفس الصورة، أقصد الرسم، التى نشرت مع مجموعة الأعمال الكاملة لمسرحيات شكسبير التى نشرت فى عام ١٦٢٣ بعد وفاته بسبع سنوات..

* * *

كلام كثير قيل عن أن شكسبير لم يكن سعيداً فى حياته الزوجية مع «آن هاثاواى»، التى كانت تكبره بـ ٨ سنوات كما ذكرت قبلاً.. ويبدو أنهما كانا منفصلين بشكل أو بآخر.. ويبدو أيضاً أنه أراد أن يشعرها بالإهانة والاحتقار وبكراهيته لها حتى بعد وفاته.. فقد أوصى شكسبير فى وصيته بالبيت، وبكل ممتلكاته، لابنته سوزانا ولم يترك لزوجته غير السرير الذى فى غرفة نومه + المرتبة والملايات!!.. بما معناه (إشبعى بيه وحدك بعد وفاتى، وفقط حتى لا تنامى على الأرض).. ولست أنا وحدى الذى راح إلى ذهنى هذا الخاطر السىء؛ لكن الذين أرخوا لشكسبير قالوا نفس ما شعرت به أنا حين قرأت تلك الوصية الغريبة الساخرة.. وهو أن شكسبير وزوجته التى كان عمرها ٦٠ سنة حين مات؛ لم يكونا سعيدين فى حياتهما الزوجية، على رغم انجابهما لثلاثة أبناء: سوزانا ثم التوأم هامنت وجوديث اللذين ولدا بعد سوزانا بسنتين.. ولم يعش التوأم طويلاً فقد ماتا طفلين: هامنت أولاً وبعده جوديث..

لكن القانون الإنجليزى فى ذلك العصر كان يعطى الزوجة - على رغم الوصية - الحق فى ثلث ما يتركه الزوج المرحوم + أن تظل تعيش فى بيت الزوجية حتى تموت.. وكانت سوزانا رحيمة بأمها، فتركتها تعيش فى هذا البيت فعلاً حتى ماتت بعد شكسبير بـ ٧ سنوات، فى عام ١٦٢٣..

* * *

ورثت هذا البيت سوزانا الابنة الوحيدة لشكسبير.. التى استضافت فيه لفترة – بعد وفاة أبيها بأكثر من ٤٠ سنة – ملكة إنجلترا زوجة الملك «تشارلز الأول» فى خلال الحرب الأهلية الإنجليزية التى انتهت بأن قطع الثائر الإنجليزى عضو البرلمان «أوليفر كروميل» رأس الملك «تشارلز الأول» ونصب نفسه رئيساً لجمهورية إنجلترا لمدة ١١ سنة فقط (١٦٤٩/ ١٦٦٠) حتى مات فعادت الملكية إلى إنجلترا أو عادت إنجلترا إلى الملكية مرة أخرى بتولى العرش الملك «تشارلز الثانى» ابن «تشارلز الأول»..

وحين ماتت «سوزانا» نفسها بعد ذلك بسنوات آل البيت إلى ابنتها الوحيدة «إليزابيث»، حفيدة شكسبير الوحيدة التى مات وهى طفلة.. ولما كان بيتها [ناش هاوس NASH'S HOUSE] يفصل بينه وبين بيت جدها [نيو بليس NEW PLACE] مسافة قليلة؛ فقد ضمت «إليزابيث» البيتين معاً وجعلت بينهما ممشى صغيراً.. ومن وقتها حمل البيتان الاسمين معاً: [ناش هاوس / نيو بليس NASH'S HOUSE /NEW PLACE]..

* * *

ثم، حين ماتت «إليزابيث» أيضاً؛ عاد البيت إلى أسرة «سير جون كلوبتون JOHN CLOPTON، الذى كان والده «هيو كلوبتون» – عمدة لندن العاصمة فى وقتٍ ما، هو الذى بناه فى الأصل.. وأجرى «سير جون كلوبتون» تعديلات كبيرة فى البيت.. ولأنه كان من معجبى شكسبير فقد فتح البيت أمام الزوار والسياح ليزوروا ويشاهدوا أين وكيف عاش شكسبير سنواته الأخيرة، هو، ثم زوجته، ثم ابنته، ثم حفيدته..

* * *

ثم، بعد وفاة الجميع؛ اشترى البيت قس متعصب دينياً اسمه [فرانسيس جاستريل FRANCIS GASTRELL] لم يكن على نفس القدر من التقدير والوفاء لذكرى شاعر إنجلترا العظيم، وضاق وزهق من كثرة السياح الذين يأتون من كل

مـكان فى العالم ليشـاهدوا ويزوروا بيوت شكسـبير، خصوصـاً البيت الذى مات فيه.. فذات ليلة فى عام ١٧٥٩، يعنى بعد ١٤٣ سـنة من وفاة شكسبير، (طلعت الجنونة) فجأة فى دماغ القس «جاسـتريل»، فعلى مرأى ومسـمع من كل الجيران راح يجتث كل أشجار الحديقة التى كان شكسبير قد زرعها بنفسه، ثم إندار على البيت نفسـه فبدأ يهدم فيه.. وغضب أهالى سـتراتفورد غضباً شـديداً على القس المجنون فراحوا يقذفون نوافذ البيت بالحجارة والقس معتصم فى داخله أو فيما بقى منه.. وتنبهت الإدارة المحلية للمدينة لما يحدث بعد فوات الوقت وكان البيت كله قد أصبح أنقاضاً على الأرض تماماً.. فتم طرد القس المجنون «فرانسيس جاستريل» هو وأسرته كلها من ستراتفورد طرداً عنيفاً، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يسمح لأى حد يحمل لقب «جاستريل» بأن يعيش فى ستراتفورد كلها!!..

وفـى بدايـات القرن الـ ١٧ أعيد فى نفس المـكان بالضبط بناء بيت صورة طبق الأصـل لمـا كان عليه البيت القديم [NEW PLACE] ومن نفـس مواد البناء تماماً.. والآن، فـى الطابق العلوى من البيت متحف تاريخ سـتراتفورد نفسـها منذ بداية ظهورها على خريطة إنجلترا، مروراً بفترات الرومان والأنجلو/ ساكسون فى تاريخ إنجلترا، وإنتهاءً بأيام شكسبير فقط حتى وفاته فى عام ١٦١٦..

وعلى مقربة من كل بيوت شكسبير توجد الحديقة التذكارية لشكسبير المقام فيها تمثال له، والتى كان شكسبير فى سنواته تقاعده الأخيرة يقضى فيها ساعات طويلة مسترخياً ربما لا يفكر فى شىء على الإطلاق..

* * *

انتهينا من زيارة كل بيوت شكسـبير الخمسة.. شىء أريدك أن تعرفه إذا كنت تنوى أن تزور سـتراتفورد وطبعاً ستزور بيوت شكسبير كلها.. فبدلاً من تدفع ثمن تذكرة الدخول عند مدخل كل بيت؛ فإنك تستطيع أن تشترى تذكرة واحدة كأنها (أبونيه) تتيح لك زيارة كل بيوت شكسـبير + متحف شكسـبير أرخص كثيراً مما لو اشـتريت تذكرة لكل بيت.. لو حضرتك وحدك ستدفع ١٣ جنيهاً، ومثلها عن زوجتك، أوستة جنيهات ونصف للطفل الواحد، أو ٢٩ جنيها للأسرة كلها حتى

لو فيها ١٠ أطفال، أو ١٢ جنيهاً للمتقاعدين وكبار السن وأصحاب المعاشات.. لكنك ستزور كل بيت مرة واحدة فقط.. فإذا كانت زيارة حضرتك لستراتفورد ليوم واحد أو لعدة ساعات ولم يتسع وقتك لزيارة كل بيوت شكسبير الخمسة فى ذلك اليوم؛ فضع التذكرة فى محفظتك أوفى جيبك لكى تجىء مرة أخرى فى أى يوم آخر ولو بعد ١٠٠ سنة لتزور بقية بيوت شكسبير التى لم تزرها فى المرة السابقة..

بالمناسبة: لا يسمح بدخول من هم أقل من ١٦ سنة إلا إذا كانوا «مصحوبين بحد كبير..» وهذا الحد الكبير عندهم هو أن يكون عمره ١٧ سنة فما فوق!!..

* * *

وذاعت شهرة شكسبير بعد وفاته أكثر كثيراً مما كانت فى حياته.. ففى حياته كانت شهرته قاصرة على إنجلترا وحدها، لكنها الآن شهرة عالمية قائمة ومستمرة ومتزايدة، بعد أكثر من ٣٩٠ سنة على وفاته.. وإن كان ذلك لم يمنع من أنه فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر قد (روجعت) مسرحياته وأشعاره وامتدت إليها أقلام كتاب آخرين لتخفيف حدة وشدة أسلوبه فى كتاباته، وحذفت بعض الفقرات التى اعتبرت (غير مقبولة) وقتها، وكانت تتناول الجنس والحب غير العفيف!!.. وأيضاً لـ (تخفيف) وتبسيط لغتها التى كانت تناسب العصر الذى كتبت فيه وتصبح مفهومة وسهلة لنا نحن الذين لم نعش عصر شكسبير وقد لا نفهم (بعض) لغته.. لكن، مع ذلك، يظل «ويليام شكسبير» حتى الآن واحداً من أهم رموز الثقافة الإنجليزية والأدب الإنجليزى والشعر الإنجليزى والمسرح الإنجليزى.....

* * *

وأيضاً، لابد أن أذكر هنا من باب أمانة التأريخ.. فقد هوجم شكسبير كثيراً فى حياته وبعد مماته.. فلأن (الفشل يكون يتيماً والنجاح له ألف أب)؛ فقد ادعى الكاتب المسرحى «روبرت جرين» فى حياة شكسبير أن شكسبير ليس هو الذى

يكتب مسرحياته وإنما (يقتبس) من مسرحيات غيره من الكتاب.. وادعى أيضاً عدد كبير من كتاب المسرح في عهده أنهم المؤلفون الحقيقيون لمسرحياته، بل ووصل الادعاء إلى أنه لا يوجد أصلاً شخص اسمه شكسبير وأنهم جميعاً يستخدمون هذا الاسم وكأنه اسم حركي في جمعية سرية!!.. لكنهم جميعاً لم يستطيعوا أن يثبتوا ذلك، فكل الذين اتهموه لم ينجحوا النجاح الذي نجحه ولم يلمعوا قدر لمعانه هو عندما كتبوا بأسمائهم.. كما حدث عندنا في مصر حين ادعى ملحن مغمور لم نسمع له أغنية واحدة بأنه هو الذي وضع ألحان محمد عبد الوهاب الشهيرة مثل (الجندول) و (الكرنك) و (كليوباترا) وغيرها!! .. بل ووصل الأمر في محاربة شكسبير ومحاولة التقليل من قيمته أن كاتباً ولد بعد وفاة شكسبير بأكثر من ١٥٠ سنة قال: إنه هو الذي كتب كل مسرحيات شكسبير!!.. «مجانين الشهرة وأعضاء جمعية مكافحة المواهب لم يستطيعوا أن ينالوا من عظمة شكسبير ومجده وما لبثوا أن راحوا في الظلام..».

* * *

أيضاً قيل: إن شكسبير لم يكن يجيد القراءة والكتابة لضعف تعليمه وإنه لم يستمر في المدرسة فترة كافية ليتعلم شيئاً؛ حتى إنه قد وقع على وصيته ٣ مرات بثلاثة توقيعات كل منها بتهجية إملائية مختلفة، وأيضاً لأن هذه التوقيعات الثلاث كانت هي الشيء الوحيد بخط يد شكسبير الذي عثر عليه، حتى مسرحياته وأشعاره لم تكن مكتوبة بخط يده شخصياً!!..

وأتصور أنني شخصياً أستطيع أن أرد عن شكسبير في هذا الاتهام.. ففعلاً بعض الناس قد لا يجيدون القراءة والكتابة لكنهم يجيدون الارتجال، ويجيدون الإملاء على غيرهم، سكرتير أو سكرتيرة مثلا.. النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك فقد أملى القرآن كله على عدد من الكتبة بلغة عربية فصيحة، وظل هو نبياً وظلوا هم مجرد كتبة.. الدكتور «طه حسين» عميد الأدب العربي كان كفيفاً، وبالتالي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فقد فاز ببعثة إلى

السوربون فى باريس لم يفز بها المبصرون، وأملى رسالته للدكتوراة باللغة الفرنسية على زوجته الفرنسية «سوزان»، ثم بعد عودته إلى مصر أملى على سكرتيره «فريد شحاتة» – وقبله وبعده آخرين – روائعه الأدبية ورواياته العديدة، وكانت أحاديثه فى الراديو (حديث الأربعاء) يلتف المستمعون حولها ليسمعوا أدباً عظيماً وصوتاً رخيماً مؤثراً معبراً.. فلا يعيب شكسبير، بفرض صحة الاتهام، أنه لم يكن يكتب مسرحياته بخط يده وإنما أملاها على آخرين، أو أنه لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية ويخطىء فى الإملاء.. فماذا فعل الشاطرين فى اللغة الإنجليزية وخطهم حلو وكتبوا مسرحياتهم بخطهم هم!؟.. هل نجحوا قدر نجاح شكسبير أبو خط وحِش!؟.. هل يتذكر أحد أسماءهم الآن!؟.. أيضاً حدث مع الدكتور «طه حسين» أن ادعى سكرتيره بأنه هو المؤلف الحقيقى لكتب وروايات طه حسين.. فماذا كتب إذن بعد أن إستغنى طه حسين عن خدماته!؟.. لا شىء على الإطلاق لأنه كان مجرد سكرتير يجيد القراءة والكتابة وخطه حلو فقط لا غير، وعاش بعدها فى الظلام حتى مات..

* * *

قبل أن أنهى زيارتى لـ [ستراتفورد – أبون – إيفون] شىء طريف جداً لابد أن أذكره هنا، متعلقاً بشكسبير أيضاً: [مركز شكسبير SHAKESPEARE CENTRE]، فى الأرض الفضاء المحيطة به مساحة كبيرة مسقوفة مجهزة، بحيث يمكن أن يعقد فيها مؤتمر أو اجتماع كبير أو حفلات استقبال أو حتى حفلات غداء أو عشاء لمجموعات كبيرة.. ولهواة التقاليع والحركات والمنظرة الذين يرغبون فى أن يدخل شكسبير فى حياتهم وذكرياتهم إلى الأبد: فحضرتك تستطيع أن تقيم حفل عقد قرانك أو حفل زفافك فى قاعة مركز شكسبير فى ستراتفورد.. كما تقام عندنا فى مصر حفلات الزفاف فى الفنادق الكبيرة وفى قاعات الأفراح فى الأندية، خصوصاً أندية القوات المسلحة.. الفرق أنك سوف تتزوج على أرض شكسبير وكل ما حولك شكسبير!!..

قبل أن أترك ستراتفورد وأترك شكسبير لأعود إلى لندن؛ خاطر كان يلح على ذهنى من زمان جداً منذ أن بدأت أقرأ لشكسبير وعن شكسبير وأنا تلميذ فى ثانوى، وكنت أتوقع أن أجد له إجابة فى ستراتفورد لكن ذلك لم يحدث: فقد أدهشنى، ومش عارف لماذا لم يدهش كل الذين أرخوا لحياة شكسبير: لماذا يعتزل الكتابة شاعر وكاتب مسرحى كبير بحجم شكسبير وهو فى السادسة والأربعين من عمره!؟.. بعد أن كان قد كتب كل مسرحياته العظيمة الرائعة الـ ٣٨ فى ١٨ سنة فقط، بمتوسط مسرحيتين ونصف كل سنة، من سن ٢٩ سنة إلى سن ٤٦ سنة.. وهو رقم قياسى فى إنتاج الأدب والمسرح.. فالأديب أو الكاتب المنتظم جداً الذى يكتب باستمرار؛ يكتب رواية واحدة أو مسرحية واحدة أو كتاباً واحداً فى السنة.. أما أن يكتب شكسبير ٥ مسرحيات كل سنتين فذلك إنتاج غزير وغزير جداً.. ثم فجأة وكأنه انقطاع التيار الكهربائى أو أن (بطارياته خلصت) فجأة؛ لم يعد قادراً على أن يكتب شيئاً، أى شىء.. ثم يترك لندن كلها ليعود ليتوارى فى قريته ستراتفورد، ليس لكى يشحن بطارياته ويعود ليكتب من جديد؛ إنما ليقضى ٦ سنوات كاملة لا يفعل شيئاً على الإطلاق ولا يكتب حرفاً واحداً؛ وهو فى سن السادسة والأربعين، أنضج سنوات العطاء عند أى فنان، حتى يموت بعد ٦ سنوات خاملة خامدة تماماً.. ذلك هو السؤال الذى لازال يحيرنى حتى الآن، وأظن أنه سوف يظل يحيرنى حتى ألحق بشكسبير أينما هو الآن، فربما يجيب عن تساؤلى..

* * *

## حسين قدرى

الاسم بالكامل «حسين قدرى محمد محمود».. واسم الشهرة «حسين قدرى»، وهو اسمه الشخصى، فوالده هو «محمد محمود» وليس «قدرى».. مصنف ككاتب أدب رحلات لأن معظم كتبه المنشورة – ١٨ كتابا – فى أدب الرحلات ماعدا كتابين فقط: كتاب عن الزعيم جمال عبد الناصر كتبه بعد وفاته – وفاة جمال عبد الناصر طبعاً وليس وفاة حسين قدرى – ومجموعة قصص للأطفال كتبها هدية لابنته فى عيد ميلادها العاشر..

ولد فى مدينة بلبيس فى محافظة الشرقية فى أول يناير ١٩٣٤، لأب مصرى وأم نصف تركية شديدة المصرية.. وهو الوحيد بين إخوته الثلاث الذى ولد خارج القاهرة، لأن الأب كان موظفاً يتنقل بين أقاليم مصر.. وعاش حسين قدرى فى بلبيس حتى دخل المدرسة الابتدائية فقضى سنة أولى ابتدائى فقط فى مدرسة بلبيس الابتدائية، وكان جاره فى نفس (التختة) فى فصل أولى أول هو التلميذ الصغير «مجدى يعقوب» – الـ«سير» مجدى يعقوب جراح القلب العالمى فيما بعد – قبل أن تنتقل الأسرة إلى القاهرة مع بداية الحرب العالمية الثانية.. وحين حصل على الشهادة الابتدائية كان ترتيبه السابع على (المملكة المصرية)، فلم يكن اسمها (جمهورية مصر) فى ذلك الحين.. وكان بينه وبين الأول ٣ درجات فقط، وحصل فى مادة (الرسم) على ٤ درجات من ٢٠، وكانت الـ ٤ درجات هذه هى النهاية الصغرى لأنه كان – ولازال – أخيب بنى آدم فى العالم فى الرسم، ولو كان شاطر فى الرسم شوية وحصل على ٨ درجات فقط من ٢٠ لكان ترتيبه الأول على الشهادة الابتدائية ودخل تاريخ الأسرة شىء يُفتخر به..

أخذ حب القراءة عن أمه التى كانت مكتبتها الصغيرة، الرومانسية كلها، أهم ركن فى البيت، وكانت (حواديت قبل النوم) لطفلها الصغير هى (ماجدولين) أو (تحت ظلال الزيزفون) و (غادة الكاميليا) و (أنا كارنينا) و (مدام بوفارى) و (نساء صغيرات) و (روميو وجولييت) و (نانا) و (سيرانو دى بيرجيراك) و (الفرسان

الثلاثـة).. وحين كان فى الثانية عشـرة من عمره قـرأ كتاب (أمريكا الضاحـكة) لـ«مصطفـى أمين» فانبهر به وبأسـلوبه، فقرر أن يكتب كتابـاً مثله حين يكبر.. وهكذا كان..

فى مرحلة الدراسـة الثانوية درَّس له عدد من المدرسـين أصبح معظمهم نجوماً فيمـا بعد: «نور الدمرداش» درس لـه اللغة الإنجليزية، «على أحمد باكثير» درس لـه اللغة العربية، «نظيم شـعراوى» كان مدرس التربية الرياضية، ودرس له مـادة التاريخ «الأستاذ أحمد حسين الصاوى» الذى أصبح بعد ذلك «الدكتور أحمد حسين الصاوى» أشهر أساتذة الصحافة أكاديمياً فى العالم العربى..

عاش طفولته كلها وصباه ومطلع شبابه فى حى السيدة زينب الذى يعتبره أجمل وأعرق أحياء مدينة القاهرة، وتنقل بين بيوتـه القديمة العريقـة فى (شـارع التلول) و (درب البهلوان) و (حارة البهلوان).. ولازال يحتفظ حتى الآن بصداقات الطفولة والصبا التى نشأت معه فى السيدة زينب، ولازال رفاق شلته القديمة يجتمعون فى بيته القاهرى مسـاء الخميس كل أسـبوع حتى الآن كلما كان فى أجازة فى مصر.. وفى حى السـيدة زينب اجتذبتـه الرياضـة فى مرحلة مبكرة مـن حياته قبل أن تجتذبه الصحافة والأدب، فبدأ يلعب كرة السـلة فى [نادى السـيدة زينب لأبناء الشعب]، الشـهير بـ [نادى شفشق] ومنه انطلق إلى النادى الأهلى فنادى الزمالك فالنـادى الأهلى مرة أخرى، حيث رأس فريق كرة السـلة فى الناديين لسـنوات طويلة، حتى أخذته الصحافة تماماً من الرياضة بعد تخرجه بـ ٤ سنوات..

تخرج عام ١٩٥٤، وعمل مهندساً لمدة ٤ سنوات.. ويقول عن نفسه إنه لو كان قد استمر فى العمل فى الهندسة لكان قد حصل على جائزة الدولة التقديرية كأخيب مهنـدس فى مصر، ويمكـن فى العالم.. حتى توفيت أمه التـى كان يحبها كثيراً ويحترمها كثيراً ولم يكن ليعصى لها أمراً، ولو كانت قد طلبت منه أن يحمل جبل المقطم على كتفه وينقله من القاهرة إلى أسوان لفعل دون تردد.. ولم تكن أمه تريده أن يتحول من مهندس إلى صحفى.. وفى اليوم التالى لوفاتها طلق الهندسة بالثلاثة

وأصبح صحفياً محترفاً.. كانت بداية تعلقه بالصحافة من خلال مجلة أطفال اسمها مجلة [البلبل] وهو تلميذ صغير عمره ١٢ سنة، كتب فيها صفحة بعنوان [الركن الثقافى] كانت كلها ترجمات عن مجلات الأطفال الإنجليزية .. واستمر ذلك عدة سنوات طيلة مرحلة دراسته الثانوية.. ثم كانت البداية الحقيقية كصحفى محترف فى عام ١٩٥٨ فى مجلة [التحرير] التى كانت تصدر عن (دار الجمهورية ).. وعمل وكتب فى جميع الصحف والمجلات المصرية، ووكالة أنباء الشرق الأوسط.. حتى استقر فى النهاية فى مجلة [الإذاعة والتليفزيون]، وفيها اكتشف نفسه ككاتب أدب رحلات ونشر معظم رحلاته الصحفية التى تحولت إلى كتب صنعت شهرته ووضعت اسمه على رأس قائمة أشهر كتاب أدب الرحلات فى مصر والعالم العربى.. وفى عام ١٩٩٤ اعتزل الصحافة وتفرغ لكتابة المزيد من الكتب..

فى عام ١٩٧٧ – بعد ٢٠ سنة من إعداد وتقديم برامج فى إذاعات القاهرة – أصبح أول مراسل للإذاعة المصرية فى أمريكا ثم فى أوروبا، وقدم [حسين قدرى يحييكم من لندن] الذى استمر ١٦ سنة، حتى، مرة أخرى استغرقته الكتابة فترك الراديو.. ومن وقتها وهو يعيش فى انجلترا حتى الآن – ٣١ سنة – وحصل على الجنسية الإنجليزية عام ١٩٨٣ دون أن يتنازل عن جنسيته المصرية .. وفى إنجلترا عاش أهم وأكبر تجربة فى حياته الصحفية، تجربة الهجرة، سجلها فى كتبه: [مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن] و[مذكرات مهاجر مصرى فى لندن] و [حكايات لندنية] و [حكايات أوروبية ]، وقبلها عاش (أخطر) تجربة فى حياته الصحفية والأدبية حين عاش على سطح المحيط الأطلنطى لمدة شهرين لم ير فيهما إلا الماء والسماء والسمك، وسجلها فى كتابه [راكبان على السفينة] ثم [يوميات سفينة مجنونة]..

فى لندن عمل أيضاً فى الصحافة العربية التى كانت قد بدأت تصدر فى لندن بشكل مكثف ابتداءً من أواخر السبعينيات: نائب رئيس تحرير جريدة [العرب] اليومية، مدير التحقيقات الصحفية فى جريدة [المنار] الأسبوعية، محرر صفحات

الفن فى مجلة [الدستور] الأسبوعية، مدير تحرير مجلة [الحوادث] الأسبوعية، المحرر الأول لمجلة [المسلمون] الأسبوعية، مراسل مجلة [الحياة السياحية] فى لندن، وكانت المجلة تصدر من باريس، وكاتب فى مجلة [الشرق الأوسط] فى لندن..

عضو نقابة الصحفيين المصريين، واتحاد كتاب مصر.. وعضو نقابة الصحفيين الإنجليز، عضو اتحاد الصحفيين العرب، واتحاد الصحفيين العالمى..

* * *

---

* عن [ موسوعة أدباء مصر ].. القاهرة ٢٠٠٠

## كتبه للمؤلف:

| | |
|---|---|
| ● رحلة إلى جزر كناريا. | دار المعارف – ١٩٧٣. |
| ● مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن | دار المعارف – ١٩٧٤. |
| | وطبعة ثانية – ١٩٧٥. |
| ● رحلة إلى دولة ترانزستور | دار الشعب – ١٩٧٤. |
| ● راكبان على السفينة | كتاب اليوم – ١٩٧٥. |
| | وطبعة ثانية – ١٩٩٧. |
| ● هو والذين كانوا معه | القاهرة للثقافة العربية – ١٩٧٦ |
| | وطبعة ثانية – ٢٠٠٠. |
| ● هروب إلى الفضاء (رواية). | دار المعارف – ١٩٨١. |
| | وطبعة ثانية – ١٩٩٩. |
| ● مغامرات خالد (قصص أطفال). | دار الهلال – ١٩٨٥. |
| | وطبعة ثانية – ١٩٩٨. |
| ● مذكرات سائح مصرى فى مصر | دار المعارف – ١٩٩٢. |
| ● يوميات سفينة مجنونة | دار التعاون – ١٩٩٣. |
| ● حكايات أوروبية | دار الشعب – ١٩٩٦. |
| ● حكايات لندنية | الثقافة الجماهيرية – ١٩٩٧. |
| ● مذكرات مهاجر مصرى فى لندن | دار الأمل – ٢٠٠٥. |
| ● حكايات صحفية | دار الأمل – ٢٠٠٦. |
| ● عبد الناصر.. والذين كانوا معه | كتاب الجمهورية – ٢٠٠٧ |
| ● أيام من حياتهم.. | كتاب الجمهورية – ٢٠٠٨ |
| ● ليست لندن وحدها | دار المعارف – ٢٠٠٨ |
| ● لعبة الأيام.. حكاية صورة قديمة | الهيئة العامة للكتاب – ٢٠٠٨ |
| ● حكايات من الشرق والغرب | الكتاب الفضى – ٢٠٠٨ |

## كتب جاهزة للطبع:

- بهيجة.. بنت الباشا الوزير
- مذكرات مهاجر مصرى – فى مصر..
- حكايات أوروبية – الأجزاء الثانى والثالث والرابع..
- لارا.. اعترافات امرأة متزوجة – [رواية باللغة الإنجليزية]
- حكاية بنت اسمها مخالى – اعترافات امرأة مطلقة [رواية باللغة الإنجليزية]
- رسائل من المهجر..
- المهاجرون..
- أوراق قديمة
- ١١٧ يوم فى الصحراء..
- صعلكة فى بيروت .. بيروت ٧١..
- يوميات أمريكية..
- ٣٠ سنة فى المهجر.. إنجلترا..
- مذكرات زوجة أجنبية فى مصر..
- الصندوق الأسود.. [رواية من الخيال العلمى ]..

# الفهرس

الصفحة


الإهداء ..... ٣
مقدمة ..... ٥
جامعة أوكسفورد الجامعة التى أشهر شخصياتها: ملك، وعجلاتى، وممثل، ولورانس العرب!! ..... ٧
جائزة أشهر خريجى جامعة كمبريدج.. قطع رقبته!! ..... ٢٧
برمنجهام المدينة التى أشهر أبنائها: مخترع، ومفكر، ومجنون!! ..... ٦٥
كل العرب فى ليفربول ..... ١١١
عدد المساجد فى بريطانيا ثلث عددها فى القاهرة!! ..... ١٢٧
أقدم مسجد فى بريطانيا.. ووكنج ..... ١٤٣
أحدث مسجد فى بريطانيا: كنيسة!! ..... ١٥٣
وهل هناك أشهر من شكسبير؟! ..... ١٦٧
حسين قدرى ..... ٢٠٤